AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

892.78
Z39ga2A
c.1

غادة كربلاء

رواية تاريخية غرامية

هي الحلقة الخامسة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام

وتتضمن ولاية يزيد بن معاوية وما جرى فيها
من الحوادث الفظيعة · وافظعها مقتل الامام الحسين
واهل بيته في سهل كربلاء وواقعة
الحرة الى وفاته سنة ٦٤ للهجرة

تأليف

جرجي زيدان

منشىء الهلال

مطبعة الهلال بالفجالة بمصر

سنة ١٩٠١

مقدمة

يسرُّنا اقبال قراء اللغة العربية على مطالعة رواياتنا في تاريخ الاسلام . وتزايد ذلك الاقبال دليل على رغبة ابنا هذه اللغة في استطلاع تاريخ الاسلام . ولا غرو فانه من اهم تواريخ الامم واعجب حوادث الايام . وكنا قد بدأنا بنشر هذه الروايات في الهلال ونحن نقدم قدماً ونؤخر أخرى . فآنسنا من حضرات المطالعين اقبالاً نشطنا للمثابرة على العمل فاصدرنا روايات « فتاة غسان » و « ارمانوسة المصرية » و « عذراء قريش » و « ١٧ رمضان » وهذه « غادة كربلاء » وهي الحلقة الخامسة من سلسلة روايات تاريخ الاسلام وفيها مقتل الامام الحسين وما تقدمه ولحقه من الحوادث الى وفاة يزيد بن معاوية سنة ٦٤ للهجرة وكيف افضت الخلافة الى بني امية الى موت يزيد . وقد مثلنا فيها فظاعة مقتل الحسين اوضح تمثيل مما ينقطع له القلب

وسنتبع هذه الرواية بالحلقة السادسة ونختار لها اهم نقط التاريخ التي عقبت موت يزيد . والله الموفق في كل حال

الفصل الاول

بنو هاشم وبنو أُميَّة

(وتنازع الخلافة)

قُريش قبيلة من عرب الحجاز تحتها بطون اشهرها بطن عبد مناف . وهو فخذان بنو أُميَّة وبنو هاشم وكلاهما ينتميان لعبد مناف . وكان لهذين الفخذين الرئاسة في قريش جميعاً لا ينازعهما فيها منازع . الاَّ ان بني أُمية كانوا اكثر عدداً من بني هاشم واوفر رجالاً وكانت اليهم الزعامة في الحرب

فلما جاء الاسلام والنبيُّ من بني هاشم اعتزَّ بو الهاشميون ودهش الناس من امر النبوَّة ونسوا امر العصبية . لا سيما وان الاسلام نهاهم عنها كما في الحديث « ان الله اذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها لاننا وانتم بنو آدم وآدم من تراب »

وما زال العزُّ في بني هاشم في مكة حتى مات ابو طالب عم النبي وهاجر بنوه مع من هاجر من الصحابة الى المدينة وفيهم حمزة والعباس عمَّا النبي وكثيرون غيرهم من بني عبد المطلب وسائر بني هاشم . فخلا الجو في مكة لبني امية وصارت الرئاسة اليهم في اثناء محاربتهم المسلمين في بدر وغيرها ورئيسهم يومئذٍ ابو سفيان والد معاوية مؤسس الدولة الاموية

فلما فاز المسلمون في غزواتهم وهموا بفتح مكة سنة ٧ ﻫ كان ابو سفيان كبير قريش فيها . وتحقق ان المسلمين فاتحون مكة لا محالة فجاءهم واسلم ثم اسلم اولادهُ

ولما تولى ابو بكر الخلافة لم يكن بنو اميَّة وسائر قريش ينالون من المناصب ما ينالهُ المهاجرون الاولون فشكوا ذلك الى ابي بكر فقال لهم « ادركوا اخوانكم في الجهاد » وانتدبهم لحروب الردَّة فاحسنوا الجهاد وقوَّموا الاعراب . ثم تولى عمر فبعث بهم الى حرب الروم في الشام فافتتحوها وظل معظمهم هناك . وتولى ولاية الشام منهم يزيد بن ابي سفيان حتى مات في طاعون عمواس فخلفهُ اخوهُ معاوية . ولما تولى الخليفة عثمان اقرَّ عليها فاتصلت رئاسة بني امية على قُريش في الاسلام كما كانت قبلهُ واشتغل بنو هاشم بامر النبوة ونبذوا الدنيا

فلما قتل عثمان واختلف الناس على من يبايعونه بعدهُ كان دعاة علي اكثر عدداً ولكنهم كانوا لفيفاً من قبائل شتى من رَبيعة ويمن وغيرهم . وكانت احزاب معاوية كلها من قريش اهل البأس والشدة وهم جند الشام الى ذلك الحين . فكانت عصبية معاوية اشدّ وامضى . ثم ظهر الخوارج من رجال علي فانكسرت شوكتهُ حتى اذا قتل عليٌّ سنة ٤٠ هـ اضطر ابنهُ الحسن ان يخلع نفسهُ . فاتفقت الجماعة على بيعة معاوية في منتصف سنة ٤١ هـ . وكان الناس قد نسوا دهشة النبوة ورجعوا الى امر العصبية فدانوا للاقوى — بذلك غلب معاوية واستقلّ بالخلافة . وساعدهُ على ذلك دهاؤهُ وحسن سياستهِ فانهُ كان يصانع رؤوس العرب من بني هاشم وغيرهم بالاغضاء والاحتمال والصبر على الاذى والمكروه وكانت غايتهُ في الحلم لا تدرك

على انهُ كان من الجهة الثانية يبالغ في الحطّ من قدر بني هاشم وخصوصاً اهل البيت منهم وبالاخص ابناء الامام علي . وكان يفرض على من يعترف بطاعتهِ ان يلعن علياً جهاراً فاذا لم يفعل عاقبهُ . ولهُ من هذا القبيل حوادث كثيرة اشهرها مقتل حُجر بن عديٍّ الكِندي احد اشراف بني كندة في السنة الحادية والخمسين للهجرة وقد قتلوه لانهُ ابى ان يلعن علياً كما سيجيء

واقام معاوية خليفة في الشام عشرين سنة (من سنة ٤١ — ٦٠) والمسلمون في الحجاز والكوفة ينتظرون موتهُ ليبايعوا الحسين بن علي لقربهِ من الرسول بناء على ان الخلافة شورى يولونها من ارادوا بالانتخاب كما كان شأنها الى ذلك الحين . فسبقهم معاوية قبل موتهِ الى بدعة احدثها فيها ما زالت مرعية بعدهُ الى هذا اليوم نعني بها الارث . فاوصى بولاية العهد لابنهِ يزيد . فلما توفي معاوية تولى الخلافة يزيد بن معاوية وسنهُ بضع وثلاثون سنة وكرسيهُ دمشق الشام فبايعهُ الناس بين راضٍ ومكرهٍ

الفصل الثاني

دير خالد في غُوطة دِمشق

غُوطة دمشق بقعة في بلاد الشام مشهورة بخصبها . مساحتها خمسة اميال في مثلها

تحيط بها جبال عالية وتجري فيها انهار تسقي بساتينها وتصبُّ فضلاتها في بحيرة هناك (١) وفي هذه الغوطة عمّرت دمشق الشام منذ بضعة آلاف سنة . وفيها ما عدا دمشق قرى صغيرة متفرقة بينها المغارس والحدائق من اشجار الفاكهة تجري بينها الجداول والانهار

وكان على ميل من الباب الشرقي من دمشق دبرٌ قديم يقال له « دير خالد » سمي بذلك نسبة الى خالد بن الوليد لما جاء لفتح الشام في اوائل الاسلام فنزل فيه وكان اسمه قبل ذلك « دير صليبا » (٢) وهو على مقربة من « مرج عذراء » في بستان تكاثفت فيه الاشجار من كل فاكهة زوجان

واذا نظرت الى ذلك الدير من خارجه تخيّلته قلعة منيعة لانهُ عبارة عن بناء مربع تكاد زواياه تستدير ويكسو جدرانهُ من الخارج ملاطٌ صقيل . والجدران في صعودها تميل نحو الداخل بحيث تكون قاعدة البناء اوسع من سطحه قليلاً . ولكل جدار عضائد من البناء قائمة على طوله . مدخله ضيق قصير لا يكاد يدخله الرجل الاَّ منحنياً . ولهُ باب من الخشب المصفح بالحديد قد كساه من الصدأ غشاء كثيف . وليس للدير مدخل غير هذا الباب . فاذا دخلتهُ مشيت في طرقة طولها بضعة اذرع كأنها دهليز ينتهي بباب آخر يستطرق الى باحة الدير وحولها الغرف طبقة واحدة الاَّ علّية منفردة يقيم فيها رئيس الدير في الصيف والخريف . وللدير في اعلى الجدران نوافذ لا يدركها كفُّ الواقف ولو تطاول اليها بذراعه . وهي كوى صغيرة فيها شبك الحديد . ولا يكاد المتأمل يقف هناك هنيهة حتى يدرك الغرض من بناء تلك الاديرة على هذه الصورة لانهم كثيرًا ما كانوا يتخذونها معاقل وحصونًا عند الحاجة على انهم لم يكونوا يستغنون عن اسطبل او زريبة يحبسون فيها مواشيهم ودوابهم

وكانت زريبة دير خالد بقعة مربعة من الارض في شرقي الدير مساحتها خمسون ذراعًا في خمسين يحيط بها سور من اعواد غليظة مغروسة في الارض متحاذية عليها في اطرافها العليا عوارض من الخشب مشدودة الى الاعواد بامراس من قشور الاغصان (السلوخ) . والسور اربعة اضلاع ثلاثة من هذه الاعواد والرابع هو جدار الدير نفسه . وللزريبة باب مصنوع من هذه الاعواد يدور على مصراع في طرف

(١) مراصد الاطلاع ج ٢ (٢) مراصد الاطلاع ج ١

احد جدران السور مما يلي جدار الدير . ويقفل هناك بعارضة ضخمة تدخل في هذا الجدار . ويغطي نصف الزريبة سقيفة قائمة على اعمدة غليظة تأوي اليها الماشية والدواب في ايام الشتاء

ويحيط بالدير والزريبة والبستان جميعًا سورٌ كبير من العلّيق المتكاثف علوّه قامة وبعض القامة . بابهُ من الخشب مثل باب الزريبة لكنهُ اضخم منهُ كثيرًا . وقد علقوا عنده ناقوسًا اذا جاء طارق دقهُ فيسمعهُ اهل الدير فيفتحون لهُ

تلك هي صنة دير خالد في السنة الستين للهجرة وهي السنة التي توفي فيها معاوية ابن ابي سفيان وخلفهُ ابنهُ يزيد بن معاوية على الخلافة الاسلامية في دمشق . وكان رئيس ذلك الدير شيخًا طاعنًا في السن رومي الاصل قضى في الدير ما ينيف على نصف قرن كان في بدئها راهبًا وتدرج في مراتب الرهبنة حتى صار رئيسًا . ولما نزل خالد هناك كان هذا الرئيس راهبًا صغيرًا فشهد فتح دمشق ولم يكن يعرف العربية . ولكنهُ اتقنها بعد ذلك . وكان اندم عهده وسهولة اخلاقهِ قد حاز منزلة رفيعة لدى سائر الرهبان . وكان معاوية يحترمهُ وكثيرًا ما يجالسهُ اذا خرج للرياضة في الغوطة وربما مازحهُ . ولما تولى يزيد الخلافة ظل على احترامهِ واكرامهِ

الفصل الثالث

منظر الغوطة

ففي يوم من ايام الخريف عام ٦٠ المذكور اصبح اهل الدير كالعادة وقد جاءهم الفلاحون باحمال الفاكهة من بساتين الدير وفيها سلال العنب والسفرجل والتفاح والرمان والكمثرى والخوخ والدراقن . وكان الرهبان يتوقعون قدومهم في كل صباح من ايام الخريف . فنزل بعضهم لمساعدتهم في ادخالها الى باحة الدير . والباحة المذكورة بقعة مكشوفة تحيط بها الغرف وفي وسطها شجرة من الصنصاف كبيرة تظلل معظمها ويقرب الصنصافة بئر يستقي منها اهل الدير عند الحاجة

فادخلوا السلال ازواجًا وافرادًا والرئيس لا يزال في عليتهِ وقد عاد اليها بعد صلاة الفجر واشتغل في الصلاة الانفرادية . فانتبه لضوضاء الناس فخرج من العلية حتى

وقف على قمة سُلَّم من الحجر ينتهي الى الباحة وقد تزمَّل بعباءته فوق المسوح . فاشرف على الرهبان فرآهم يحملون الاحمال كما تقدم . فقال لهم « ما لي اراكم تدخلون السلال ونحن كما تعلمون لا بد لنا من حمل بعضها الى دار الخليفة لتفرق في امرائه . فافرزوها بحسب انواعها واحملوا اربعة ازواج منها الى الخليفة وزوجاً الى كل من امرائه ورئيس شرطته كالعادة » . قال ذلك وتحوَّل الى جانب من السطح اشرف منه على معظم الغوطة . وكانت الشمس قد اطلت من وراء الجبال عن بعد فارسلت اشعتها على تلك المغارس الواسعة فنزعت اطيارها وتناثرت عن الاغصان اسراباً تتسابق الى الخلاء البعيد . وقد اتجه معظمها نحو الشرق كانها تلتمس الشمس وهي تحييها وترحب بها بالزقزقة والتغريد

ونظر الى ما بين يديه من البساتين فاذا هي تشرح الصدر وتذهب الغم برائحها العطرية المنبعثة عن انجم الريحان المتكاثف في اشكال مختلفة واكثره قائم اسواراً يتصل بين البساتين او بينها وبين الدروب ومجاري الماء . ناهيك بالرياحين الاخرى تظلّلها الاشجار على اختلاف اشكالها واقدارها وقد اعتاض اكثرها عن اوراقه الخضراء بالاثمار المختلفة الالوان وفيها الرمان الاحمر والسفرجل الاصفر والآس الابيض والخوخ البنفسجي والتفاح الوردي . وفي بعض جوانب الغوطة كروم العنب باشكالها تتدلى منها العناقيد وفيها الابيض الشمعي والاحمر الوردي والاسود الفحمي يتخلل ذلك أعشاب تكسو الارض قميصاً جميلاً تختلف الوانه باختلاف اعمارها بين الاخضر الحاني والاصفر الناقع والابيض البقق والاحمر الزاهي . يزينها ما يتحدر بينها من مجاري الماء فوق الحصباء فيختلط خريرهُ بتغريد العصافير وحفيف الاوراق كأن الغوطة جنةٌ تجري من تحتها الانهار . والشمس من وراء ذلك ترسل اشعتها فتنكسر عن تلك المجاري متلألئة . ويستوقف النظر انكسارها عن اسطحة البحيرات في بعض المستنقعات

وكان الرئيس منذ اقامته هناك لا يكاد يفوته صباح لا يقف فيه مثل ذلك الموقف يسرح بصره في تلك المناظر البهجة . فيشتغل بها عما قام من ضوضاء الرهبان والفلاحين وهم يشتغلون بترتيب الفاكهة وحمل الاحمال بما يخالط ذلك من معاء الشياه وخوار الثيران ونهيق الحمير في الزريبة

فوقف يتأمل بصنع الخالق العظيم . ثم ارسل بصره الى اطراف الغوطة من جهة

مطلع الشمس فرأى آثار الدروب عن بعدٍ . فاذا هي اشبه شيء بآثار الجداول اذا جفّ ماؤها . وفيما هو ينظر اليها بصر بقافلة علم انها قادمة من العراق او الحجاز وفيها النياق والحمير يقطر بعضها بعضاً . فطاب له استشراف تلك القافلة لعلهُ يعرفها او يتبين جهتها فحال البعد بينهُ وبين ذلك . وكان قبل شيخوختهِ حادّ البصر لا تعجزه معرفة الصور عن مثل هذا البعد . فلما اعجزه ذلك الآن وقد كلّ بصره تذكر شيخوختهُ ولعلهُ اسف لانقضاء معظم العمر . فتحول نحو ساحة الدير وعاد الى مخاطبة الرهبان وتدريبهم في ما يحملونهُ من الاحمال . حتى اذا فرغ من ذلك نزل الى الكنيسة فاقام صلاة الصبح كالعادة وعاد الى غرفتهِ العليا

الفصل الرابع

الضيوف الكرام

فصعد على السلم الحجري وفي يده درج يقرأ فيهِ حتى دخل علّيتهُ فاتكأ واستغرق في القراءة . ثم انتبه لجعجعة جمال تدنو من الدير فنادى قيّم الدير (وكيلهُ) وكان كهلاً قوي البنية ممتلىء الجسم جاء الدير من عهد قريب . فلما وقف بين يديهِ قال لهُ « اني اسمع جعجعة فاشرِف على الطريق واستطلع خبر القادمين » فاطلّ من بعض جوانب السطح ثم عاد وهو يقول « رأيت جمالاً محملة واناساً يظهر من لباسهم انهم من العراق »

فقال « اظنهم من القافلة التي تبصّرتها عن بعد في هذا الصباح وقد تحوّلوا الينا فلا بدّ لنا من القيام بضيافتهم »

فقال القيّم « وما الذي يدعونا الى القيام بذلك وهم غرباء لا نعرفهم . اما كفانا ما نقدمهُ من غلاتنا وثمارنا لرجال حكومتنا . اما هؤلاء فاذا نزلوا عندنا انزلناهم ساعة ريثما يستريحون ثم ينصرفون »

قال « اذا أرادوا الانصراف انصرفوا ولا حرج عليهم واما اذا فضلوا البقاء فلا يسعنا غير القيام بضيافتهم عملاً بالعهدة المعطاة لنا من خلفائهم »

ولم يكن القيم قد سمع بتلك العهدة فقال « وما هي تلك العهدة »

قال « هي عهود أُخذت على النصارى منذ الفتح تقضي عليهم بأُمور كثيرة من جملتها ان يقوموا بضيافة المسلمين ثلاثة ايام يخدمونهم ويقدمون لهم كل ما يحتاجون اليه . وهب انهُ لم يكن هناك عهدة فاذا نزل عندنا ضيفٌ وجب علينا اكرامهُ حتى يرحل ولو اقام سنة »

فخجل القيم من نفسهِ واراد ان يعتذر فسمع صوت الناقوس فقال الرئيس « لقد صدق ظني فاستقبل الضيوف ورحب بهم وبعد ان تجالسهم في اماكنهم اخبرني »

فبعث احد الرهبان الصغار ليفتح لهم باب البستان ووقف هو بباب الدير ينظر اليهم وهم مقبلون . فاذا هم ثلاثة عليهم العبي وعلى رؤوسهم الكوفيات مشدودة بالعقال تغطي بعض وجوههم ومعهم بضعة جمال تحمل قفافًا واجربة مملوءة تمرًا جافاً . ويدل مجمل حالهم على انهم من تجار العراق وقد جاؤا بهذه الاحمال ليبيعوها في دمشق . ولما دنوا من باب الدير لحظ الوكيل من خلال الكوفيات ان احدهم فتاة في مقتبل العمر فاشتبه في امرهم وقال في نفسهِ لو كانوا قادمين لمجرد الاتجار لما كان ثمة داعٍ لمجيء تلك الفتاة معهم . فلما وصلوا الباب خفَّ القيم لاستقبالهم وخاطب بعض الخدم باليونانية ان يأخذوا الجمال الى الزريبة للعلف ولاستقبال الضيوف وخاطبهم بلغة عربية مستعجمة لحداثة عهدهِ في الشام . فدخلوا جميعًا وهو يتقدمهم وكان احدهم طويلاً فلم يستطع الدخول من باب الدير الاَّ مطأطئًا فمروا في الطرقة الضيقة حتى انتهوا الى الباب الآخر ومنهُ الى باحة الدير حيث الصنصافة والبئر

الفصل الخامس

عروس الرواية

وأُنبئ الرئيس بدخولهم فنزل لملاقاتهم هناك ورحب بهم ودعاهم للجلوس فأَتوا بفصاحة منطقهِ بالعربية وان تكن العجمة لا تزال بادية فيها . وجلسوا على مقعد تحت الصنصافة وكلٌّ منهم في شاغل من نفسهِ . فتفرس الرئيس فيهم فرأى احدهم كهلاً في نحو الخمسين من عمرهِ طويل القامة عريض الاكتاف خفيف الدفل واسع العينين اسودهما خفيف العارضين واللحية رقيق الوجه فتذكر انهُ رآهُ غير مرة . والثاني شاب

لا يتجاوز عمرهُ بضعاً وعشرين سنة ولكن من برهُ يحسبهُ ابن ثلاثين لخصب جسمهِ ونمو عارضيهِ ولحيتهِ وكان مشرق الوجه تكاد الصحة تندفق من وجنتيهِ

واما الثالث وهو الفتاة فلم يتمالك الرئيس عند النظر اليها عن الاعجاب بجمالها اعجاباً لم يسبق لهُ في فتاة رآها في عمرهِ الطويل الذي قضاه في دمشق وضواحيها مع كثرة ما شاهدهُ من بنات الروم والعرب والنبط والسريان واليهود ولم تقع عينهُ قبل تلك الساعة على فتاة في وجهها من الجمال والهيبة ما في وجه هذه . وقد ادهشهُ منها بنوع خاص جمال عينيها وان لم تكونا كبيرتين كعيني رفيقها الشاب ولكنهما كانتا حادتين ينبعث النور من بين اهدابهما مع لمعانٍ لو اراد الرئيس الشيخ ان يعبر عنهُ ما استطاع ذلك باوضح من قولهِ انهما جذابتان لان من يراهما لا يستطيع غير الاستسلام لهما والرضوخ لسلطانهما . وقد زادهما تأثيراً على القلوب ما يتجلى فيهما من ملامح الصحة . ولم يكن في وجه الفتاة سمنٌ كثير ولكن وجهها كان ناضراً وفيهِ رونق ينطق بما وراء ذلك من الصحة . وخصوصاً في تلك الساعة على اثر السفر الطويل وقد تورّدت وجنتاها حتى كاد الدم يقطر منهما . والتفت الرئيس الى بساطة ثوبها فخيل لهُ انها من الفقراء . وقال في نفسهِ اذا كان ابوها فقيراً بالمال فانهُ غني بهذه الفتاة . ولكنها لو حسرت اكمامها وازاحت لثامها لعلم انها ليست من الفقر في شيء لما في اذنيها من اقراط اللؤلؤ وما في معصميها من الاساور والدمالج من الذهب والفضة والعاج ناهيك بما يراه حينئذٍ من جمال فمها وما فيهِ من المعاني السالبة للقلوب مما يقصر القلم ويكلُّ اللسان عن وصفهِ . والجمال الذين يعبر عنهُ باللسان او القلم ليس جمالاً وانما هو صورة يمثلها الكاتب او المتكلم بالفاظهِ . ولكن الجمال ما اعجزك وصفهُ وخانتك القريحة في التعبير عنهُ — ذلك هو جمال سلمى عروس روايتنا . وربما دلنا على بعضهِ بما يحدثهُ من التأثير في قلوب الناظرين . فقد كان في محياها شيءٌ لا يعبر عنهُ الاَّ بالسحر اذ لا يراها احد الاَّ وينعطف نحوها ولا يكلمها بشرٌ الاَّ ويشعر بسلطة لها عليهِ فلا يقوى على جدالها . فضلاً عما فطرت عليهِ من الذكاء وحدة الذهن واصالة الرأي مع ما يتجلى في وجهها من عزة النفس والانفة وهما زينة العذراء وسياج عفافها

وكان الرئيس لما رأى اولئك الضيوف ظنّهم لاول وهلة ابًا وولديهِ ولكنهُ ما لبث ان تبين من تباين الملامح انهُ ليس اباهما وان تكن المشابهة قريبة بين الشاب والفتاة

فافتتح الرئيس الحديث قائلاً « يظهر انكم قادمون من مكان بعيد . ألعلكم من العراق »

فاجاب عامر لاوّل وهلة . « نعم يا سيدي اننا قادمون من الكوفة باحمال التمر الى اسواق دمشق »

ولم يكد عامر يتم كلامهُ حتى فقه لهُ الرئيس وتذكر اسمهُ فابتدرهُ قائلاً « ألستَ عامرًا الكندي » فابتسم عامر وقال « اني هو يا سيدي وقد كتمت امري لأرى هل انت ذاكر ضيفك القديم »

فتنهد الرئيس وقال « كيف لا أذكره وقد شاهدت من ايام ضيافتهِ يومًا هائلاً . . اني لا ازال اذكر تلك الساعة الرهيبة تحت تلك الجوزة »

فاشار عامر بملامح وجههِ انهُ لا يحب تلك الذكرى المؤلمة . واراد استئناف الحديث فسبقهُ الرئيس الى السؤال قائلاً « ألعلّ هذا الشاب ابنك وهذه الفتاة ابنتك وما اسماها »

فتوقف عامر لحظة وهو يحكّ طرف ذقنهِ بسبابتهِ ثم قال « نعم انهما ولداي واسماها عبد الرحمن وسلمى »

فاكتفى الرئيس بذلك السؤال وقد لحظ في نفس عامر شيئًا يريد كتمانهُ فتشاغل بحصى كانت في جيبهِ جعل يعدّها بين اصابعهِ في داخل الجيب . وكانت هذه الحصى تقوم مقام السبحة عند الرهبان في تلك الايام . لانهم كانوا يفرضون على انفسهم صلوات معدودة يصلونها في اليوم فيضعون في جيوبهم من الحصى بقدر ذلك العدد وكلما فرغوا من صلاة رموا حصاة حتى تفرغ الجيب فيستدلون على اتمام ذلك الفرض . ولم تتخذ السبحات في النصرانية الاّ في القرن الثالث عشر للميلاد (١) — فتشاغل الرئيس بتلك الحصى وحوّل الحديث الى موضوع آخر فقال لهُ « بكم قطعتم الطريق من الكوفة الى هنا »

قال « قطعناها بعشرين يومًا مع القافلة »

فقال الرئيس « تكبدتم هذا السفر الطويل لمجرد الاتجار بهذه الاثمار . فانها لا تباع بما يساوي تعبكم في حملها »

فاشتمّ عامر من سؤال الرئيس رائحة الارتياب ولم يرَ بدًّا من ازالة كل شك فقال « صدقت يا مولاي . ولو كان متكلنا على بيع هذه الاحمال ما تكبدنا المشقة من اجلها ولكننا نبيعها ونبيع الجمال ايضًا . وهي تباع بثمن غالٍ وارباحها اضعاف ارباح التمر

(١) قاموس الاسلام

وفي عودتنا نجر تجارة اخرى نحملها من دمشق الى العراق » . ثم تذكر ان مجيء سلمى معهُ لايعقل فالتمس لذلك عذرًا بقولهِ « اما سلمى فانها احبت مرافقتنا لترى دمشق ومناظرها فرأينا ذلك اولى لها من البقاء في الكوفة وحدها في اثناء غيابنا »

الفصل السادس

الشيخ الناسك

وكان عامر والرئيس يتكلمان وسلمى تنظر الى شيخ متكىء في زاوية الباحة وبجانبهِ كلبٌ كبير الهامة اسود اللون قويُّ البنية . وكان الكلب قاعدًا على مؤخرهِ وقد نصب يديهِ واعتمد عليها كأنهُ اسد رابض . وكان بصرهُ متجهًا الى سلمى كأنهُ يتأمل وجهها وعيناهُ تتلألآن كالمصابيح

واما الشيخ المتكئُ فانهُ استلفت انتباه سلمى بنوع خاص لغرابة هيأتهِ وخشونة لباسهِ . ولم تكن رأت مثل ذلك الرجل قط ولا سمعت بمثلهِ . وقد كان من الشيخوخة بحيث لم يبق في شعرهِ شعرة سوداء حتى يخيل لك اذا نظرت الى رأسهِ عن بعد انهُ غمامة بيضاء قد برز منها انف اعقف وعينان سوداوان غائرتان احدق بحدقتيهما قوس الاشياخ يعلوهما حبين متجعد . ومما يزيد منظر ذلك الشيخ رهبة انهُ لم يمشط شعرهُ ولا غسل وجههُ منذ اعوام فاصبح الشعر معربسًا لا يسلك فيهِ مشط . ورأتهُ سلمى يحكُّ لحيتهُ ورأسهُ ويحاول مشطها باظافر ممتطيلة كالمناجل . واغرب من كل ذلك انها لم ترَ عليهِ من اللباس الاَّ ثوبًا من نسيج الشعر كالمسوح التي يلبسها النساك او هي عباءة اصبحت لقدم عهدها لا يعرف لها لون . فتمثلت لسلمى الشيخوخة تمثلاً واضحًا ووقعت من نفسها موقع الاعتبار

وكان الشيخ متكئًا بجانب الكلب وقد غلب عليهِ النعاس . فكان يغمض جفنيهِ فينام وهولا يريد ان ينام . وكلبهُ بالقرب منهُ وكلاهما مستأنس برفيقهِ . وكان عبد الرحمن ايضًا منشغل الخاطر بذلك الشيخ الهرم وكلبهِ ينظر اليهما ويفكر في حالهما . فلما ذكر عامر اسم سلمى انتبهت والتفتت اليهِ والدهشة ظاهرة على وجهها واشارت الى ذلك الشيخ وهي تقول « ان هذا الشيخ ادهشني امرهُ وارى عبد الرحمن مندهشًا بهِ مثلي »

فسمع عبد الرحمن اسمهُ فالتفت وفي لفتتهِ ما يدلُّ على تعجبهِ مثلها . فاشار الرئيس

اليهم باصبعهِ وعض على شفتهِ ودنا منهم فتطاولوا اليهِ باعناقهم فقال لهم همسًا « ان هذا الشيخ اشبه شيء بالنساك والمتعبدين . ولكنهُ يخالفهم في امور كثيرة وكأن فيهِ خبلاً . جاءنا منذ اعوام فاقام عندنا وهذا الكلب الاسود قلما يفارقهُ ليلاً ولا نهارًا . ولم نرهُ مرة غسل وجههُ او قلمَّ اظافره او غير ثوبهُ . ومن غريب امره انهُ لا يأوي الى غرفة ينام فيها فينوسَّدُ يومًا هذه الزاوية ويومًا تلك وآونة يبيت في الزريبة وبعض الليالي يبيت في الغوطة على بعض الاشجار او تحت بعضها . ومن اغرب ما فيهِ انهُ لا يذوق اللحم ولا الخبز ولا يأكل شيئًا غير الفاكهة . فيطوف البساتين يقطف الثمر بيدهِ ويتسلق الاشجار لهذه الغاية لا يعترضهُ معترض منَّا رحمة بهِ وشفقة على حالهِ والفاكهة هنا كثيرة »

فقال عامر « لابدَّ اذًا من ان يكون ذا كرامة لان امثال هذا الرجل يعدُّون عندنا من اصحاب الكرامات »

الفصل السابع

طارق آخر

وفيما هم يتهامسون سمعوا قرع الناقوس فخفَّ احد الرهبان ليستقبل القادم فطال وقوفهُ خارجًا ولم يعد فنهض الرئيس في اثرهِ

وكانت سلمى قد مدَّت يدها نحو الكلب واشارت اليهِ بالقدوم اليها . فهرول مسرعًا فتناولتهُ كمرة كانت في جيبها فتناولها من يدها واستأنس بالفتاة فجعل يحكُّ رأسهُ بثوبها وهي تمسُّ جبهتهُ باناملها فيبالغ في الدنو منها وهو يحرك ذنبهُ . فلما سمع الكلب قرع الناقوس انتصب بغتة ورفع ذنبهُ ووجهَ التفاتهُ الى باب الدير وحدَّق بعينيهِ ونشز اذنيهِ كأنهُ يتوقع ان يرى احدًا وقد تأهب للوثوب عليهِ

فلما طال وقوف الرئيس خارجًا نبح الكلب نبحة قوية ذعر لها الجلوس هناك وخصوصًا الشيخ الناسك وكان نائمًا فافاق بغتة والتفت الى ما حولهُ فرأى كلبهُ بعيدًا عنهُ فناداه « شيبوب » فدنا الكلب منهُ وجعل يلحس اناملهُ وذراعهُ والشيخ يقول « اهلاً بك يا رفيقي وصديقي » ثم قال لهُ « ما ظنك بهذا القادم يظهر لي من عوائك انك اسأت بهِ الظن »

فلما سمع عامر صوت الشيخ ورآه يتكلم العربية الفصحى وقد سمى كلبه باسم عربي جاهلي قال في نفسه « يظهر ان الرجل عربي ايضاً فمن هو يا ترى وما سبب حاله ؟ »

أما الرئيس فكان قد استطيباً راهبه واسرع اليه فرأى بالباب رجلاً في لباس يشبه لباس عامر ورفيقه . ولكنه اجفل لما رآه في وجهه من البرص الشديد الى درجة البياض الناصع . على انه حسبه لاول وهلة رفيقاً لعامر وقد تخلف في الطريق فرحب به وقال له « تفضل ان رفاقك جلوس هنا منذ ساعتين »

فاوماً اليه الرجل ان يسكت واجتذبه بيده الى منعطف وراء الباب حيث لا يراهما احد وقال له « احترس ان تذكر مجيئي لاحد وخصوصاً لهؤلاء الثلاثة الذين ظننتهم رفاقي . فان في الامر سرًّا عظيماً سابديه لك في ما بعد . واما الآن فاطلب اليك ان تدخلني غرفة لا يراني فيها احد ولا يعلم احد بوجودي هنا . وقد قلت لك احترس لنفسك . والامر يتعلق بمولانا امير المؤمنين »

فخاف الرئيس واجاب على الفور « اني فاعل ما تريد واذا شئت ان أُخرج هؤلاء الاضياف من الدير في هذه الساعة فعلتُ »

قال « لا تخرجهم بل استبقهم كما يشاؤون ولكني اوصيك ان لا تذكر خبر مجيئي ابدًا »

قال « سمعًا وطاعة » وادخله من باب في تلك الطرقة يؤدّي الى دهليز يستطرق الى حجر يقيم فيها الرهبان الذين يشتغلون في الصناعة وفيهم الحائك والخياط والنجار وصانع النعال والسلال وغير ذلك . والضيف الأبرص يعجب لما يراه حتى ظن نفسه في بعض اسواق الكوفة . فاستغرب ذلك منهم اكثر من استغرابه ملابسهم لانه كان قد رأى رهبان العراق في مثل هذه الملابس وهي المسوح من نسيج الشعر او القطن فوقه جلد ابيض من جلود الماعز لا يفارق اجساد الرهبان ليلاً ولا نهارًا الاّ وقت تناول الاسرار المقدسة (١)

ومشى الرئيس به حتى انتهى الى غرفة خصوصية بجانب الكنيسة . ودخل الرئيس معه وهو يردد في ذهنه ما سمعه منه . ثم عاد الى ضيوفه في باحة الدير وقد أحب الاختصار في مجالستهم ومحادثتهم . فأمر بعض الرهبان ان يعدّ لهم حجرة يقيمون فيها فادخلهم غرفة ليس فيها الاّ حصير وعاد . فاغلقوا الباب وجلسوا

(١) الاسكار يديا البريطانية

الفصل الثامن

جدال

وكان اول من تكلم منهم عبد الرحمن فخاطب عامرًا قائلاً « ألم اقل لك انك اخطأت بمجيئك في اثري الى هذه الديار ولو اتيت وحدك لكان خيرًا ولكنك اصطحبت سلمى فاوجبت اساءة الظن حتى سمعت من رئيس هذا الدير ما سمعته من التلميح والتعريض »

فقال عامر « قلت لك يا ولدي انني انما جئت مدفوعًا بما تعهدت به من امر حراستك فانك بمنزلة ولدي وقد مات والدك واوصاني بكفالتك . ورأيتك اندفعت الى عمل خطير لم يقدم عليه احد قبلك . واردت ان تأتيه منفردًا في بلاد غريبة فكيف لا اتبعك . واما سلمى فانها اشد قلقًا مني عليك »

فقال « العاك تخطئني في عمل انتقم به لآل الرسول (صلعم) وانجي به المسلمين »

فقطعت سلمى عليه الكلام بصوت هادىء والرزانة بادية على وجهها وقالت « لامشاحة ان الامر الذي جئت من اجله امرٌ مقدس اذا انت لم تقدم عليه أقدمتُ انا ولعلي اولى به منك . فان الرجل الذي تنوي قتله واراحة الناس منه قد اساء اليّ وبيني وبينه ثأر عظيم لان والده قتل والدي كما تعلم ... قتله شرّ قتلة ... قتله وانا لم أرهُ ولا عرفت له صورة . انه قتل حجرًا الكندي سيد قومه ووجيههم . ولماذا قتله ؟ . قتله لانه لم يُطعه في لعن الامام علي ابن عم الرسول (صلعم) — نعم ان يزيدًا يستوجب القتل ان لم يكن انتقامًا للامام علي فانتقامًا لحجر بن عدي . وان لم يكن لهذا ولا لذاك فانه يستوجب القتل انقاذًا للعباد من سلطان شُغل عن مصالح الخلافة بالمنادمة على الشراب وتربية الكلاب والقرود والفهود [1] ومجالسة النساء والصيد والقنص [2] والشعر وضرب الطنابير ناهيك بتهاونه في امر الدين [3] ... فالاقدام على قتله فضيلة . ولكنه عمل خطير تحفوف بالمخاطر ... أنى لك ان تتوفق الى ذلك وانت فردٌ ويزيد خليفةٌ يحيط به الاعوان والانصار في الليل والنهار ؟ .. اني اخاف عليك ما يلغني مما اصاب

(١) المسعودي ج ٣ وابن الاثير ج ٤ (٢) الفخري (٣) الدميري

ابن ملجم اللعين الذي تجرأ على قتل الامام علي في وسط المسجد ولم ينج من القتل فهل تعرض نفسك لمثل ذلك الخطر ؟ »

وكان عبد الرحمن جالسًا وسلمى تتكلم فلما بلغت الى هذا القول وقف وجعل يخطر في الغرفة ذهابًا وايابًا وقد ظهر الاهتمام على وجهه . فلما فرغت من كلامها التفت اليها وقال « تأملي يا سلمى بما تقولين وتنهمي كلامك ... فاذا كنتِ وانت فتاة تعترفين ان قتل هذا الرجل فضيلة وانهُ ان لم اقدم عليهِ انا اقدمتِ انت فكيف لا اقدم انا وكيف لا افعل ذلك ولو كلفني حياتي ... »

فقطعت كلامهُ قائلة « لا تقل حياتي حماك الله من كل شر . هذا هو الامر الذي حركني الى اللحاق بك مع عمّي هذا . خرجتَ من الكوفة وانت عازم على قتل يزيد في دمشق الشام . ومن هو يزيد ؟ اليس هو خليفة المسلمين الآن وفي يده الحل والعقد وحولهُ الجند والاعوان — فحسبنا ان نقع بين يديهِ او يصيبك شرٌّ ونحن بعيدان فكيف تكون حالنا . فلحقنا بك لنكون بقربك لعلنا نساعدك في الرأي ... واما يزيد فانا لا أرى راحة الاّ بقتلهِ . وقد كنا نتوقع التخلص من ارتكاب هذه الجريمة لو انصف والده وترك الخلافة بعده شورى للمسلمين . وهو لو فعل ذلك ما تولاها الا حسينا وسيد شباب المسلمين الامام الحسين لانهُ احق الناس بها . ولكن معاوية ابى الا ان يوصي بها لابنهِ هذا بالرغم عن كل مسلم ... فكيف نتخلى عنهُ ...

« وزد على ذلك ان معاوية قتل ابي حجرًا شر قتلة . فاذا كنت انت ناقمًا لقتل حجر لانهُ عمك فانهُ والدي وسبب وجودي وقد قُتل ولم أرهُ . ثم انكم لم تنبئوني بهذين الا من عهد قريب . فقد ربيتُ في البادية صغيرة لا اعرف غير اللعب والمزاح وانا احسب والدي حيًّا في الكوفة والناس اذا ذكروهُ اطنبوا بمروّتهِ وشهامتهِ . وكنت اتوقع اذا شببت ان اقدم اليهِ فاراهُ وافاخر بهِ قومي . فما عتم ان قيل لي انهُ مقتول » قالت ذلك وغصّت بريقها وتوقفت عن الكلام هنيهة ثم قالت لعامر « وانت يا عمّاه لم تخبرني حتى الآن بتفصيل ذلك القتل فلا تنس وعدك بان تقص عليَّ تفصيل الخبر على قبرهِ فقد ذكرت انهُ مدفون بهذا الجوار فهل انت عارف مدفنهُ ؟ »

فتنهد عامر وقال « نعم يا سيدتي اني اعرف مدفنهُ واظن رئيس هذا الدير يعرفهُ ايضًا . الم تسمعي نصيحتهُ الى ذلك العمل الفظيع الآن »

قالت « سمعت ذلك ولكنهُ لم يسرني اذ يهمنا ان يبقى امرنا مكتومًا عن كل انسان

لنرى ما ينتهي اليه حالنا »

وكان عبد الرحمن لا يزال يخطر في الغرفة وقد حل عمامة وارخى الكوفية على اكتافه ولكنه كان يردد بصره الى سلمى وهي تتكلم وهو يعجب بحميتها . فلما قالت ذلك اجابها « اعلمي يا سلمى يا بنت عمي وخطيبتي ويا املي ويا منتهى ارلبي .. اعلمي رعاك الله اني لا يهنأ لي عيش حتى انتقم لوالدك المدفون في هذا المرج مرج عذراء واذا انا توفقت الى ذلك حق لي ان اكون لكِ وتكوني لي كما اوصى والدونا منذ ولدنا وقد كانوا احياء فاذا لم اتوفق الى ذلك فلا اسف على حياتي »

فصاحت فيه وقد كاد الحياء يغلب عليها وهي مع ذلك تحاذر ان ترفع صوتها خوف الرقباء وقالت « حياتك اعز حياة عندي وما الفائدة من بقائي اذا انت اصبت بسوء لا سمح الله فكيف تلومني بعد ذلك اذا لحقت بك . واما عمنا عامر فانه بالحقيقة بمنزلة الوالد لنا وقد انقطع عن العالم من اجلنا وهو رفيقنا في السراء والضراء »

وكان عامر مع شدة إعظامه الامر لا يغفل عن مراعاة سلمى في حركاتها وسكناتها وهي تتكلم تارة ينظر اليها وطورًا الى عبد الرحمن ويعجب بما اودعه الخالق فيهما من الخلال النادرة المثال

الفصل التاسع

حقيقة الحال

وقد فهم القارىء من خلال الحديث ان سلمى هي ابنة حجر بن عدي قتيل مرج عذراء وان عبد الرحمن ابن عمها وانهما مخطوبان وعامر كفيلهما . وتفصيل ذلك ان سلمى وُلدت في الكوفة قبل مقتل والدها بثماني سنوات فعهد بها الى امرأة عامر ترضعها وهي عند زوجها في البادية . وكانت تلك عادة المتحضرين من العرب اذا ولد لهم مولود عهدوا برضاعته الى بعض نساء البادية فيربو في الخلاء حيث الهواء نشيط والعيش رغيد فيشبُّ اولادهم صحيحي البنية شديدي الساعد . فربيت سلمى في خدر عامر ثماني سنين وهي لم ترَ والدها . فلما سيق والدها الى مرج عذراء سنة ٥١ للهجرة في جملة من سيق للقتل ثم قُتل هناك كما سيجيء وكانت والدتها قد ماتت كان آخر ما تكلمت حجر انه اوصى عامرًا بالعناية بها وان يتخذها ولدًا له وان يزوجها بعبد الرحمن ولكن بعد موت معاوية ابن

ابي سفيان . فظلت في حجره حتى شبت . وكان عامر كثير التردد على الشام للتجارة ونحوها وخصوصاً في صباه وبنو كنده لا يزالون على النصرانية . فكان اذا جاء دمشق اقام فيها مدة يتردد على الديور والكنائس يجالس اهل المعرفة فيقتبس عليهِ شذرات من تاريخ اليونان وما يتعلق بهِ من تواريخ الشام وغيرها . وكان لنباهتهِ يحفظ كل ذلك و يتفهمهُ حتى كان معدوداً بين رهطهِ من احسنهم معرفة واوسعهم اطلاعاً في التاريخ . وآنس عامر في سلمى نباهة وذكاء ورغبة في استطلاع اقاصيص الاولين فكان يقص كل ما اتصل اليهِ من اخبار الفرس والروم وما بينهما

وكانت كثيراً ما تسأله عن والدها وهو يكتم خبر مقتلهِ حتى اتفق منذ عامين ان الناس ذكروا خبره وهي تسمع فاستطلعت ذلك فباح لها عامر بحقيقة الامر فثارت حميتها وهاجت عواطفها وعوّلت على الانتقام في باطن سرها

واما عبد الرحمن فهو ابن عمها وربي معها في تلك البادية وقد قُطعت سرّتها على ان تكون زوجة لهُ . فربيا معاً منذ كانا طفلين يكيلان الرمل ويسابقان الماعز والغزلان على التلال والهضاب . وقد مات والدهُ وهو طفل وعامر كفيلهُ فلما ادرك وسمع بمقتل عمهِ حجر وما اعظمهُ الناس من امرهِ عوّل على ان يثأر لهُ . وكان كسائر بني كندة وغيرهم من دعاة اهل البيت لا يرون لمعاوية حقاً في الخلافة . فشبّ هو وابنة عمهِ على كره الامويين والنصرة لآل البيت وكان معاوية لا يزال حيّاً والناس يتوقعون موتهُ ليبايعوا الامام الحسين . فصبر على ما في نفسهِ وقد نزل هو وعامر الحجاز ومعهما سلمى واقاموا في المدينة في منزل الامام الحسين زمناً ينتظرون ما يأتي بهِ القدر

وقضت عليهم الاحوال قبيل وفاة معاوية ان يعودوا الى الكوفة فوصلوها وقد مات معاوية وجاء الخبر ببيعة يزيد فعظم ذلك على عبد الرحمن فاقسم انهُ لا يفرح قبل ان يقتل يزيداً ووافقتهُ سلمى على ذلك وعامر لا يبدي اعتراضاً ولكنهُ لم يكن يحسب عبد الرحمن يقدم على ذلك العمل سريعاً

فاصبح عبد الرحمن ذات يوم فودع سلمى وعامراً واخبرهما انهُ عازم على دمشق ليبرّ بقسمهِ فاستهلاه وهولا يصغي واخيراً ودعهما وخرج بريد دمشق . وفي مساء يوم سفرهِ تعاظم بلبال سلمى فلم يهدأ لها بال حتى لحقت بهِ هي وعامر وقد احتالا بتجارة التمر . فالتقيا بهِ في قافلة قبل الغوطة بقليل فساءهُ ذلك ولامهما على مجيئهما ولكنهُ لم يرحيلة في ارجاعهما فجاءا معهُ الى الدير كما قد رأيت

فبعد ما دار بينهما من الحديث قالت سلمى « لا بدّ لنا من تدبّر الامر بالحكمة . اما فتلك يزيدًا بين رجاله وجنده فهو أمرٌ لا نرضاه لك ولا هو مستطاع . فهل من رأي صائب رأيته في الوصول الى هذه الغاية ؟ »

فلما قالت ذلك رجع عبد الرحمن الى صوابه وجلس وهو يصلح كوفيته على رأسه وقال « انك تنطقين بالحكمة . ولا تظني فيّ الجهل الى هذا الحد فما انا متهجمٌ على هذا الامر بجهالة ولكنني رأيت رأيًا ساعرضهُ عليكما واظنكما توافقانني عليهِ »

قال عامر « وما هو »

قال « ان يزيدًا لا يمضي اسبوع لا يخرج فيهِ للصيد لان لهُ فيهِ ولعًا شديدًا فيخرج بحاشية كبيرة ومعهُ الفرسان والرجالة ولا اظنهُ يصطاد الا في هذه الغوطة لكثرة ما فيها من الطير والغزال . واعرف قرية على مقربة من هنا يقال لها (جرود)[1] يكثر فيها حمار الوحش ويزيد مولع بصيد هذا الحيوان ايضًا . فاذا أوغل في الصيد خرجتُ انا متنكرًا أراقب انفراده في اثر طريدة فارميهِ بنبل او اطعنهُ بخنجر . ولا يهمني بعد ذلك اذا بارزني فاني لا اخافهُ . فاذا لم اتمكن من استفراده في المرة الاولى حاولت ذلك في الثانية او الثالثة حتى أظفر بهِ فاذيقهُ حتفهُ واخلص الناس من شره والسلام »

فلما سمعت سلمى قولهُ ابتسمت وأبرقت عيناها سرورًا باصابة رأيهِ وقالت انهُ رأي حسن . ولكن علينا ان نراقب خروجهُ للصيد »

قال عامر « ذلك عليّ فاني اذا اصبحنا غدًا دخلت دمشق باحمالي وتجارتي واستطلعتُ خبر الصيد »

فقالت سلمى « وعلى الله التدبير ولكنني اتقدم اليك يا عمّاه ان تدلنا على قبر والدي فنزوره ونكحل عينيّ بترابهِ واسمع خبر مقتلهِ بالتفصيل »

فقال « ان القبر يا ابنتي على ربع ساعة من هذا الدير تحت شجرة من الجوز كبيرة تظهر للرائي عن بعد ولكننا لا نستطيع الذهاب اليها الاّ ليلاً لئلاّ يرانا الرئيس او غيرهُ ممن يعرفون المكان فيشتبه بنا »

وقضوا بقية ذلك اليوم بالاستراحة من وعثاء السفر وهم يتأهبون للخروج في الليل الى قبر حجر

---

(١) حياة الحيوان ج ١

الفصل العاشر

الاحتيال في الخروج

ولما غربت الشمس صعدوا الى سطح الدير وهم يتظاهرون برغبتهم في التفرج بمنظر الغوطة ليلاً . فلقيهم رئيس الدير وكان جالساً في بعض جوانب السطح يصلّي على انفراد . فتغافلوا عنهُ وجلسوا يتحادثون . حتى اذا فرغ الرئيس من صلاتهِ نهض واقترب منهم . وكان القمر في تلك الليلة بدراً كاملاً فما أزف الغروب حتى اطلّ من وراء الافق كأنهُ يتطلع الى الشمس يلتمس وداعها وهي تتجاهل غرضهُ وقد ظلت سائرة لا تلتفت اليهِ ولسان حالها يقول اذا كنت تبغي لقائي فاتبعني . وكأنهُ علم بحاجتهِ الى نورها فجرى في اثرها يتبع خطاها ويسترق من اشعتها حبالاً يرسلها على تلك الغوطة الواسعة الاطراف وفيها من الفاكهة ازواج ومن المياه اقنية وبحيرات ينعكس النور عن اسطحتها متلألئاً كالمصابيح . ولم تمض ساعة حتى علا البدر فانار تلك الحدائق الغناء فاصبحت بحراً كثير الالوان ينوب فيهِ عن هدير الامواج حفيفُ الورق وخرير المياه مع زقزقة الطيور وهي عائدة الى اوكارها اسراباً متكائفة تسبح الخلاق العظيم

واشتغل عامر بالحديث مع الرئيس . اما سلمى وعبد الرحمن فانهما لبثا واقفين بتأمل ملان في ذلك المنظر البديع وسلمى لا تزال مشغلة الخاطر بما يتهدد حبيبها عبد الرحمن من الخطر المقبل . وهي مع ذلك تشاغل نفسها بالنظر الى ما بين يديها من الاشجار الباسقة والينابيع الجارية والاشعة المتلألئة مع ما يتخلل ذلك من تغريد العصافير واصوات الماشية في الزريبة وفيها معاء الماعز وخوار الثيران وجعجعة الجمال . على ان هذا كلهُ لم يلههما عن مقتل والدها وما تتوقعهُ من سماع حديث عامر في تلك الليلة

واما عبد الرحمن فقد كان همهُ تدبير الحيلة لبلوغ امنيتهِ بمقتل بزيد لا يلتفت الى الغوطة ولا مناظرها . ثم حانت منهُ لفتة الى سلمى وهي تنظر الى الغوطة وقد قابلها البدر ووقع ضوءهُ على وجهها كأنهما قمران تلاقيا على موعد . فثار فيهِ ثائر الحب واعجب بما في ابنة عمهِ من المعاني البديعة . وتذكر اعجاب الشعراء في جمال البدر فقال في نفسهِ « ابن تلك الصفيحة المستديرة الصماء من هذا الملاك الناطق الذي ينبعث نور الحياة من محياه » وكأن لسان حالهِ يقول

بدريٍ أرق محاسناً * والفرق مثل الصبح ظاهر

وكان عامر يحاسب الرئيس بشؤون مخلفة لا علاقة لها بما في نفسهِ من امر حُجر وعزمهِ على زيارة قبرهِ في تلك الليلة . وكان نظرهُ شائعاً الى الجوزة التي يعهدها تظلل ذلك النبر . ينعل ذلك و يغافل الرئيس لئلا يلحظ تطلعهُ حتى اذا وقع نظرهُ على تلك الجوزة عرفها عن بعد من كبرها وانبساط اغصانها فتنهد تنهداً عميقاً وجعل يتفرس في الطريق الذي يؤديهِ اليها . ثم التفت الى الرئيس فقال لهُ « سبحان الخالق العظيم ما اجمل هذه الليلة المقمرة وما الطف هذه المناظر البديعة »

فقال الرئيس « ان ذلك يدلُّنا يا ولدي على قدرة الباري سبحانهُ وتعالى . اني لا أقف هذا الموقف الا سبحت العناية العظمى التي اعدت للانسان كل ما يحتاج اليهِ من دواعي سرورهِ وانبساطهِ في هذه الحياة الدنيا »

فقال عامر « سبحانهُ جل سلطانهُ ما اجمل صنعهُ وما ابدع مخلوقاتهِ . ان في العراق كثيراً من البساتين الغضة ولكن اكثر اشجارها من النخيل . واما اصناف الفاكهة التي اراها في هذه الغوطة فانها خاصة في بلاد الشام . وتحدثني نفسي ان اخرج في هذا الليل انتمتع بشذا الرياحين واجول بين الاشجار — فهل ترون مانعاً من ذلك ؟ »

قال « لا ارى مانعاً يمنعكم غير اني افضل النظر اليها من فوق هذا السطح فانهُ اوسع للنظر وخصوصاً في ضوء القمر »

قال « صدقتم ولكنني سمعت ابنتي هذه تتشوق الى الخروج فوعدتها ان ارافقها فنمشي هنيهة ثم نعود » . قال « لا مانع من خروجكم واذا شئتم ارسلت معكم بعض الرهبان يرشدكم و يسير في خدمتكم » . قال « اني اعرف الطرق جيداً فلا حاجة لنا بالرفاق » . قال « افعلوا ما بدالكم »

الفصل الحادي عشر

الخروج الى الجوزة

فتحوّل عامر الى عبد الرحمن وسلمى وقال لهما « هلم بنا ننزل الى الغوطة نتمشى بين اشجارها فقد اذن لنا حضرة الرئيس بذلك »

فنهضا وتحولوا جميعاً فنزلوا الى باحة الدير واطلوا منها الى الحجرة التي كانوا مقيمين فيها في اثناء النهار فرأوا بابها مفتوحاً فاسرع عامر الى اغلاقه . وفي ما هو عائد رأى كلب الناسك نائماً بالقرب من الباب ولم ير شيخه معه فعجب لانفراده هناك وقد سمع ان ذلك الشيخ الهرم قلما يفارق كلبه ليلاً ولا نهاراً »

وكان عبد الرحمن وسلمى قد سبقاه الى باب الدير فخرج في اثرهما وهو يقول « لقد رأيت شيبوباً نائماً وحده بقرب حجرتنا فأذكرني بذلك الشيخ الجليل . ومما ادهشني من امره انه يتكلم العربية الفصحى وفي لهجته ما يقارب لغة العراق . ووالله وددت لو خلوت به لاسأله عن اصله »

فقالت سلمى « اين هو من العراق وما الذي يأتي به الى هذا الدير اني لاأحسبه الا رجلاً ابله ولكنني استأنست بكلبه شيبوب و يا ليتنا نصطحب هذا الكلب فانه قد يدفع عنا اذى الدبابات او ينبهنا الى لص او نحوه »

فقال عبد الرحمن « دعونا من هذا الرفيق اننا في حاجة الى التستر اكثر منا الى رفقة الكلاب »

وكانوا قد وصلوا الى باب البستان ففتحوه وخرجوا الى الغوطة وهم يتظاهرون في بادىء الرأي انهم انما يريدون التمشي . حتى اذا توارى عن الدير اوغلوا بين الاشجار المتكاثفة وعامر يسير الى الامام وسلمى وعبد الرحمن يتبعانه . تارة يطلعون وطوراً ينزلون وهم يتجسسون الطرق بضوء القمر المنبعث من خلال الاغصان وقد رسمت اظلالها على الارض صوراً تشبه اشباح الآدميين متوسدة لا حراك بها أو كأنها أرواح علوية خافت أن يراها البدر فتنيأت جذوع الاشجار

وما زالوا يقطعون قناة أو يعبرون جسراً وهم سكوت وقلبُ سلمى يخفق تطلعاً الى قبر والدها وعبد الرحمن يفكر في ما قد نوى عليه من قتل يزيد

حتى اشرفوا على مرتفع خفيف تعلوهُ شجرة من الجوز منبسطة الاغصان تظلل بقعة خالية من النبات وفيها مرتفعات من الاتربة على غير نظام . فلما أطلّوا على الجوزة وقف عامر فوقفا في اثره وهما يتوقعان ان يسمعا منه قولاً يدل على القبر فاذا به قد التفت الى سلمى واشار بيده الى اكمة صغيرة بجانب ساق الجوزة وقال « هذا هو يا سلمى قبر والدك »

وما أتم كلامه حتى ترامت بكليتها على ذلك التراب وجعلت تقبله وتبكي وتصيح « ووالداه . . . هذا هو ترابك فاين انت . . اين انت يا حجر بن عدي سيد كندة »

واوغلت في البكاء

اما عبد الرحمن فتقدم حتى وقف بجانب سلمى وقد اكبر البكاء لانهُ انما جاء لينتقم لا ليبكي . فوقف الى ساق الجوزة وقال لسلمى « لا تبكي ياسلمى ان البكاء لا يجوز على ميت سننتقم لهُ في الغد » والتفت الى عامر وهو يقول « اقصص علينا يا عمّاه تفصيل مقتل صاحب هذا القبر »

فقال عامر « اجلسا ياولديّ لاقصص عليكما الخبر كما عاينتهُ » ثم قال بصوت ضعيف « واعلما اننا في ارض العدو فينبغي لنا ان نتستر ما استطعنا »

وسكتوا برهة وهم ينظرون الى ما حولهم فاذا بالمكان خال من اناس الناس لا يسمع فيهِ غير خرير السواقي عن بعد ونقيق الضفادع وقد وقعت اظلال تلك الجوزة على ما حولهم فاووا الى الظل بجانب القبر وجلسوا على التراب وسلمى جاثية وعيناها تدمعان وهي صامتة تتطاول بعنقها وتنتظر ما سيقولهُ عامر من حديث والدها

الفصل الثاني عشر

حجر بن عدي

اما عامر فجلس جثوًّا وبدأ بالفاتحة فتلاها واستغفر الله ثم افتتح الحديث قائلاً « اعلمي ياسلمى ان والدك صاحب هذا القبر كان من اقوى انصار الامام علي وقد حارب معهُ حروبًا كثيرة وجاهد عنهُ بسيفهِ ولسانهِ جهادًا حسنًا الى آخر نسمة من حياتهِ . فلما قتل الامام علي وصار امر الخلافة الى معاوية بن ابي سفيان في دمشق ظلّ والدك وغيره من انصار عليّ على دعوتهِ بين مجاهرٍ ومستتر . ولكن السلطان اصبح سلطان معاوية واستغل امر بني امية . وكان والدك يقيم في الكوفة مع قومهِ ينادي بحبهِ علياً على رؤوس الاشهاد

« وكان معاوية كما تعلمين قد جعل دينهُ الحط من كرامة عليّ وسائر اهل البيت فكان يأمر الناس ان يلعنوه . فمنهم من يطيع خائفًا ومنهم من لم يكن يفعل وفي مقدمة هؤلاء والدك حجر وبعض رفاقهِ

« وبعث معاوية في سنة ٥١ للهجرة عاملاً الى الكوفة اسمهُ المغيرة بن شعبة وأوصاه حين بعثهُ قائلاً : اما بعد فان لذي الحلم قبل اليوم تقرع العصا وقد يجزى عنك الحكيم

بغير التعليم وقد اردت ايصاءك باشياء كثيرة انا تاركها اعتماداً على بصرك ولست تاركاً ايصاءك بخصلة — لا تترك شتم عليّ وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب لاصحاب علي والاقصاء لهم والاطراء بشيعة عثمان والادناء لهم . فقال له المغيرة قد جربت وجربت وعملت قبلك لغيرك فلم يذمني وسندلو فنحمد أو نذم . فقال معاوية بل نحمد ان شاء الله

« فاقام المغيرة عاملاً على الكوفة وهو لا يدع شتم علي والوقوع فيه والدعاء لعثمان والاستغفار له . فكان والدك اذا سمع ذلك قال — بل اياكم ذم الله ولعن . ثم يقول انا اشهد ان من تذمون احق بالفضل ومن تزكون أولى بالذم . فيقول له المغيرة يا حجر اتق هذا السلطان وغضبه وسطوته فان غضب السلطان يهلك أمثالك . ثم يكف عنه ويصفح . فلما كان آخر امارة المغيرة قال في علي وعثمان ما كان يقوله فقام والدك وصاح فيه صيحة سمعها كل من بالمسجد وقال له : مُرْ لنا ايها الانسان بارزاقنا فقد حبستها عنا وليس ذلك لك وقد اصبحتَ مولعاً بذم امير المؤمنين . فقام اكثر من ثلثي الناس يقولون صدق حُجر وبرّ مرْ لنا بارزاقنا فانّ ما انت عليه لا يجدي علينا نفعاً . واكثروا من هذا القول وامثاله . فنزل المغيرة فدخل عليه قومه وقالوا على م تترك هذا الرجل يجترىء عليك في سلطانك ويقول لك هذه المقالة فيسخط عليك أمير المؤمنين معاوية . فقال لهم المغيرة اني قد قتلته : سيأتي من بعدي امير يحسبه مثلي فيصنع به ما ترونه يصنع بي فيأخذه ويقتله . اني قد قرب اجلي ولا احب ان اقتل خيار اهل هذا المصر فيسعدون واشقى ويعز في الدنيا معاوية ويشقى في الآخرة المغيرة

« ثم توفي المغيرة وولي الكوفة زياد بن ابيه المشهور بدهائه ومكره . فقام في الناس فخطبهم عند قدومه ثم ترحم على عثمان واثنى على اصحابه ولعن قاتليه . فقام والدك ففعل كما كان يفعل بالمغيرة . فكظم زياد حتى اذا عزم على الفتك به دخل وصعد المنبر ذات يوم فحمد الله واثنى عليه ووالدك جالس ثم قال : اما بعد فان غب البغي والغي وخيم ان هؤلاء جمعوا فاشروا وامنوني فاجترأوا على الله لئن لم تستقيموا لاداوينكم بدوائكم ولست بشيء ان لم أمنع الكوفة من حجر واجعله نكالاً لمن بعده — ويلمك يا حجر سقط العشاء بك على سرحان . ثم أرسل الى والدك يدعوه وهو بالمسجد . فلما أتاه رسول زياد يدعوه قال لاصحابه لاناته ولا كرامة . فرجع الرسول فاخبر زياداً فامر صاحب شرطته وهو شداد ابن الهيثم الهلالي ان يبعث اليه جماعة فنعل فسهم اصحاب والدك فرجعوا واخبروا زياداً فلما رأى زياد امتناع والدك باهله واصحابه احتال حيلاً شتى حتى تمكن من القبض عليه

بخديعة . وذلك ان بعض اصحاب والدك استأمنوا زياداً على ان يرسلهُ الى معاوية في الشام فامَّنهُ زياد وارسلوا الى والدك رحمهُ الله فحضر عند زياد . فلما رآهُ قال مرحباً بك ابا عبد الرحمن حرب ايام الحرب وحرب وقد سالم الناس . على اهلها تجني براقش . فقال والدك ما خلعت طاعة ولا فارقت جماعة واني على بيعتي . فامر بهِ الى السجن فلما تحوَّل قال زياد والله لاحرصن على قطع خيط رقبتهِ [1]

« ثم جد زياد في طلب اصحاب حجر فهربوا واخذ من قدر عليهِ منهم وجاء بعض الوشاة الى زياد فقال لهُ ان امرأً منّا يقال لهُ صيفي من رؤوس اصحاب حجر . فبعث زياد فاتى بهِ فقال : يا عدو الله ما تقول في ابي تراب . قال ما اعرف ابا تراب . فقال ما اعرفك بهِ — اتعرف علي بن ابي طالب . قال نعم . قال فذاك ابو تراب . قال كلاَّ ذاك ابو الحسن والحسين . فقال لهُ صاحب الشرطة يقول هو ابو تراب وتقول لا ؟ . فقال صيفي فان كذب الامير أكذب أنا واشهد على باطل كما شهد . فقال لهُ زياد وهذا ايضاً ؟ علَيَّ بالعصا . فجاؤوهُ بها . فقال ما تقول في علي . قال احسن قول . قال اضربوهُ فضربوهُ حتى لصق بالارض . ثم قال اقلعوا عينهُ — ما قولك في علي . قال والله لو شرحتني بالمواسي . ما قلت فيهِ الا ما سمعت مني . قال لتلعننهُ او لاضربن عينك . قال لا افعل . فاوثقوهُ حديداً وحبسوهُ [1] . اني والله لم أرَ أشجع منهُ الاَّ والدك رحمهما الله

« ثم جمع زياد اثني عشر رجلاً انهمهم بالنصرة لعلي واشهد شهوداً ان حجراً جمع اليهِ الجموع واظهر شتم الخليفة معاوية ودعا الى حربهِ . وانهُ قال ان هذا الامر لا يصلح الا في آل ابي طالب . وانهُ وثب بالمصر واخرج عامل امير المؤمنين واظهر عذر ابي تراب والترحم عليهِ والبراءة من عدوّهِ وان هؤلاء الاثني عشر الذين معهُ هم اصحابهُ على رأيهِ ثم دفع زياد والدك واصحابهُ الى اثنين من خاصتهِ وسلمها تلك الشهادات وامرهما ان يسيرا بهم الى الشام

« فساقاهم من العراق حتى انتهيا بهم الى هذا المكان وهو مرج عذراء فوضعاهم هنا وسارا الى دمشق فدخلا على معاوية وعرضا عليهِ الكتب التي كانت معهما . واتفق في مجلس معاوية اناس استوهبوا ستة من رفاق والدك فوهبهم اياهم وبعث اناساً الى هذا المرج فوصلوهُ في المساء نحو هذا الوقت

(١) ابن الاثير ج ٣

الفصل الثالث عشر

مقتل حجر

« وكنت قد صحبت الجماعة من الكوفة متنكرًا ومكثتُ عن بعد انتظر ما سيكون . فلما رأيت القادمين من دمشق ومعهم الاسلحة والانطاع علمت انهم قادمون ليقتلوهُ واصحابهُ . ولم اكن اعلم ان معاوية وهب ستة منهم . فدنوت عند ذلك من والدك فلما بصر بي دعاني اليهِ وقال لي قولاً لا انساه عمري وكأني بهِ قد تحقق دنو الاجل فقال « اني اوصيك يا عامر بطفلتي سلمى . . احتفظ بها ما استطعت ولا تزوجها الاَّ بابن عمها عبد الرحمن ولكن لا تفعل ذلك الاَّ بعد موت معاوية هذا . فاذا مات وعاد امر الخلافة شورى للمسلمين فانهم يولون الحسين لامحالة فاذا وليها هو فانهُ يتم لنا ان شاء الله » ولم يكد والدك يأسفي عليهِ يتم كلامهُ حتى وصل القادمون من عند معاوية فاستقدموا والدك وستة من رفاقهِ وقالوا لهم قبل القتل : انا قد أُمرنا ان نعرض عليكم البراءة من علي واللعن لهُ فان فعلتم تركناكم وان ابيتم قتلناكم . فقالوا لسنا فاعلي ذلك . فأُمر فحفرت القبور وأُحضرت الاكفان وقام والدك واصحابهُ يصلون عامة الليل . فلما كان الغد قدموهم ليقتلوهم فقال لهم والدك اتركوني اتوضأ واصلي فاني ما توضأت الاَّ صليت . فتركوه فصلى ثم انصرف منها وقال والله ماصليت صلاة قط اخف منها ولولا ان تظنوا فيَّ جزعًا من الموت لاستكثرت منها . ثم قال اللهم انَّا نستعديك على امتنا فان اهل الكوفة شهدوا علينا وان اهل الشام يقتلوننا اما والله لئن قتلتموني بها فاني لاول فارس من المسلمين هلك في واديها واول رجل من المسلمين نبحتهُ كلابها . ثم مشى احدهم اليهِ بالسيف فارتعد رحمهُ الله . فقالوا لهُ زعمتَ انك لاتجزع من الموت فابرأ من صاحبك وندعك . فقال ومالي لا اجزع واراى قبرًا محفورًا وكفنًا منشورًا وسيفًا مشهورًا واني والله ان جزعت من القتل لا اقول ما يسخط الرب . فقتلوهُ والهبي عليهِ وقتلوا ستة من رفاقهِ ثم صلوا عليهم ودفنوهم في هذا المكان [1] . وهذا هو قبر والدك رحمهُ الله . وخرجت انا الى الكوفة ثم قمت بكفالتك وربيتك انت وعبد الرحمن كما تعلمين

(١) ابن الاثير ج ٣

الفصل الرابع عشر

الانتقام الانتقام

وكان عامر يتكلم وسلمى وعبد الرحمن شاخصان بابصارهما وقلباهما يكادان يشتعلان . فلما بلغ الى هذا الحد لم تتمالك سلمى عن ان قالت « ويلٌ لقساة القلوب قتلة الابرياء . ألا انه لم يلعن الامام علياً قتلوهُ ؟ » ثم قالت « ان الله منتقمٌ من القوم الظالمين »

فوقف عبد الرحمن واستلّ خنجرًا ابرق فرندهُ في ضوء القمر وقال وهو ينظر الى القبر « اعلم ايها الراقد بلاحراك . اعلم يا عمّاه يا حُجر بن عدي . اني لا اخاطب ترابًا ولكنني اخاطب روحًا طاهرة لا اظنها تفارق هذا المكان . اعلم رحمك الله اني منتقم لك بحدّ هذا الخنجر قريبًا ان شاء الله »

واستولى السكوت تحت تلك الجوزة هنيهة لم يكن يسمع فيها الاّ طنين البعوض وخرير الماء . وكان كل من هؤلاء الثلاثة يفكر في شيء ومرجع الافكار الى الانتقام . ثم هبت سلمى من مكانها بغتة وجثت على قبر والدها وتناولت حفنة من تراب بيدها وقالت وهي تنظر الى السماء من خلال الاغصان « انت تعلم ايها النهار العظيم ان والدي هذا قد مات مظلومًا وانت وحدك نصير المظلومين . . . انهُ قتل في سبيل نصرة بيت نبيك (صلعم) انهُ قُتل في نصرة الامام علي وصي النبي وصهره وابن عمهِ . . . »

ولم تتم سلمى كلامها حتى سمعوا صوتًا عميقًا كأنهُ خارجٌ من اعماق القبر او كأن هاتفًا من عالم الارواح يقول بصوت ضعيف وقع همسًا في اذن كل منهم على حدة « وبشّر الذين ظلموا بعذاب أليم »

فلما سمعوا الصوت اقشعرت ابدانهم ووقفت شعور رؤوسهم ونولتهم الدهشة وظلوا صامتين هنيهة وكل منهم يحسب نفسهُ تفرّد بسماع تلك الآية والتفت الى رفيقهِ والبغتة ظاهرة على وجوههم . فتفهموا حالاً انهم سمعوها جميعًا على السواء . وخيّل لهم ان روح حُجر تنطق من عالم الغيب او ان روحًا من الارواح العلوية تخاطبهم بما تنطوي عليهِ ارادة الخلاق العظيم . فخشعوا واستولت عليهم الرهبة وكلهم ساكتون لا يبدون حراكًا وتصوروا المكان مسكونًا بعد ان كانوا يحسبونهُ مهجورًا . وكانت سلمى لا تزال قابضة على التراب بيدها وعبد الرحمن واقف والخنجر مشرعٌ في يدهِ

وبدأ عامر بالكلام فاستعاذ بالله وقرأ الفاتحة . ولم يكد يتم تلاوتها حتى ابتدره عبد الرحمن وهو يغمد خنجرهُ وقال وصوتهُ مختنق من عظم الدهشة « ارأيت يا عمّاه كيف ان الله معنا وصوت الهاتف شاهد . فهل بعد ذلك من شك في نجاح المهمة التي انتدبتُ نفسي لاجلها . . . . »

فسكتت سلمى وقد اقتنعت في باطن سرّها ان عزم عبد الرحمن الهامّ من الله ولكنها نظرًا لما تخافهُ من الخطر على حياتهِ لم تحرضهُ على ذلك بل تركت الامر يجري مجراه الطبيعي

ووقف عامر وهو ينفض التراب الذي لصق بثيابهِ من جلوسهِ هناك ويقول « سر يا ابني واتكل على الله وثق بهِ وقد سمعت قولهُ تعالى : وبشّر الذين ظلموا بعذاب أليم »

وانفضت سلمى يديها ايضًا وتحولوا جميعًا نحو الدير والقمر قد تكبد السماء والسكوت ساعتئذٍ ارهب ما عهدوه وهم قادمون لشدة ما اثر في نفوسهم من حديث عامر وكلام الهاتف . واصبحوا اذا وقعت اقدامهم على العشب او التراب في اثناء مشيهم سمعوا لوقعها دويًا واذا دبّت دابة او تنفست ضفدع وقع ذلك في آذانهم وقعًا شديدًا . فمشوا بمعظم الطريق وكأن على روسهم الطير وعامر يفكر في باب الدير ومن يفتحهُ لهم بعد مضي نصف الليل . وخاف ان يوجب غيابهم شبهة فغير الطريق التي جاءوا منها

الفصل الخامس عشر

الناسك

فاطلوا على الدير من جانبهِ الغربي فرأوهُ هادئًا وأهلهُ نيام فخافوا ان لا يجدوا من يفتح لهم الباب . لكنهم تحولوا يلتمسون مدخل البستان

حتى اذا اشرفوا عليهِ شاهدوا شبحًا قادمًا نحوهم من الجانب الآخر . فظنوهُ لاول وهلة ضيفًا طارقًا وعجبوا لقدومهِ في اواسط الليل . وفيما هم يتفرسون فيهِ قالت سلمى « هذا هو الشيخ الناسك بعينهِ . الا ترون الجلد على ظهرهِ ! وراسهُ لشدة بياضهِ كأنهُ قطعة من ثلج ؟ »

وكانوا لم يروه ماشيًا قبل ذلك الحين فعجبوا من نشاطه وخفته وقال عبد الرحمن « كنت حسبته لاول وهلة شيخنا الناسك ولكنني اشتبهت في امره لما عاينت من نشاطه وسرعة جريه فاني لا ارى قامته محدودبة كما كنت اتوقع ان تكون بعد ان رأيناه في باحة الدير »

فقال عامر « ولا اظن سبب هذا النشاط الاَّ اقتصاره على اكل الفاكهة والخضار دون اللحوم . على انني استغرب خروجه في هذا الليل واخشى ان يكون قد رآنا تحت الجوزة او لعله سمع كلامنا او اطلع على شيء من امرنا »

فقالت سلمى « لو مرَّ بنا لرأيناه او سمعنا خطواته فقد كان السكوت سائدًا وضوء القمر ساطعًا . ولكنني اظنه كان يجول في الغوطة يتناول الاثمار كما احكى لنا الرئيس عن غرابة اخلاقه وكيفية عيشته »

وفيما هم يتهامسون كان الشيخ قد ادرك باب البستان وعالجه بأداة في يده حتى انفتح فدخل ووقف ينتظر وصولهم . فاستغربوا عنايته في ذلك ولم يفهموا السبب الذي حمله على هذا العمل . ولكنهم حملوه على غرابة اخلاقه . وخصوصًا بعد ان دخلوا الباب وجيوه وهو لم يرد التحية بل اسرع الى باب الدير فقرعه وافاق بعض الرهبان ففتح له فدخل ودخلوا هم في اثره . ثم اختفى ولم يعودوا يشاهدونه كأنه كان ظلاً وزال . واما هم فاسرعوا الى غرفتهم يلتمسون المنام بعد المشقة والسهر الطويل

الفصل السادس عشر

الخروج للصيد

ولكنهم بالرغم عن تعبهم لم تغمض اجفانهم الاَّ قبيل الفجر لما ثار في خواطرهم تلك الليلة . على انهم لم يكادوا ينامون حتى افاقوا على ضوضاء الرهبان في باحة الدير وهم لا يفهمون سببًا لذلك . فنهضوا مذعورين وخرج عامر للبحث عن السبب ثم عاد والدهشة تعلوه . فابتدرته سلمى بالسؤال عن سبب دهشته

فقال بصوت خافت « ان اهل الدير يستعدون لاستقبال يزيد بن معاوية »

فبغت عبد الرحمن وقال « وكيف يستقبلونه ولماذا ؟ »

قال « لانهُ ذاهب الى الصيد في هذا الصباح . ومن عادتهِ اذا مرَّ بهذا الدير ان يستريح فيهِ ساعة وينصرف »

ولم يتم عامر كلامهُ حتى اختلج قلب عبد الرحمن بغير ان يمازج ذلك شيء من الخوف ولكنها البغتة تفعل أشد من ذلك

واما سلمى فبالطبع انها تأثرت اكثر من عبد الرحمن بنسبة ما بين الرجل والمرأة من دقة الشعور . فقال عبد الرحمن « هل انت واثق ياعماهُ مما تقول وهل ترى يزيدًا في هذا الدير اليوم »

قال « ليس نزولهُ هنا امرًا واجبًا ولكنهُ خارج الى الصيد لا محالة وسيمرُّ من طريق يقرب هذا الدير ويغلب على الظن انهُ يعرج اليهِ ويقيم هنيهة لانهُ يعرف رئيس الدير ويحترمهُ . والرئيس يعدُّ مائدة من الفاكهة والاشربة فاذا شاء اقام او ظل سائرًا في طريقهِ »

فقالت سلمى « ارجو ان ينزل هنا لكي اعاينهُ لاني لم ارَ وجههُ بعد »

فقال عبد الرحمن « ولكنكِ لا تقدرين على ذلك الاَّ اذا جلست في مكان مشرف بحيث ترينهُ ولا يراك »

قال عامر « ولا انا اريد ان يرى وجهي فالاجدر بنا ان نتخذ مقامًا في خلوة تشرف على باحة الدير واذا استطعنا ان نشرف على بستان الدير ايضًا كان حظنا اوفر . لان يزيدًا اذا اراد الصيد خرج في حاشية كبيرة وفيها البازيارية والعقَّابون وساسة الفهود والقرود والكلاب وحملة الزاد والخدم والاعوان وغير ذلك مما يحتاجون اليهِ في اثناء صيدهم »

فقال عبد الرحمن « وهل يقيمون طويلاً في الصيد »

قال « ربما اقاموا اسبوعًا او شهرًا او بضعة اسابيع [1] وهم في مضاربهم ومعهم كل ما يحتاجون اليهِ من الطعام والشراب والكساء . كذلك كان يفعل ملوك العراق عندنا من عهد الفرس . فقد كان الملك منهم اذا خرج للصيد بنوا لهُ حائطًا طولهُ فراسخ يبتدئ من دجلة مثلاً او من الفرات على زاوية . ثم يخرج الملك او الامير ومعهُ الرجال والاعوان على الخيول والبغال والحمير يطاردون الغزلان وحمر الوحش وغيرها من الطرائد نحو الحائط والنهر ويمنعونها من الرجوع فلا تزال تفرُّ من امامهم وهم

(١) الآداب السلطانية للفخري

يحدونها حتى يدخلونها وراء ذلك الحائط فتنحصر بينه وبين النهر وليس لها مجـ
فاذا انحصرت هناك دخل الملك ومن معه من خاصته وتأنقوا في القتل فيقتلون
ما يقتلون ويطلقون الباقي . واظن يزيدًا فاعلاً في هذه الغوطة مثل ذلك »

فقال عبد الرحمن « وما الحيلة في مكان نستنزفهم »

قال عامر « دعوا ذلك اليّ » وخرج الى رئيس الدير . وكان الصبح قد انبلج والرئيس على السطح يراقب تنفيذ اوامره في تنظيف الدير وضواحيه وفرش الطنافس واعداد المجالس وترتيب الفاكهة في الآنية واستحضار المياه الباردة المحلاة بالسكر وانواع الاشربة الحلوة

الفصل السابع عشر

العلية

فصعد عامر اليه وحياه فرحب الرئيس به . فتجاهل عامر وسأله عن سبب ذلك الاهتمام فقال « ان امير المؤمنين مارٌّ بنا في هذا الصباح بطريقه الى الصيد ومن عادته اذا خرج للصيد ان يجعل هذا الدير اول محطة يقف فيها »

فاظهر عامر ارتياحه لذلك وقال « وقد بلغني ان مولانا الخليفة يحبكم ويحترمكم لقدم عهدكم في هذا المنصب »

قال « ربما فعل ذلك تفضلاً منه ولا غرو فاني اعرف والده من قبله وكثيرًا ما كان يجالسني واجالسه . وكان خليفتنا هذا يومئذ صبيًا يخرج احيانًا الى هذه الغوطة ومعه معلم كان يعلمه حركات النجوم وانساب العرب اسمه دغفل [1] وكان اذا اتاني أنس بي فاكرمه . فلما تولى الخلافة ظل ذاكرًا الصحبة

فقال عامر « ان منظر امير المؤمنين بحاشيته وخدمه مما ينشرح له الصدر واراني كثير الشوق الى مشاهدة ذلك المشهد وانني اشوق مني اليه . ولكنني لا أدري كيف استطيع ان اريها اياه من غير ان يراها احد لان عادتنا تقضي بالتحجب »

فقال الرئيس « ذلك امر هين يا ابني فاني اقدم لكم غرفتي فوق السطح تجلسون فيها في اثناء تلك الزيارة »

---

(١) حياة الحيوان الكبرى ج ١

ى عامر على تنضلو وقال « بورك فيك يا مولاي » وتحوّل لاستدعاء سلمى وعبد الرحمن

فلما تحوّل عامر تذكر الرئيس ماسمعهُ بالامس من الضيف الابرص المتنكر بان لهؤلاء حكاية تتعلق بامير المؤمنين ولكنهُ لم يعد يستطيع الرجوع في قولهِ

وبعد قليل عاد عامر ومعهُ رفيقاه فصعدوا جميعًا على السلم الحجري حتى انتهوا الى علية الرئيس فاستقبلهم واوصاهم بالتستر ما استطاعوا . فلم يفقهوا لوصيتهِ معنى غير مجاراتهم في مقتضيات الحجاب

فدخلوا العلية ولها نافذتان تطل احداهما على باحة الدير والاخرى على بستانهِ . فاطلوا على البستان والغوطة من ورائهِ يستطلعون موكب الخليفة قبل وصولهِ . وقد اشرقت الشمس وارسلت اشعتها على تلك المروج الخضراء تخللها الجداول والبحيرات وتطايرت العصافير وغنت البلابل الحانًا تكدرها اصوات الماشية والحمير والجمال في الزريبة فاشتغلت اذهانهم بتلك المناظر البديعة بما يخالطها من الوان الفاكهة والرياحين والازهار

الفصل الثامن عشر

يزيد وابن زياد

على انهم لم يكادوا يشتغلون بذلك حتى تبين لهم من بين الاشجار خيولٌ قادمة من ناحية دمشق في هيئة موكب يتقدمهُ فارس بلباس زاه وعلى رأسهِ عمامة صغيرة . ويجلل ثيابهُ جبة ارجوانية موشاة والى جنبهِ سيفٌ مرصع انكسرت اشعة الشمس عن احجارهِ فاضاء كالمشعال . ووراء الفارس بضعة عشر فارسًا آخرون في مقدمتهم فارس هو احسنهم زيًّا واقربهم قيافة من الفارس الاول

فعلم عامر لاول وهلة ان الفارس الاول يزيد بن معاوية ولكنهُ لم يتبين وجههُ لبعد المسافة ولاعرف رفيقهُ . على انهُ حسبهُ من بعض خاصتهِ

ولم تمالك سلمى عن الاستفهام فقالت « من هو هذا الفارس يا عماه ألعلهُ الخليفة المزعوم »

قال « يظهر من لباسهِ انهُ هو بعينهِ »

قالت « ومن هو رفيقهُ الراكب الى جنبهِ يظهر لي انهُ من اخصائهِ »

قال « اظنهُ كذلك فاذا اقترب تفرسته وانبأتك بحقيقة حالهِ »

وظلت ابصارهم شاخصة الى هذين الفارسين لا يلتفتون الى ما ورائهم حتى اقتربا من سور البستان . وكان رئيس الدير قد خرج برهبانهِ لاستقبال ذلك الضيف العظيم فترجلت الفرسان ودخل الخليفة اولاً والى جانبهِ رفيقهُ ووراءهما بقية الحاشية فمشوا في البستان وعامر يتفرس فيهم وسلمى وعبد الرحمن ينظران الى عامر فرأيا سحنتهُ تغيرت والتفت الى سلمى

فقالت « ما سبب هذه البغتة يا عماه ماذا رأيت »

فتنهد وقال « يا للعجب سبحان جامع الاشباه والنظائر أتعلمين من هما هذان ؟ »

قالت « كلاَّ ومن عسى ان يكونا »

قال « اما الاول صاحب الحلة الارجوانية الذي ترياني وجههُ شديد الادمة وعليهِ اثر الجدري [1] فهو يزيد بن معاوية الذي يسميهِ اتباعهُ امير المؤمنين خليفة رب العالمين والخلافة بريئة منهُ . وهو كما ترياني فتى حسن الصورة [2] لم يتجاوز الرابعة والثلاثين من عمرهِ [3] ولم يغير الجدري شيئاً من جمالهِ . ولكن الخلافة لا تحتاج الى الجمال وخصوصاً اذا كان صاحبها منغمساً في الملاهي ... اما رفيقهُ الماشي مرحاً فاذا اقترب منكما شممتما منهُ رائحة المسك وهو عبيد الله بن زياد »

فلما ذكر اسمهُ ارتعدت سلمى وقالت « ألعل اباهُ الساعي في قتل ابي »

قال « هو هو بعينهِ »

فقال عبد الرحمن « يا للغرابة قد اجتمع القاتلان ... ولكن سيقتل كلاهما ان شاء الله » قال ذلك وحرق اسنانهُ . فنظر عامر اليهِ شذراً كانهُ يوبخهُ على ذلك التصريح لانهم محاطون بالرقباء والاعداء من كل ناحية

ولم يكد يقترب يزيد ورفقاؤهُ من الدير حتى وصل اتباعهم ودخلوا البستان زرافات ووحداناً وفيهم الراكبون على البغال والحمير وفيهم المشاة وهم الاكثرون . ولكنهم على اشكال شتى في ملابسهم وازيائهم وفيهم اصحاب الملابس القصيرة والطويلة على الالوان وبينهم حملة الحراب والنبال بعضهم يقودون قروداً وآخرون يسوسون

(١) الخميس ج ٢ (٢) الاداب السلطانية للفخري (٣) الخميس ج ٢ (٤) ابن

قرودًا وغيرهم يجرون كلابًا . وفي ايدي الكلاب اساور الذهب وعلى ظهورها الجلال المنسوجة بالذهب يحدق بها عبيد [1] يخدم كل عبد كلبًا فيقوم بكل ما يحتاج اليه من الطعام والنظافة . وشاهدوا في جملة تلك الحاشية اناسًا يحملون طيورًا جارحة كالباز والصقر والعقاب

وانتشر هذا الجمع في البستان لان باحة الدير لا تسعهم جميعًا . ولا تسل عن الجلبة لاختلاط الاصوات وقهاصهيل الخيل ونهيق الحمير وشحيج البغال وصياح الثعالب ونباح الكلاب وضحك القرود وصرصرة البزاة وحفيف الاجنحة . يتخال ذلك ضوضاء وصلصلة وقعقعة مما يشغل الذهن ويستوقف الانتباه . ولم يدخل الدير الا يزيد وخاصته وفيهم ابن زياد

الفصل التاسع عشر

ضروب الصيد

فلم تتمالك سلمى عند ذلك عن الاستفهام عن الجمع المحتشد وما يحملونه او يسوقونه من انواع الحيوان

فابتدرها عامر قبل ان تبدأ بالسؤال فقال « انما يا سلمى في مشهد بديع يندر ان يتفق لمثلك ان تراه . ولذلك فاني أنص عليك خلاصته : فاعلمي ان الخليفة خارج للصيد وربما اوغل في الغوطة واقام في سفرته هذه اسابيع عديدة كما قلت لك قبلاً . وهو مولع بالصيد حتى شغله عن مهام الخلافة . ولا يقتصر في صيده على نوع من انواع الحيوان بل هو يصطاد الطيور والظباء والارانب وحمار الوحش وغيرها وهذا هو السبب في كثرة هذه الحاشية . فان منهم حفظة الفهود وقد اركبوها على الخيل — ويزيد هذا أول من أركبها عليها [2] أما أول من اصطاد بالفهود فهو كليب بن وائل الشهير في حروب الجاهلية . وهي تصطاد له الغزلان وحمر الوحش ونحوها . وترى في هذا الجمع عبيدًا يسوسون الكلاب وعليها الالبسة الفاخرة والاساور الذهب فان ليزيد ولعًا غريبًا في اقتناء تصطاد الغزلان والارانب [3]

(١) الاداب السلطانية (٢) حياة الحيوان (٣) مروج الذهب

« واما الطيور التي تربيها في ايدي حاملها فمنها الباز ويسمى حاملهُ الباز يار . والباز كما تعلمين من الجوارح التي تفترس الطيور الضعيفة كالدراج والحبارى والورشان والعصافير [١] . فيحمل الصيادون الباز من الجبال ويعلمونهُ الطيران والرجوع الى مكانهِ . فاذا خرجوا بهِ للصيد أطعموهُ قليلاً ويقبض الباز يار عليهِ من رجليهِ بعد ان يكسو كفهُ بقفاز من جلد . واذا امعنتِ النظر في هؤلاء الباز يارية رأيت القفافيز الجلدية تكسو اكفهم . فيمشي الباز يار وهو قابض على رجلي الباز فاذا اشتمَّ الباز رائحة دراج او حبارى رفرف والتمس الافلات فيفلتهُ الباز يار فيطير حتى يقع على طريدتهِ فيقتلها والباز يار يركض في أثرهِ . وقد يهمُّ الباز باكل الطريدة فيدركهُ الباز يار ويستخرجها من فمهِ . وقد لا يهمُّ بذلك

« وهكذا يفعل العقاب ويقال لحاملهِ عقَّاب وكذلك الصقر والشاهين وغيرها من الجوارح . ولكنها لا تصطاد الا الطيور الضعيفة كما ذكرت »

فاعترضهُ عبد الرحمن قائلاً « ولكنني سمعت ان الباز قد يصطاد الغزال ايضاً »

قال عامر « ربما اصطاده ولكنهُ لا يستطيع ذلك وحدهُ . فان بعض البزاة اذا اطلقتها على غزال رفرفت على وجههِ واعترضت مسيرهُ فتعيقهُ عن الفرار السريع ريثما يدركهُ الكلب او الفهد ويفترسهُ . تاهيك بصيد حمار الوحش فان الفهد يصطاده وقد يصطادونهُ بالنبال . وحمار الوحش كثير في « جرود » وهي قرية في هذه الغوطة » [٢]

وكانت سلمى مصغية تسمع حكاية الصيد وهي تعرف شيئاً منهُ ولكنها لم تكن تعرف هذا التفنن فيهِ . فلما وصل عامر الى هذا الحد ظهر من نغمة كلامهِ انهُ يهم باقفال الحديث فقالت سلمى « ولكنني أرى جماعة من هؤلاء الغلمان يسوسون قروداً منها قردٌ عليهِ قباء من حرير احمر واصفر وعلى رأسهِ قلنسوة من الحرير ذات الوان بديعة وقد ركب على اتان وحشية عليها سرج من الحرير الاحمر منقوش بالوان جميلة [٣] وبين يديهِ خادم يسوسهُ ويطعمهُ الفاكهة من يدهِ . فما هو شأن هذا القرد ؟ »

فضحك عامر وقال « هذا هو ابو قيس وقد رباهُ يزيد وسماه بهذا الاسم فاذا جلس يزيد للشراب مع منادميهِ طرح لهُ متكئاً معهم . وهو قرد خبيث كثيراً ما يركب على هذه الاتان فتخرج لمسابقة الخيل في ايام الحلبة (السباق) وقد يجوز قصب السبق عليها كلها »

(١) حياة الحيوان ج ٢ (٢) مراصد الاطلاع ج ١ (٣) مروج الذهب ج ٢

الفصل العشرون

الضيافة

فاشمأزت سلمى مما سمعته عن يزيد وقالت « أإلى هنا بلغت حال الخلافة · اين ذلك من عصر الخلفاء الراشدين وقد كانت ثيابهم من الكرباس الغليظ ومعالم وحمائل سيوفهم من الليف يمشون في الاسواق كبعض الرعية [1] ؟ الله الله يا عمر يا ابن الخطاب · الله الله يا علي بن ابي طالب و يا ابا بكر الصديق · · · اين الزهد والتقوى · اين العدل والقسط اين الحزم والعزم اين العلم والفضل · أواه وا أسفاه على الاسلام والمسلمين ! »

فابتدرها محمد للحال وقال « لا تندبي ياسلمى ان وقت النجاة قريب · ولا أظنك بعد ما سمعت ورأيت تترددين في اطلاق حريتي في ما عزمت عليه وغداً لناظره قريب »

فتنهدت سلمى واطرقت وكأن قلبها دقّ على خطر يتهدد حبيبها ولكنها ظلت صامتة

وفيما هم في ذلك واذا بنباح الكلاب قد علا في باحة الدير وفيه عواء شيبوب

فتحولوا الى النافذة المطلة الى تلك الباحة فرأوا الخليفة ورجاله جلوساً على طنافس فرشوها لهم تحت الصنصافة و بين ايديهم مواعين الفاكهة والرهبان وقوف باقداح الماء المحلى بالسكر وانواع الاشربة الحلوة التي يستخرجها الرهبان من الاثمار وفيها اصناف الخمور المستخرجة من العنب او التفاح او البلح وكل منها بلون خاص به كالاحمر والاصفر والبرتقالي وغير ذلك · وكان الرئيس جالساً باحترام بين يدي يزيد و بيده قدح من الفضة يقدمه له ليشرب · ولكن الصنصافة حجبت كثيراً من منظر تلك الجلسة فلم يروا الجلوس الاّ من خلال الاغصان · على ان عواء الكلاب كاد يصم اذانهم وقد شغلهم عن كل شاغل

وسبب عوائها ان يزيداً لما دخل باحة الدير تبعته كلابه وعليها الالبسة والاساور كما تقدم · وكان شيبوب وصاحبه نائمين على دكة في بعض جوانب الباحة · فلما شعر الشيخ بمجيء يزيد ارتعدت فرائصه و لم يعد يستطيع البقاء فهرول وانزوى في مستتر من الدير و لم يدعُ شيبوباً لمرافقته · فظل الكلب متكئاً حتى دخل يزيد وانتشر [illegible]

(١) الفخري

تحت الصفصافة واشتم شيبوب رائحتها فكان اشدّ نفرة ورعدة من صاحبهِ فاخذ في النباح والكلاب تجيبهُ كما تقدم

فلما طال بالكلاب العواء ولم تسكت امر الرئيس بعض الرهبان ان يطرد شيبوبًا من ذلك المكان فانتهرهُ فركض الى السلم وصعد الى السطح . وكان لعلية الرئيس كوة واطئة تشرف على السطح فادخل الكلب راسهُ منها فرأى سلمى ورفيقتها فحمحم بصوت الاستئناس ووثب الى الداخل ودنا من سلمى وقد ارخى اذنيهِ وهز ذيلهُ فاستانست هي بهِ وجعلت تمسح رأسهُ بيدها وهو يدنو منها ويحك جنبهُ بثوبها . على انها خافت ان تشتغل بهِ عن مشاهدة الضيافة فشغلتهُ بتمرات جافة كانت في جيبها . وكان شيبوب قد ألف أكل الفاكهة مثل صاحبهِ وان يكن ذلك غير طبعهِ

الفصل الحادي والعشرون

النظرة الاولى

وعادت سلمى الى التطلع من النافذة واهل الباحة مشتغلون عنها بملاطفة امير المؤمنين واكرام وفادتهِ وكلاهما لا تزال تسح قوة الاستمرار . فلم يكن من شيبوب الا انهُ اجابها بنبحة ارتجت لها العلية واستلفتت انتباه القائمين تحت الصفصافة . فالتفت بعضهم الى جهة الصوت وفي جملة الملتفتين عبد الله بن زياد رفيق الخليفة وصديقهُ . فوقع بصرهُ على وجه سلمى فلم يتمالك عن الاعجاب بجمالها وهيبتها وشعر لساعتهِ بجاذب جذب قلبهُ وامتلك عواطفهُ

اما هي فلحظت انتباه الناس اجمع شيبوب والتفات بعضهم الى العلية ووقوع نظر ابن زياد عليها فهرعت الى الداخل وقد غلب عليها الحياء وتبدلت هيأتها للحال . وكان عامر وعبد الرحمن منشغلين عن النافذة بحديث بينهما . فلما عوى شيبوب وتحولت سلمى عن النافذة التفتا اليها فاذا هي قد صبغ وجهها الحياء وظهر عليها الاضطراب . فابتدرها عبد الرحمن بالسؤال عما حملها على ذلك فاظهرت عدم الاكتراث وقالت « ان نباح هذا الكلب قد استلفت انظار بعض الجالسين بين يدي الخليفة فتطاموا الى النافذة » فقال « وما الذي تخافينهُ »

فقطع عامر عليه الكلام قائلاً « ومن انبأك بخوفها وما هو الاَّ الحياء غلب عليها »

وكان عبيدالله بن زياد قد افتتن سلمى بمجرد تلك النظرة على غير انتظار . ولم يبق له صبر عن رؤيتها والبحث عن حالها . ولكنه لم يجسر على ذلك والخليفة معه فعول في باطن سره على الاسراع في العود من الصيد بحيلة يخترعها ليزيد ويعودنو يعرج الى الدير وحده ويبحث عن تلك الغادة الفتانة

على انه لم يتمالك عن سؤال الرئيس خلسة عن سكان تلك العلية . ولا تمهل عن حال الرئيس عند ذلك السؤال بعد ما كان سمعه من ضيفه الابرص من خطارة امر اولئك الضيوف وعلاقة ذلك بالخليفة . فلما سمع ابن زياد يسأله عنهم خفق قلبه من الخوف ولكنه تجلد واجاب بسذاجة قائلاً « انهم يا مولاي رجل وابنه وابنته وهم من اهل العراق نزلوا ضيوفاً علينا » ثم انتبه لعذر ظنه يرضي عبيدالله فقال « ولا يخفى على مولاي اننا مكلفون بقبول ضيافتهم لانهم مسلمون . فانزلناهم وقمنا بخدمتهم عملاً بعهدة الخليفة عمر بن الخطاب وهي تقضي علينا بضيافة من ينزل علينا من المسلمين ثلاثة ايام »

فقال عبيدالله « فعلت حسناً » واطمأن باله من حيث كونهم مسلمين وترجح لديه ان تلك الحسناء عربية ولكي يتاكد ذلك قال مغالطاً « الم تقل ان الثلاثة رجل وامرأته وابنة »

قال « كلا يامولاي وانما هم رجل وابنة وابنته . والابنة فتاة لا زوج لها »

فازداد اطمئنان عبيد الله ولكنه خاف اذا طال غيابه ان تخرج سلمى من الدير فلا يعود يظفر بها فقال للرئيس « وهل تظن اقامتهم تطول في هذا الدير »

قال « لا ادري ولكنني اظنهم يسافرون قريباً الى دمشق لانهم آتون لتجارة »

فقال « اوصيك باستبقائهم ريثما اعود »

فقال « سمعاً وطاعة »

وكان يزيد قد تحفز للقيام فبادر عبيدالله الى الغلمان فامرهم بالتأهب للمسير فاصطف الجماعة بالترتيب الذي تعودوهُ في مثل ذلك الحين . فمشى يزيد وحوله شرذمة من الحشم ومعهم الحراب يخفرونه بها ريثما يعطي جواده . وكان الخلفاء الراشدون لايتخذون الحشم او الخفر وانما كانوا يسيرون منفردين كاحاد الناس . واذا صلوا في الجوامع صلوا امام الناس . فلما قتل الامام علي في المسجد بالكوفة رأى معاوية بعد

نجاتهِ من عواقب تلك المؤامرة [1] وتوطّد كرسي الخلافة ان يبني لنفسهِ منصورة في الجامع يصلي فيها منفردًا خوفًا مما اصاب علياً واذا سجد وقف الحرس على راسهِ بالسيوف واذا مشى او جلس في مجلسهِ قام الحشم بين يديهِ بالحراب [2] وهو اول من فعل ذلك ثم اصبح قاعدة مرعية لمن جاء بعده من الخلفاء واولهم ابنهُ يزيد هذا

فخرج يزيد بحاشيتهِ من الدير والرئيس يشيعهم الى البستان برهبانهِ حتى ركبوا وهو يدعولهم بالسلامة

اما عبيد الله فانهُ خرج وقلبهُ منشغل بسلمى وهو يعد نفسهُ بالرجوع اليها عاجلاً

الفصل الثاني والعشرون

الحب والانتقام

اما سلمى فانها نزلت هي ورفيقاها بعد انصراف الاضياف حتى دخلوا غرفتهم وعبد الرحمن ساكت لا يتكلم . وقد ادرك عامر وسلمى ما جاش في خاطر عبد الرحمن من امر الانتقام . فلما وصلوا الغرفة هموا بالجلوس الاّ عبد الرحمن فانهُ ظل واقفًا والقلق ظاهر على وجههِ . فتجاهلت سلمى حالهُ ودعتهُ للجلوس فقال « أتدعيني للجلوس وقد أزفت الساعة التي نحن في انتظارها منذ اعوام »

ففهمت مرادهُ ولكنها تجاهلت وقالت « واي ساعة تعني »

قال « أراكِ تتجاهلين حين لا ينفع التجاهل فقد قضي الامر وآن اوان الانتقام »

فاختلج قلبها في صدرها لما تخافهُ عليهِ من الخطر الشديد بعد ما شاهدت من كثرة تلك الحاشية ومعهم العدة والسلاح وقالت « دعنا من الانتقام يا عبد الرحمن فان الساعة لم تات بعد »

قال « وكيف ذلك وها ان يزيدًا خارج للصيد بكلابهِ وفهوده وجوارحهِ »

قالت « ذلك هو الامر الذي اخافهُ عليك . . . بالله لا تلقِ بيدك الى التهلكة . . ان المركب خشن والطريق وعرٌ »

قال « لقد عزمتُ وعوّلت والاتكال على الله » قال ذلك وهو يبحث عن خنجرهِ

(١) راجع رواية ١٧ رمضان (٢) الفخري

ويصلح ثيابه ويتأهب للخروج

فامسكت سلمى بذيل ثوبه وقد توردت وجنتاها وغلب عليها الحب والحياء معًا وقالت « قف بالله لاتذهب اني والله خائفة عليك من هذا الامر العظيم ... انك فردٌ وهم جماعة »

فقال « دعيني اني لا ابالي مهما يكن من كثرتهم وقد صممت على الانتقام وهذا هو وقته فلا تثني عزمي »

فقالت وهي تكاد تشرق بدموعها « لا ... لم يئن وقت الانتقام .. فلا تذهب الآن »

قال « اني لا ارى فرصة اثمن من هذه دعيني ياسلمى ... دعيني اقتل هذا الرجل وانجي المسلمين من خلافته وانتقم لحُجر بن عدي واشفي غليلي منه »

فقالت « اذا لم يكن بدٌ من الذهاب دعني اذهب معك .. فاما ان نُقتل او ان ننجو جميعًا »

قال « أليس عارًا عليَّ ان اصطحب ملاكًا لسفك الدماء .. ؟ دعيني ياسلمى » وحاول التملص منها فاذا هي ممسكة ثوبه بكلتي يديها . فغضب واراد ان يتخلص بالعنف ثم نظر الى وجهها فرأى الدموع تتساقط من عينيها فسكن غضبه ووقف وهو ينظر اليها بعين الحب الممتزج وقال لها « ما هذا يا سلمى ... ما الذي تفعلينه ... انك تضعفين عزيمتي وتحملينني على الجبن ... ما الذي يدعوك الى ذلك ؟ وعهدي بك اشد حنقًا مني واكثر رغبة في الانتقام ... »

فقالت وهي تجهش بالبكاء وصوتها يتلجلج « ألا تدري ما الذي يدعوني الى ذلك ... ؟ هو الحب ياعبد الرحمن .. ان الحب يحملني على هذا الخوف » ثم قالت بصوت ضعيف منقطع وهي تنظر الى الارض « ان الحب حلو شهيٌّ لذيذ ... »

فابتسم اعجابًا بقوة كلامها واقتدارها وهو يتجلد مخافة ان تغلب عواطفه على ما في نفسه وقال « صدقت ياحبيبتي ان الحب حلوٌ ... ما احلاه ... ولكن الانتقام يا سلمى احلى منه .. ليس في العالم الذ من الانتقام ولا احلى منه .. دعيني اخرج الى هذا الرجل الذي يسمي نفسه امير المؤمنين فاقتله بهذا الخنجر وانتقم لك ولي وانقذ المسلمين من خلافته ... او اموت في نصرة الحق و .... »

فقطعت كلامه وقالت « لا تذكر الموت يا عبد الرحمن ان ذكره يؤلمني ويؤذيني . حماك الله من شره »

قال « لا يؤلمك ذكره وقد ذاقه قبلي من هو اكرم عند الله مني . ذاقه الامام علي وذاقه والدك حجر بن عدي وذاقه كثيرون غيرهما في سبيل نصرة الحق . فما انا خير منهم ... وقد آن وقت الانتقام »

وارادت سلمى ان تجيبه فوقف عامر وقد تأثر لما شاهده من ذلك الجدال العنيف ووقع في حيرة لا يدري لمن منهما ينتصر ولكنه خاطب عبد الرحمن بسكينة وهدو وقال « تمهل يا بني وارفق بنا واعلم اذا صممت على الذهاب انك سالك طريقاً وعراً لا ترضى ان تسلكه وحدك ... دعني اسير معك لعلي انفعك في جهادك او ان اكون بين يديك فيصيبني ما يصيبك »

فالتفت عبد الرحمن الى عامر وقال « وانت ايضاً يا عماه تثبط عزيمتي ؟ ألم تسمع كلام الهاتف معاً ألم يقل ذلك الهاتف فوق قبر حجر « وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم » اترى بعد ذلك مجالاً لقائل . دعوني انصرف اذا لم يكن اجابةً لدعوى الهاتف فانتقاماً لحجر الراقد تحت تلك الجوزة المقتول ظلماً . وان لم يكن انتقاماً له فانتقاماً لصهر النبي (صلعم) وابن عمه ووصيه الامام علي . وان لم يكن لهذا ولا لذاك فانتصاراً للحق وانقاذاً للاسلام والمسلمين من سلطان شغل عن الخلافة برعاية الجوارح والكلاب والقهود والمنادمة على الشراب [1] وغير ذلك مما تعلمانه »

فاراد عامر ان يدافعه لعله يثنيه عن عزمه شفقة على سلمى فقال له « لا انكر عليك نبالة الغاية التي انت رام اليها ولكنني اظن الوقت لم يئن بعد »

الفصل الثالث والعشرون

الاصرار

فملّ عبد الرحمن من الجدال فقال « لقد ضيقتما عليّ السبل وانا لا ارى وقتاً انسب من هذا للقيام بعهدي » ثم التفت الى سلمى وقد هاجت الشجانه فوق هياج غضبه وكأنه تحقق عظم الخطر الذي يتهدده في طريقه فقال « ويكفني يا سلمى ان يكون تأجيل قتل

(١) مروج الذهب ج٣

هذا الرجل باعثًا على تأجيل اقترانا ... يا منتهى املي .. ألم اجعل قتله شرطًا لعقد زفافنا ؟ ألعلك تبغين البعد وانا اسعى فيه واشتريه بحياتي ألم اعاهد نفسي على ذلك .؟ آه يا سلمى اني عالم بما يتهددني ولا اجهل خطر الطريق ولكنني مضطر لركوب هذا المركب فاتركيني وادعي لي فان دعاك من دعاء الملائكة لانك ملاك بصورة انسان »

قال ذلك واختنق صوته فسكت وهو ينظر الى سلمى وعيناه تلمعان بما غشاهما من رقيق الدمع وقد هاجت اشجانه وثارت عواطفه وهو يغالبهما بشهامته وبسالته وسلمى لاتزال ممسكة بطرف ثوبه والحب والحياء يتنازعانها والعرق يتصبب من جبينها . فلما سمعت كلامه اطرقت الى الارض والدمع يقطر من آماقها وهي تحاول اخفاءه بسكوتها . وعامر ينظر الى ذينك الحبيبين وقلبه مشارك لهما جميعًا ولا يدري الى ايهما ينتصر

وظل الجميع ساكتين على تلك الحالة هنيهة والقلوب تتناجى وتتفاهم . وضربانها اصوات حية تفصح عما لا يعبر عنه النطق الصريح

ظلوا صامتين وعبد الرحمن يغالب عواطفه وهو يخاف ان تغلبه ولكنه امسك نفسه واعاد الكرة بتجلدهم وصبر وقال بصوت هادئ « لا اجهل يا سلمى اني سائر في مهمة ذات خطر عظيم . ولكنك تعلمين اننا انما قطعنا البراري والقفار وجئنا هذه الديار ولا غرض لنا غير الانتقام . وقد اردت المجيء وحدي فابيتما الا اللحاق بي وهذا ما كنت اتخوفه من بادىء الراي فلا تكوني عثرة في سبيلي وسبيل الحق .... انني انما جئت هذه الديار لقتل هذا الرجل ليس الا ... ام صدقتما اننا جئنا للاتجار بالتمر والجمال ؟ ... ما جئنا الا للقتل .. ايليق بنا بعد ان استعرنا الله وعزمنا ان نرجع الى الوراء ؟ أليس من العار ان يكون ابن ملجم الباغي احسن ثباتًا مني . وهو انما ارتكب بثباته قتل نفس بريئة وانا اسعى في استئصال شجرة فاسدة . . اني اسعى في انقاذ الاسلام من فساد تولا وولا علاج له غير القطع فاذا قُتل يزيد عادت الخلافة الى حبيبنا سيد شباب المسلمين الامام الحسين ابن بنت الرسول (صلعم) فاتركاني امضي لسبيلي فقد اتكلت على الله في أمري وما الموت الذي تخافانه علي الا سنة الله في خلقه . فاذا حكم علي به فلي اسوة بغيري من القوم الصالحين واكون قد تبطنت الثرى قرير العين التي وجه ربي باسماً مطمئنًا وكل ذرة من ترابي تشهد بحسن جهادي . واذا فزت وحييت فاني احيا سعيدًا وسلمى قرينتي والحسين مولاي وخليفة المسلمين ..... هذا هو القول الفصل ... وقد كفانا ترددًا وجبنًا »

فلم يبق ثمة مجال للدفاع فقال عامر « دعيو يا سلمى ... دعيو ان الله دعاه الى عمل صالح واستخارهُ دون سائر المسلمين فعسى ان يوفقنا بو .. دعيو والقي امرك الى الله ... »

فتركت سلمى ثوب عبد الرحمن ولكنها ظلت صامتة فاتمّ عامر كلامهُ قائلاً « والآن اذا أنتَ خرجت في اثر هذا الركب فما الذي تفعلهُ وكيف نطلع نحن على خبرك ... ألا ترى ان اسير أنا معك ؟ »

قال « اقسم بتربة عمي الثاوي في هذا الجوار انهُ لا يذهب معي في هذه المهمة احد . اما خبري فساحملهُ اليكم بنفسي والاّ .... » وسكت

فعادت سلمى الى القلق وقالت « والا ماذا ؟ .. قل .. »

الفصل الرابع والعشرون

العلامة

قال « اني ذاهب الآن في أثر هذه الحملة الى حيث ينزلون لصيدهم فاختبيء في بعض الاماكن حتى استفرد بزيدًا فاقتلهُ (ان شاء الله) واما كنا انتما هنا في انتظاري بقية هذا النهار وطول ليلهِ فاذا جاء مساء الغد ولم اعد اليكما اطلباني . فلا ادري اين اكون ... »

فقال عامر « سر واتكل على الله ونحن في انتظارك الى غروب الغد فاذا غابت الشمس ولم تعد الينا .... »

فقطع عبد الرحمن كلام عامر قائلاً « لا اظنني بعد مباشرة قتل الخليفة الا مضطرًا للاختفاء فلا استطيع دخول هذا الدير ... » وسكت ولبث يفكر ثم قال .. « ولكنني ارسل اليكم علامة »

قال عامر « ماهي علامتك وكيف ترسلها »

قال « ارمي اليكم بسهم اكتب بين ريشتيهِ اسم المكان الذي نلتقي فيهِ فتوافيانني اليهِ .. فاذا جاء غروب الغد انتظرا سهمي على سطح هذا الدير . ولن اذكر لكما بين الريشتين غير اسم المكان فلا خوف منهُ اذا وقع بيد الرهبان »

فاعجب عامر بتلك الفطانة وقال « انها لنعم العلامة »

فتأبط عبد الرحمن قوساً صغيرة وأسهماً وتقلد الخنجر ولبس ثوباً يشبه ثوب بعض اتباع يزيد وتزمل برداء فوق ثيابه . وكانت سلمى في اثناء ذلك تنظر اليه وقلبها لا يطاوعها على مفارقته . فلما تم الاستعداد وهمّ بوداعها خفق قلبها وندمت على قبولها بذهابه . وارادت ان تعود الى منعه فلم يترك لها فرصة واسرع ففتح الباب وخرج . فلم يعد في امكانها التظاهر بشيء مخافة ان يشتبه الرهبان بامرهم . فتظاهرت بالسكينة وارادت ان تتبعه بنظرها فاذا هو قد ادرك باب الدير وخرج منه فاصطحبت عامراً والتمست سطح الدير لكي تشيعه ببصرها وهو سائر في الغوطة . فصعدا السلم وهما يتظاهران بالميل الى التفرج . فلما اشرفا من السطح رأيا عبد الرحمن قد قطع البستان حتى خرج من بابه وهو لا يلتفت يمنة ولا يسرة ثم اوغل بين الاشجار

وفيما هما ينظران اليه من خلال الاشجار رأيا رجلاً ملثماً خرج من الدير وسار في اثره فلم يعرفاه ولا اشتبها به لخلو ذهنهما من رقيب يراقبهما هناك . ولو علما من هو ذلك الملثم وما نصبه من الشراك لعبد الرحمن لتعقباه واودياه او ارجعا عبد الرحمن عن عزمه

وما كان ذلك الملثم الاّ الضيف الابرص الذي جاء الدير بالامس واختبأ في بعض الغرف كما قدمنا . وكان قد رافقهم خلسة منذ خرجا من الكوفة لغرض في نفسه لو اوحي به لسلمى لارتعدت فرائصها ولما صبرت الى غروب الغد تنتظر رجوع حبيبها

وظلت سلمى واقفة تتطاول بعنقها وتحدق بعينيها بين الاشجار حتى غاب عبد الرحمن عن بصرها فلما توارى أحسّت كأن قلبها انخلع من مكانه ولم تعد تتمالك عن البكاء لما غلب عليها من الخوف على حياة حبيبها وندمت لمجاراته في سفره هذا وعادت الى غرفتها حزينة كئيبة لا تخاطب عامراً ولا تنظر اليه

ولم يكن عامر اقل ندماً منها على ذلك فظل صامتاً ونزل في اثر سلمى والرهبان في شاغل عنهما برفع الآنية والابسطة التي كانوا قد اعدوها للخليفة

الفصل الخامس والعشرون

البكاء

ودخلت سلمى غرفتها وقد أظلمت الدنيا في عينيها ولم تجد فرجا لها من ذلك الاّ بالبكاء. فاطلقت دموعها واستغرقت في النحيب وكأن نفسها حدثتها بما سيلقاه عبدالرحمن من الخطر العظيم وناقت بكليتها الى الذهاب في اثره خلسة لعلها تكون له عونًا في شيء . ولكنها لم تكن تعرف الجهة التي سار فيها هو ولا التي سار فيها موكب الخليفة فظلت تتراوح بين اليأس والرجاء. وعامر جالس وقلبهُ منقبض وفي نفسهِ هواجس امسك عن بيانها تخفيفًا لما ظهر لهُ من خوف سلمى . ثم تجلد وتقدم اليها وجعل يخفف عنها بكل ما في وسعهِ مما يدعو الى الاطمئنان وهي لا تصغي اليهِ

على انها عادت الى تعليل نفسها بنيل المنى فتصورت فوز حبيبها بقتل يزيد وما يترتب على فوزهِ من الامر العظيم الذي تتوق اليهِ نفس كل مسلم من دعاة اهل البيت فضلاً عن شفاء غليلها بالانتقام لوالدها فسكن روعها وخف بكاؤها . فاغتنم عامر تلك الفرصة وقال لها « خففي عنك يا سيدتي واتكلي على الله واذكري كلام الهاتف فوق قبر والدك المقتول ظلمًا واتكلي على الله وعسى ان يسعدنا الحظ بنيل المنى . وما قتل هذا الخليفة بالامر العسير لانهُ لا يستطيع دفاعًا وخصوصًا ان عبد الرحمن لا ينوي التهجم على قتلهِ جزافًا كما قد علمت ولكنهُ سيتوقع انفراده ولو بعد ايام . فهل تخافين عليهِ منهُ اذا التقيا منفردين ؟ أ لا تظنين عبد الرحمن كفوءًا ليزيد اذا تبارزا ؟ لاتخافي ولا تجزعي واتكلي على الله انهُ نعم النصير »

فوقع كلام عامر من نفسها وقوع الغيث على الارض الظمآنة ومسحت دموعها ونهضت تتشاغل بترتيب ما انتثر من الاثواب والآنية عند ما لبس عبد الرحمن ثيابهُ . ثم استلقت وقد غلب عليها التعب بعد ذلك البكاء وشعرت بالنعاس . وادرك عامر فيها ذلك فتركها في الغرفة وخرج ليخلو بنفسهِ و يفكر في امرهِ

وظلت سلمى نائمة الى العصر وعامر يتردد الى الغرفة فينتقدها فاذا رآها لاتزال نائمة عاد الى السطح او دخل الكنيسة او كلم بعض الرهبان بشؤون لاتهمهُ ولا تهمهم

وفيما هو عائد مرةً رأى شيبوبًا تحت الصفصافة فتذكر الشيخ الناسك وما توسم

فيه من الغرائب فخطر له ان يذهب اليه لعله يسمع منه كلاماً يطمئنه على عبد الرحمن وهو يعتقد الكرامة في مثل هؤلاء النساك . ثم خطر له ان يصطحب سلمى لتشاركه في ذلك الاطمئنان فتح الغرفة فرآها استيقظت مرعوبة وقد غلب عليها الانقباض . فقال « ما بالك يا بنية مالي اراك منزعجة ؟ »

قالت والدمع ملء عينيها « آه ياعماه كيف تسألني عن سبب انزعاجي وانت تعلمه وزد على ذلك ان الاحلام قد تراكمت عليّ وزادتني قلقاً »

فاظهر عامر الاستخفاف بما خافته من الاحلام ولم يشأ ان يسألها عن تفاصيل الحلم ولكنه ابتدرها قائلاً « دعينا من الاحلام والاوهام وهلمي بنا الى الشيخ الناسك نجلس اليه عسانا ان نسمع منه بشارة اني والله اعتقد الكرامة في امثاله »

فارتاحت سلمى لذلك الرأي ووقفت للحال وقد انبسط وجهها وزالت عبوسته وقالت « لقد رأيت الراي الصواب ياعماه هيا بنا اليه اين هو ؟ »

قال « اظنه في بعض جوانب الدير فقد رأيت كلبه الساعة تحت الصفصافة فلا يبعد ان يكون هو في زاوية من زوايا الدير او في بعض غرفه »

الفصل السادس والعشرون

الكهف

قال ذلك وخرج وخرجت هي في اثره . فلما اطلا على الباحة رآهما الكلب فهرول الى سلمى وهو يحرك ذنبه ويغمغم استئناساً بها . وانفرد عامر للبحث عن الناسك ثم عاد وهو يقول « سألت عنه في كل اطراف الدير فلم اقف له على اثر وقال لي الرئيس انه خرج مذ كان الخليفة هنا ولم يعد »

قالت « هل تظنه في بعض جوانب هذا البستان »

قال « ربما كان هناك هلم بنا اليه »

فمشيا حتى خرجا من باب الدير والزريبة الى يمينهم وفيها الماشية والدواب كما قدمنا فوقفا ينطلعان الى جوانب البستان . وكان الكلب قد خرج في اثرهما ثم رآياه يهرول

نحو اليسار وامعن في مسيره فقالت سلمى « يظهر ان شيبوبًا اشمّ رائحة صاحبه فاسرع بطلبه فلنذهب في أثره »

وتبعاهُ فاذا هو قد انتهى الى جميزة قديمة العهد في اسفل ساقها كهف يشبه غرفة صغيرة أوى اليها الشيخ الناسك . ورأياهُ عن بعد جالسًا الاربعاء ويداهُ متقاطعتان على ركبتيه وقد اطرق كأنهُ يفكر في معضلة يبتغي حلها . فلما وصل الكلب اليه وجعل يلحس يديه ويتحكك به تحببًا انتبه الشيخ من غفلته فرفع بصره وشعرُ حاجبيه يغطيهما وامسك لحيته وثناها الى فيه واطبق شفتيه عليها . فوقعت عينهُ على سلمى وعامر فجعل يتفرس فيهما وهما قادمان اليه يفكران في مايبدآن به الحديث . ولكنهما لم يكادا يدركانه حتى سمعاه يقول بصوت جهوري اخترق اعماق قلبيهما « ابن عبد الرحمن ! ! »

فلما سمعت سلمى اسم حبيبها خفق قلبها وارتعدت فرائصها . ولم يكن عامر اقل بغتة منها وأُغلق عليهما . فلم يعلما بماذا يجيبانه

ولم يصلا اليه حتى وقف بخفة ورشاقة كأنهُ شاب في عنفوان الشباب وصاح فيهما « ابن عبد الرحمن . اين ذهب ! »

فاقشعرت سلمى واستغربت معرفة عبدالرحمن وهمّت بالجواب فارتج عليها . فاجابهُ عامر قائلاً « واي عبد الرحمن ؟ »

قال « انسالني يا عامر عن عبد الرحمن وانت كفيلهُ ؟ قل ابن ذهب ؟ وقد كان معكم بالامس »

فتصور عامر نفسهُ بين يدي وليّ من الاولياء فقال « انهُ سار في مهمة اذا كانت فيك كرامة عرفتها من تلقاء نفسك »

قال « اظنهُ ذهب وراء يزيد بن معاوية الذي يسمونهُ الخليفة . . . »

فخاف عامر وسلمى ان يسمعهُ احدٌ يقول ذلك فالتفتا فاذا هما في معزل عن الناس فقال عامر « نعم يا سيدي »

فصفق الناسك يدًا بيد ونظر الى السماء وقال « حماك الله يا عبدالرحمن من ذلك الخائن المنافق . . كيف تركتماه يذهب تحت هذا الخطر العظيم »

الفصل السابع والعشرون

استطلاع الغيب

فلما سمعت سلمى كلامه ترامت على قدميه وصاحت « قل يا سيدي ! ! قل لي بالله ما هو ذلك الخطر »

قال « الخطر عليه من ذلك الابرص الذى خرج في اثره »

قال عامر « واي ابرص يا مولاي . . قل بالله . . قل افصح . . لقد اقلقت خاطرنا »

فاطرق الشيخ وسكت لا يبدي حركًا وهو يقبض على لحيته ثم يتركها و بداء ترتعشان من عظم التأثر . فلم تعد سلمى تستطيع صبرًا على سكوته فقالت « قل بالله يا سيدي . . قل ما الذي يصيب عبدالرحمن في سفرته هذه . . . ومن هو ذلك الابرص ؟ »

فرفع الناسك طرف ثوبه حتى غطى رأسه ثم قال « ألا تعرفان ذلك الابرص ؟ ألا تعرفان شمر بن ذي الجوشن »

فقالا بصوت واحد « بلى نعرفه وابن هو ؟ »

قال « انه خرج في هذا الصباح من هذا الدير ملثماً بعد خروج يزيد واظنه رأى عبد الرحمن خارجًا فاقتفى اثره ليوقع به »

فالتفتت سلمى الى عامر والشيخ لا يزال ساترًا رأسه بثوبه وقالت « تباً لذلك الخائن اظنه اقتفى اثرنا من الكوفة وقد علم بالغرض الذي جئنا من اجله الى الشام . . . تباً لك يا شمر ياخائن » ثم التفتت الى الشيخ وقالت « ماذا نعمل الآن . . يا سيدي . . قل لي كيف نعمل . وما الذي تخافه على عبد الرحمن . . يظهر لنا انك من الاولياء ذوي الكرامات » قالت ذلك وقلبها يخفق وقد اصطكت ركبتاها ولم تعد تستطيع الوقوف وهي مع ذلك تحسب نفسها في حلم وعامر ينظر الى ذلك الناسك نظر الاستغراب لا يدري كيف يفسر فراسته . ولكنه شغل بامر الخطر المحدق بعبد الرحمن عن البحث في تلك الفراسة وحمل اطلاع ذلك الناسك على سرهم محمل الكرامة . على انه احب ان يغالطه فقال له « نراك يا سيدي تخاطبنا بالرموز والالغاز فما هو خبر عبدالرحمن وما الذي هو ذاهب من اجله »

ولم يتم عامر كلامهُ حتى سمع قهقهة ذلك الشيخ من تحت الغطا ثم انقطعت القهقهة بغتة وقال الشيخ « اتجرّبني يا عامر وتجاهل ؟ . انك معذور بتجاهلك . ولكن الامر الذين جئتم من اجلهِ الى هذه الديار لا يخفى على هذه الاحجار ولا على هذه الاشجار . . . واذا لم تصدقاني اسألا الهاتف الذي كلمكم من الجوزة الم يقل لكم : وبشرِ الذين ظلموا بعذاب اليم . »

فلا تسل عن حال عامر وسلمى عند سماعهما ذلك الكلام . اما عامر فهمّ بيد الشيخ واراد ان يقبلها وهو لا يبالي برائحة قذارتها وقذارة ذلك الثوب . فلما احس الشيخ بيد عامر جذب نفسهُ منهُ وانزوى في الكهف والغطاء لا يزال على رأسهِ

فقال لهُ عامر « بالله ايها الشيخ الجليل الا كشفت عن وجهك وافصحت عن نفسك »

فزجره الشيخ وقال « تأدب يا عامر ولا تتطاول الى مالا يعنيك واعلم اني لن اخاطبك بعد الآن الا مستترًا ويكفيك ما علمتهُ من امر ابن ذي الجوشن الابرص [1] وما يبغيهِ من اللحاق بعبد الرحمن »

فخافت سلمى ان يغضب الناسك منها اذا اكثرا من السؤال فقالت « لا تغضب يا سيدي ولا يسوءك سؤالنا وانت تعلم حالنا بعد ما ظهر من اطلاعك على امرنا وانما انا سائلتك سؤالاً واحدًا لا نريد عليهِ شيئًا . هل تجيبنا عليهِ »

فلم يزد على قولهِ « ﻫﻢ ﻫﻢ » اي نعم

فقالت « هل نرى من باس على عبد الرحمن في سفرتهِ هذه وما حيلتنا في انقاذه . »

فوجم الشيخ وسكت برهة ثم قال « ارجوان لا يكون عليهِ باس باذن الله . لانهُ انما عرض بنفسهِ في سبيل مصلحة المسلمين . وهذا آخر ما اقولهُ لكما فلا تزيدا » قال ذلك وهرول مسرعًا والكلب يجري في اثرهِ نحو الغوطة وخلّف سلمى وعبد الرحمن على احرّ من الجمر . وقد جمد الدم في عروقهما وهما يكادان يمسكان النفس من شدة البغتة

(١) ابن الاثير ج ٤

الفصل الثامن والعشرون

الحيرة

فلما توارى الشيخ وكلبهُ عنهما ظلاً برهة صامتين ثم قالت سلمى « ما قولك يا عماه بهذا الشيخ وما سمعناهُ من كلامهِ »

قال « اني والله في عجب عجاب من امره وقد كنا نسمع بالاولياء سمعًا فشاهدناهم اليوم شهادة عين »

فقالت سلمى « اني احسبني في منام » قالت ذلك وهي تفرك عينيها وتلتفت الى ما حواليها فلم ترَ شكًّا بيقظتها

وادرك عامر استغرابها وحيرتها فقال « لا تستغربي يا سلمى ما شاهدتهِ من تطلع هذا الشيخ الى الغيب مع ما يظهر لك من بلاهتهِ فان الغيب قلما يكشف لغير امثالهِ . ومن شروط الولاية الزهد والتقشف . وقد قيل في اهل الولاية انهم جواسيس القلوب [1] فلا ارى غرابة في معرفتهِ حقيقة حالنا ولكن يظهر انهُ على رأينا فلا خوف منهُ على افشاء سرنا . . . . »

فقطعت سلمى كلامهُ قائلة « ولكن من عسى ان يكون هذا الرجل . . . »

فاجابها عامر « ان امره حيرني لان حالهُ ولباسهُ يدلاّن على تنسكهِ وانقطاعهِ عن الدنيا . ولكن كلامهُ عن يزيد يدلُّ على اهتمامهِ بامر المسلمين ويظهر انهُ عربي وكأن لهجتهُ عراقية . . »

فقالت سلمى « يا ليتنا سألناه عن بلده وطلبنا اليهِ ان ينتسب »

فقال « ومن يتجرأ على هذا السؤال وقد رأيت مبالغتهُ في التسرحتى غطى وجههُ ولما طال الحديث بيننا فرَّ من بين ايدينا فلعلهُ من بعض الذين بلوا بمثل بلوانا فلجأ الى هذا الدير للاختفاء »

فقالت « لا اظنهُ الاَّ مصابًا بعقلهِ لانهُ شاذ باطواره . ألم تسمع من رئيس الدير عن معيشتهِ وكيف يقضي نهاره على الاشجار يقتات باثمارها لا انيس لهُ غير هذا الكلب »

---

(١) التهانوي

قال « ومهما يكن من امره فانهُ ذو كرامة وعساه ان ينفعنا بكرامتهِ »

قالت « ما العمل الآن ؟ اني لم ازدد من حديثهِ الاَّ قلقًا . . . » وسكتت برهة ثم قالت « وما قولك بشيرِ اللعين . . »

قال « هذا الذي شغل بالي قبحهُ الله . . لقد طالما شككت في هذا الابرص وخفت غدره . . والظاهر انهُ علم بسفرنا الى الشام واطلع على غرضنا فاقتفى اثرنا ليشي بنا . . ولولا ما قالهُ هذا الناسك مما يدعو الى الاطمئنان على حياة عبدالرحمن لاسرعت في البحث عنهُ وارجاعهِ عن عزمهِ . . ولكن هبي اني لم اطمئن فليس لي سبيل اليهِ لاني لا اعرف الجهة التي سارَوا فيها . واخاف اذا انا سرت في ناحية ان نختلف في الطريق وتبقي انت وحدك ولعل هذا الخائن قد نصب لك احبولة اخرى . . . »

قالت « اذهبْ وانا اذهب معك ايضًا . . »

قال « وماذا نعمل بوعدنا لعبد الرحمن ان نتربص لهُ هنا . وربما جاء الليلة ونحن غائبون فيرمي سهمهُ وقد يكون في ما سيكتبهُ عليهِ ما يبعث على موافاتنا اياه الى مكان فيقع السهم بين يدي احد الرهبان ولا نطلع عليهِ . . دعينا نمكث هنا ونكل امرهُ الى الله وهو كفيلهُ »

قال ذلك ومشيا حتى اقتربا من الدير وهما مبهوتان كانهما في حلم فاراد عامر ان يشغل وقتهُ في شيء يبعد الشبهة عنهُ فقال لسلمى « تعالي معي الى الزريبة نتفقد جمالنا ونرى ما تمَّ باحمالنا »

قالت « دعنا من الجمال والاحمال فلا طاقة لي بشيء غير الافتكار في ما نحن فيهِ »

قال « وهذا الذي اشعر بهِ انا ايضًا ولكن لا بد لنا من الانتظار الى مساء الليلة او صباح الغد او مسائهِ فكيف نقضي الوقت ووقت الانتظار طويل »

فاطاعتهُ وتحوَّلا الى الزريبة فرأيا الخدم قد بذلوا العناية في خدمة الجمال واما احمال التمر فلم يجدوها . فبغت عامر لاول وهلة ثم تذكر انهم حملوها معهم الى داخل الدير

قضيا هناك برهة ينشأغلان بما يسمعانهِ من اصوات الدواب وسلمى لا تنتبه لشيء مما حولها لعظم ما ثار في خاطرها من القلق على حبيبها بعد ما سمعتهُ من الشيخ الناسك . ولم يكن عامر اقلَّ قلقًا منها ولكنهُ اراد تشجيعها وتحويل ذهنها برهة فلما لم يرَ ذلك الموقف يشغلها اطاعها في العود الى الدير وسارا توًّا الى الغرفة ومكثا برهة بين كلام وتفكر

الفصل التاسع والعشرون

الانتظار

فلما مالت الشمس الى المغيب علقت آمال سلمى بسهم عبد الرحمن وخيل لها من فرط قلقها انها لا تكاد تصل السطح حتى ترى السهم ساقطًا امامها فاستحثت عامرًا على الصعود معها فاطاعها وقلبهُ لا يدلهُ على خير . فوقفا على السطح ينظران الى الافق لا يشغلهما شاغل عن الهواجس . وسلمى كلما لاح لها طائر ظنتهُ سهماً مرسلاً من حبيبها حتى شاعت عيناها وعامر يلاحظ حركاتها و يراقب عواطفها ولا يبدي رأيًا حتى آذنت الشمس بالزوال ولم يأت السهم ولا سمعا شيئًا يتعلق بهِ

وكان رئيس الدير مشغولاً في ذلك اليوم بصلوات خاصة لم يفرغ منها الاَّ نحو الغروب . فخرج من عليتهِ ومشى على السطح فرأى عامرًا وسلمى جالسين ينظران الى الغوطة وقرأ القلق على وجهيهما فلم يشأ ان يزعجهما بالسؤال فظل بعيدًا وفي نفسهِ انهما اذا احبَّا مجالستهُ دعياه اليهما

فغابت الشمس وهما على السطح ولم يحدث شيءٌ فازداد بهما القلق وعامر يحاول طمأنة سلمى بحديث او رأي وهي لا تقتنع . وشاع بصرها بعد الغروب نحو الغوطة في الطريق الذي سار فيهِ عبد الرحمن لعلها ترى قادمًا تستأنس بهِ فلم ترَ شيئًا

واخيرًا نهض عامر وهو يقول « ان موعدنا يا سلمى الى غروب الغد ومن العبث بقاؤنا هذا الليلة . فضلاً عن ان بقاءنا في اثناء الليل يوجب شبهة » قال ذلك ومشى فمشت هي في اثرهِ وعيناها لا تستقران من التلفت

باتا تلك الليلة وكل منهما يفكر في عبد الرحمن فاذا تصورا غروب الغد وسهمهُ لم يأتِ تحيرا في امرهما وخصوصًا سلمى فانها عزمت في باطن سرها اذا غربت شمس الغد ولم يأتِ بها خبر من عبد الرحمن ان تتنكر بلباس الرجال وتذهب للتفتيش عنهُ . ولم يكن تصميم عبد الرحمن اقلَّ من ذلك ولكنهُ كان يخشى اذا ترك سلمى في الدير وحدها ان يكون عليها بأس . ثم صمم اذا لم يعد عبد الرحمن ان يذهب هو وسلمى معًا للبحث عنهُ

واما رئيس الدير فانهُ انتبه لبقاء عامر وسلمى على السطح بدون عبد الرحمن فظنهُ

في بعض جوانب الدير ولم يداخله ريب من أمره

ونهضت سلمى والفجر لم يبدُ بعد وايقظت عامرًا وحرضته على الصعود الى السطح عسى ان يكون سهم عبد الرحمن قد وقع في اثناء الليل فصعد ولم يرَ شيئًا فرجع. فاستحثته بعده نبهة على الصعود وهو لا يحتاج الى من يستحثه. وما صدق ان اشرقت الشمس حتى دعاها للصعود معه. وفيما هما صاعدان على السلّم شاهدا طائرًا يحلق في الجو ولا يحرك جناحيه فتطيّرا به[1] وكانت تلك عادة العرب اذا رأوا طيرًا يحلّق على تلك الصورة تشاءموا به. وادرك عامر تشاؤم سلمى فابتدرها قائلاً: أراكِ تطيرت بمنظر هذا الطير وقد نهى النبي (صلعم) عن ذلك فقال «من عرض له من هذه الطيرة شيء فليقل اللهمّ لا طير الاّ طيرك ولا خير الاّ خيرك ولا اله غيرك ولا حول ولا قوة الاّ بالله العلي العظيم»[2] وقال (صلعم) «اذا تطيرت فلا ترجع»[3] فانزعي من بالك هذا الوهم وكلي امرك الى الله. فسكتت وخاطرها لم يطمئن ولكنها سايرته وصعدت معه

ولما طال انتظارهما وتعاظم بهما القلق تذكرا الشيخ الناسك وكانا لم يرياه منذ فرّ من بين ايديهما في الامس ولا رأيا كلبه في الدير

ولم يكن اطول من ذلك النهار على سلمى فلما دنا الاصيل ولم يطمئن بالها اخذت تلوم نفسها وتقرّع عامرًا على التقاعد عن اللحاق بعبد الرحمن. وهي الى ذلك الحين لم تذق طعامًا. فخارت قواها ولكنها لم تشعر بالجوع لشدة القلق

الفصل الثلاثون

الوقوع في الفخ

وفيما هي غارقة في بحار الهواجس لمحت فارسًا يركض فرسه بين الاشجار بالقرب من باب البستان فخفق قلبها والتفتت الى عامر فاذا هو ينظر ايضًا الى ذلك الفارس وقد عاينه البغتة. ورأت رئيس الدير قد خرج من عليته مسرعًا وهو يصلح عباءته وينظر الى باب

(١) الاغاني ج ١٣ (٢) المستطرف ج ٢ (٣) العقد الفريد ج ١

البستان ثم امر الغير ان « ابعث راهباً ليفتح الباب لاني ارى عبيدالله بن زياد قادماً فلعلهُ جاء لينبئنا بقدوم الخليفة »

فلما سمعت سلمى اسم ابن زياد ارتعدت فرائصها وتفرست في الفارس فرأته واقفاً بالباب . وهرول بعض الرهبان ففتحوه لهُ . وهمَّت بمخاطبة عامر فاذا هو يقول لها « انزلي يا سلمى الى غرفتك واستتري هناك وانا اتى هنا وحدي لنرى ما يكون من امر هذا القادم » فارادت ان تستمهلهُ فالحَّ عليها بالنزول ووعدها انهُ باقٍ في انتظار رسالة عبد الرحمن فنزلت مسرعة واختبأت في غرفتها وظل عامر على السطح

وكان الرئيس قد نزل الى باب الدير واستقبل ابن زياد ووقف معهُ برهة وهما يتكلمان همساً . ثم صعدا الى السطح وقبل ان يصلا فاحت رائحة المسك . فعلم عامر انها رائحة عبيدالله بن زياد لانهُ كان مشهوراً برائحة طيبهِ [1] . ولبث عامر جالساً وقد ندم على بقائهِ هناك . ثم ما عتم ان رأى الرئيس مقبلاً نحوهُ وعبيدالله الى جانبهِ فوقف لهُ وحياه . فرد عبيدالله التحية هاشاً والرئيس يبتسم كأن في نفسهِ قولاً يهمُّ بهِ . فتجاهل عامر وتأدب في موقفهِ فدعاه ابن زياد للجلوس وامر الرئيس بطنفسة فُرشت لهم على حصير فجلسوا عليها وعامرٌ يعجب بما يبدو من ظواهر الترحاب . وحدثتهُ نفسهُ بظنون كثيرة حتى لم يبق لهُ صبر على استطلاع سبب ذلك وهو يخاف ان يكون في ما سيسمعهُ بأس على عبد الرحمن

فلما استتبَّ بهم الجلوس جاءتهم مواعين الفاكهة وكؤوس الاشربة فاكلوا وشربوا ثم بدأ الرئيس بالكلام قائلاً « ألعل مولانا الخليفة قادم الينا فنتأهب لاستقباله »

فضحك عبيدالله وهو يصلح حمائل سيفهِ وقال « لا اظن مولانا يمرُّ بكم اليوم »

قال الرئيس « وهل هو عائد الى دمشق »

قال « نعم انهُ عائد الليلة »

قال « وما الذي دعاه الى الرجوع من صيده عاجلاً وقد كنت أحسبهُ لا يعود قبل اسبوع على الاقل »

قال « انهُ يشاءم من سفرتهِ هذه فاحب الرجوع سريعاً »

فارتاب عامر بسبب الاسراع ولم يعد يصبر على الكلام وهمَّ بالاستفهام فاذا بابن زياد قد استأنف الحديث فقال « وقد نجا أمير المؤمنين اليوم من خطر عظيم »

(١) ابن الاثير ج ٤

فلما سمع عامر قولهُ هذا توسم الوصول الى ما يتوقعهُ ولكنهُ خاف أن يكون في حديث تلك الواقعة ما يسيئهُ فبدت البغتة على وجههِ وتطاول بعنقهِ لسماع بقية الكلام

فأتمَّ عبيدالله حديثهُ قائلاً « وكانت نجاتهُ من ذلك الخطر بسرٍّ عجيب يرجع الفضل فيهِ الى كلبهِ والى رجل من خاصتنا »

فقال الرئيس « وكيف ذلك »

قال « خرجنا من عندكم بالامس وبتنا في قرية على بضعة اميال من هذا الدير فجاء في مساء الامس رجل اعرفهُ من الكوفة وتنهي الى غريب متنكر يزعم انهُ عازم على الفتك بامير المؤمنين في اثناء صيده . فشكرت مسعاهُ ووعدتهُ خيراً على جميلهِ واصبحنا وانا لم اطلع الخليفة على ذلك لئلا ازعجهُ . فخرجنا الى الصيد وكلما اراد الخليفة الانفراد في الغوطة لحقتهُ بهِ مخافة ان يكون ذلك المتنكر متربصاً في بعض الاماكن . واوصيتُ جماعة من رجالنا الاشداء ان يقتفوا أثرنا ويتأهبوا للوثوب عند اول اشارة

« وكان معنا كلب من كلاب الصيد يمتاز عن سائر الكلاب بسرعة جريهِ ونباهتهِ وقد ألبسهُ الخليفة حتى ألبسهُ الدمقس والحرير وملأ قوائمهُ بالاساور الذهب[1] . وفيما نحن على خيلنا بالقرب من غابة متكاثفة الاغصان نبح الكلب نباحاً شديداً واسرع امامنا حتى اوغل بين الاشجار وهو يبالغ في العواء فتعجبنا لامرهِ وما زلنا ندعوهُ الينا وهو لا يطيع حتى اشكل عليَّ أمرهُ . فتفرست في مكانهِ فآنست هناك شبحاً فأومأت الى رجالنا فوثبوا في أثر الكلب فما شعرت الاَّ وقد خرج لنا شاب ملثم في يدهِ خنجر مسلول طعن بهِ اول قادم عليهِ ثم طعن الثاني والثالث واخترق الجمع وهو يلتمس الخليفة فامرتُ الرجال ان يقبضوا عليهِ ولا يقتلوهُ فتكاثروا عليهِ فقتل منهم خمسة ولم يبلغوا منهُ وطراً الاَّ بعد ان عثر بجذر شجرة ناتئة فتجمهروا عليهِ واوثقوهُ وثاقاً شديداً وساقوهُ الى الخليفة . وكنت قد سبقتهُ اليهِ واخبرتهُ بخبره . فامر بارسالهِ الى دمشق وعدل عن اتمام الصيد واوعز بالرجوع فاسرعتُ في مقدمتهِ لغرض لي عند عمي هذا » واشار الى عامر

(١) المسعودي ج ٣

الفصل الحادي والثلاثون

كلب يزيد

فلما سمع عامر حديثه لم يبق عنده شك في ان الذي قبض عليه هو عبد الرحمن بعينه . ولكنه عجب للغرض الذي قال انه له معه . وخاف ان يكون فيه بأس عليه اذ لا يعد على الذي وشى بعبد الرحمن ان يشي بهم جميعاً فاسودّت الدنيا في عينيه ولكنه صبر صبر الرجال وتجلد والتفت الى عبيدالله وهو يظهر الاستغراب مما اتفق للخليفة وقال « مهما يأمر سيدي فاني رهن اشارته »

قال « لا اطلب منك شيئاً يسوؤك باذن الله ولكني احببت مصاهرتك فهل ترضاني لك صهراً ؟ »

فوقع ذلك الكلام في اذن عامر وقوع الصاعقة وارتج عليه فلم يعلم بماذا يجيبه . وهو لا يستطيع مجافاته لانه في قبضة يده فاراد ان يحتال في جوابه . وقبل ان يبدأ بالكلام رأى ابن زياد قد وقف ببغلته وهو ينظر الى اليمنان وتطاول بعنقه وعلته البغتة . فالتفت عامر فاذا بالخيول تتزاحم عند باب اليمنان وعليها الفرسان وفيهم يزيد بن معاوية . ثم رأوا يزيداً ترجل وحده واقبل مسرعاً على قدميه نحو الدير كانه يطارد شيئاً

فبغت الرئيس واسرع الى باحة الدير وهو يتعثر باذياله حتى كاد يقع على السلم فرأى كلباً من كلاب الخليفة دخل الباحة وعليه الاطالس والاساور كما وصفه ابن زياد . فلما رآه الكلب هر ولاّ نحوه انحراف بسيره الى جهة غرفة سلمى . ووصل يزيد في اثناء ذلك وهرع في اثر الكلب لانه كان قد افتقده وهو مارٌّ بقرب الدير فلم يجده فعلم انه دخل الدير . فجاء الغضب عليه بغتة لانه كان يحبه وخصوصاً بعد ان بدا ما بدا من نباهته في ذلك اليوم

وكانت سلمى متكئة في غرفتها على عباءة و بابُ الغرفة مفتوحٌ نصف فتحة ووجهها مكشوفٌ وقد توسدت على جنبها واستلقت رأسها بكفها . وفي يدها الاخرى منديل تمسح به دموعها وهي غارقة في ظلمات الخيال تفكر بحبيبها وما هو فيه من الخطر الشديد وقد طال غيابه ولا تزال متطيرة مما شاهدته في ذلك الصباح . فغلب عليها البكاء واطلقت

لعواطفها العنان حتى احمرّت عيناها وتكسرت اهدابها وتوردت وجناها . وكان شعرها محلولاً فاسترسل بعضهُ على جبينها وتدلى البعض الآخر حتى غطى معصمها . وانحسر كمها عن زندها فانكشف معظمهُ وعليهِ الوشم كذيب النمل . وكانت لما طابت لها الخلوة تصورت حبيبها ساعة خروجهِ من الغرفة في صباح الامس فهاجت عواطفها وارقت عيناها فزادهما الدمع لمعانًا وازدادت هيبة وجمالاً

وفيما هي على تلك الحال سمعت خشخشة الاساور في قوائم الكنب ثم رأتهُ داخلاً غرفتها فتذكرت يزيدًا فاجفلت ونشاءمت وهمّت بالقعود واذا بيزيد يركض في اثرهِ وينادي . فسمعت صوت يزيد قبل ان تراه فارتعدت فرائصها فمدت يدها الى النقاب لتستر رأسها بهِ فلم تدركهُ فارسلت شعرها على وجهها . وقبل ان تستتر اطلّ يزيد ورآها فانذهل لرؤيتها ووقف مبهوتًا لا يدري ما يقول وقد نسي الكنب واساورهُ

اما هي فغطت وجهها بكمها رغلب عليها الحياء والوجل وظلت جالسة لا تدري كيف تحتجب وداخلتها البغتة فزادتها رونقًا ومهابة فولّت وجهها عرض الحائط وظهرها نحو يزيد

فلم يتمالك يزيد عن الاعجاب بجمالها وهيبتها ولم يستطع غير الانعطاف اليها . فناداها بنغمة المحب المفتون وقال لها « لا تحجبي شمس وجهك عن خلق الله يا اجمل خلق الله »

الفصل الثاني والثلاثون

خاطب آخر

فظلت هي صامتة وجمد الدم في عروقها من شدة الخجل . فتحوّل يزيد من الغرفة وقد وقعت سلمى من نفسهِ موقعًا عظيمًا . وكان عبيد الله بن زياد قد نزل الى الباحة والرئيس معهُ فرأى يزيدًا خارجًا من غرفة سلمى وامارات الاعجاب بادية على عينيهِ فشعر بغيرة شديدة ولكن الحسد غلب عليهِ لعلمهِ ان الخليفة اذا رآها واعجبتهُ لا يبقى لعبيد الله سبيل اليها . فتجاهل عما ثار في خاطرهِ وخاطب الخليفة على سبيل المزاح قائلاً « ارى امير المؤمنين مشغوفًا بكلبهِ بعد الطريدة التي اصطادها لهُ في هذا الصباح »

فقال يزيد وهو يحاول الابتسام « ولكنهُ اصطاد لنا طريدة اخرى اجمل من تلك

فتضاعف فضله علينا »

فادرك ابن زياد تلميحهُ الى اعجابهِ بسلمى فازدادت غيرتهُ ولكنهُ اضطر الى الكتمان وندم على امتداح نباهة ذلك الكلب ولعن الساعة التي جاء بها الى ذلك الدير . ولكنهُ عمد الى المغالطة ونادى بعض الخدم فسلم اليهِ الكلب واستشار الخليفة في ما يراه من البقاء او الرحيل . فاشار بالرحيل والرئيس يرحب بهِ ويهنئهُ بالاستراحة بقية ذلك اليوم هناك . فاجابهُ انهُ في حال تدعو الى سرعة الانطلاق ولكنهُ طلب الخلوة بهِ فتبعهُ الرئيس على انفراد وظل ابن زياد واقفًا وعيناه تشعان بزيدًا حتى توارى مع الرئيس وراء الصفصافة

فلما خلا بزيد بالرئيس سألهُ عن تلك الفتاة فاخبرهُ انها ابنة تاجر قدم من العراق منذ بضعة ايام

فقال يزيد « هل هي عزبة »

قال « اظنها كذلك يا مولاي »

قال « حسنًا » ولم يزد

وامر بزيد فركبت حاشيتهُ وركب هو وابن زياد معهُ وودعهما الرئيس وخرجوا وعامر لا يزال على السطح يختلس النظر الى حركات بزيد وقد رآهُ وراء الصفصافة مع الرئيس

فلما مضى بزيد ورجالهُ صعد الرئيس الى السطح ووجههُ يبرق سرورًا وفي وجههِ ابتسامة استدل عامر منها على شيء في نفس الرئيس فتقدم اليهِ وملامح الاستفهام بادية على وجههِ . وقبل ان يهمَّ بالكلام ابتدره الرئيس قائلاً « اني ابشرك بالسعادة يا بني »

قال عامر « بماذا وكيف ؟ »

قال « لاني رأيت امير المؤمنين معجبًا بابنتك »

فشقَّ ذلك على عامر وقال وهو يتظاهر بالسذاجة « وما الذي يترتب على ذلك من موجبات البشارة »

قال « وقد لحظت من كلامهِ انهُ يريد ان يسعدك بالمصاهرة »

فوقع ذلك الكلام على عامر وقوع البلاء العظيم ولم ينبه بكلمة وتراكمت عليهِ الهواجس فلا يدري بماذا يفكر : أفي عبد الرحمن وقد وقع في الاسر ام في سلمى وهي اذا علمت بما اصاب حبيبها يئست من الحياة — ولا يزيدها خبر المصاهرة الاَّ قنوطًا . فلم يعد يعرف كيف يخطو درجات السلم لشدة كدره

اما سلمى فحالما خرج يزيد من غرفتها اسرعت الى الباب فاغلقته ووقفت مبهوتة وهي تردد ما سمعته منهُ . وادركت ما جال في خاطره عنها فوقعت في حيرة لا تدري ماذا تعمل ثم عاد خيال عبد الرحمن الى ذهنها فشغلت بهِ عن كل هاجس وودت لقاء عامر لتستطلع ما علمهُ عن عبد الرحمن وحدثتها نفسها ان تخرج في طلبهِ على السطح ولكنها خافت ان يكون يزيد باقيًا هناك فاحجمت

الفصل الثالث والثلاثون

صح الصحيح

وفيما هي تتردد في ذلك واذا بعامر قد فتح الباب ودخل فرآها في تلك الحال من القلق وأثر البكاء على عينيها والبغتة لا تزال غالبة على محياها فلم يدر كيف يخاطبها ولا عن اي شيء يسألها . وهي اولى بسؤالهِ عما جاء بهِ من الخبر المحزن عن عبد الرحمن . فوقف لحظة لا يتكلم . وادركت هي ما يعلوهُ من الكدر فقالت « ما وراءك يا عمّاه »

قال « ما ورائي الاَّ الخير ان شاء الله »

قالت « هل جاءت رسالة عبد الرحمن .... هل وصل اليك سهمهُ ؟ »

قال « نعم ولكنهُ وقع في قلبي »

فلحظت انهُ سمع شيئًا يسوءها فقالت « ما الخبر ... اين عبد الرحمن ... ماذا جرى لهُ »

قال وهو يتلجلج بكلامهِ « لم يجر لهُ شيء ولكن .... »

قالت « ولكن ماذا .. هل قتلوه ؟ » قالت ذلك وقد اختنق صوتها وسبقتها العبرات

قال « لا .. لم تصل يدهم الى ذلك ولكنهم اسروهُ »

فلطمت خدها حتى كادت تقطع اقراطها وقالت « ومن اسره وكيف ؟ »

فجعل يخفف عنها وهو يقص عليها حديث ابن زياد ولم يذكر لها شيئًا مما كان قد بدأ بهِ من امر المصاهرة

فلما فرغ عامر من كلامهِ عادت سلمى الى البكاء وهي تقول فجعهم الله انهم قبضوا

عليو .. أرأيت نظيري في هذا الصباح وانت لا تزال تغالطني ؟ ... هذا الذي خفتهُ عليو ... فما العمل الآن »

فلبث عامر ساكتًا وقد استغرق في الافكار وبان استغراقهُ من تقطب حاجبيو وتثبت نظرهِ . فابتدرتهُ سلمى قائلة « قل يا عماه . . قل ما الرأي . . . »

قال وهو يفرك لحيتهُ بسبابتو كأنهُ يهيء عبارة يخفف بها عنها « لا تعجلي يا سلمى ... تمهلي واستعيني الله ولننظر في الامر على مهل »

قالت « كيف اتمهل وقد اسروا عبد الرحمن ولا ادري ما الذي يحدث لهُ هناك » قالت ذلك واجهشت بالبكاء

فتحير عامر في امرهِ وهو خائف اكثر من خوفها لما سمعهُ من حديث ابن زياد وطلبو سلمى . وحدثتهُ نفسهُ ان يطلعها على ذلك ولكنهُ خاف ان يزداد قلقها فقال « لا يفيد التسرع ونحن الآن حوالي الغروب والليل اعمى لا نستطيع فيهِ عملاً ولا بد من الانتظار الى الغد . وغدًا لناظره قريب »

قالت « اني خائفة من هذا الليل . . . . اني خائفة ان يصاب عبد الرحمن ببلاء مستعجل فلا يهلونا لتدبير الحيلة والعياذ بالله »

قال « لا اظنهم يسرعون في اذاه ولا بد من ان يمهلوه حينًا يستفهمون بو عن حالو ويستطلعون سبب تعمدهِ قتل الخليفة وارى ان انزل غدًا باحمال التمر الى دمشق احتال بها على استطلاع الخبر واعود اليك ونرى ما يكون »

قالت « لابد من الانتظار اذًا ... ؟ فلنصبرنَّ ان الله مع الصابرين »

الفصل الرابع والثلاثون

خاطب آخر

وقضيا تلك الليلة على مثل الجمر وسلمى لم تذق رقادًا وعامر يدبر الحيلة في كيفية استطلاع خبر عبد الرحمن

فلما اصبحا هيأ عامر جمالهُ وتزيًا بزي التجار وركب يلتمس دمشق وسلمى تدعو

له بالتوفيق وقلبها يخفق خوفًا على عامر ايضًا لئلا يكون شمر قد دبر له مكيدة . ولما توارى عن نظرها عادت الى غرفتها واغلقت الباب وراءها . ولما خلت بنفسها تذكرت حبيبها وماهو فيه من الخطر الشديد فهاجت اشجانها فاوغلت في البكاء

وفيما هي في ذلك سمعت وقع اقدام خارج غرفتها وصوتًا يشبه صوت الرئيس ولم تكد تصيخ بسمعها حتى سمعت قرع الباب فاجابه قلبها بدقات متوالية ووقفت بلا انتباه ويدها اليسرى على خمارها نشأ هب لارساله على راسها اذا رأت في الباب رجلاً غريبًا

ولا تسل عن اضطرابها ووجلها لما فتحت الباب ورأت الرئيس وشمر بن ذي الجوشن معه وقد تزيا بافخر ملابسه وتطيب باحسن طيبه واصلح نفسه كأنه يستعد للقاء عروسه فلما رأت برصة ارتعدت فرائصها وحدثتها نفسها ان تبتدره باللعن والتوبيخ ولكنها خافت الفضيحة وهي منفردة هناك فتجلدت وهي لا تنالك عن الارتعاش

اما الرئيس فلما رأى سلمى وحدها قال لها « اين والدك »

قالت « اظنه ذهب الى دمشق باحمال التمر في هذا الصباح وما الذي تريده منه ؟ »

قال « ان مولانا الخليفة بعث اليه بهذا الامير لمخابرته في شأن »

فلما سمعت اسم الخليفة ورسالته خافت مما وراء تلك الرسالة ولكنها امسكت عواطفها واجابته بهدوء وسكينة « ان والدي ليس هنا الآن » قالت ذلك وهي ترجو ان ينصرف شمر بهذا الجواب

فابتسم شمر وهو يحاول ان يتظاهر بالرزانة والاستخفاف معًا وقال « لا بأس من غيابه فاني مكلف بتأدية هذه الرسالة اما له واما لكِ »

قال ذلك ودخل الغرفة فتحول الرئيس راجعًا

واما سلمى فظلت واقفة وقد اصطكت ركبتاها واقشعر بدنها وخافت ان يبدو ذلك الاضطراب على وجهها فبالغت في ارخاء النقاب عليه ولم تكشف منه الاَّ عينيها . ولكن شمر قرأ على تينك العينين امارات الخوف والوجل . فلما خلا بها تظاهر باللطف وقال لها « لا تخافي يا سيدتي ولا تظني بي سوءًا ولكنني ارجو ان تعرفي هذا الوجه » وقبض على لحيته

فقالت « وما الذي يترتب على معرفتي ذلك »

قال « اذا عرفته عرفت اني جاركم القديم وابي من اصدقاء والدك او كفيلك

عامر . . . » قال ذلك وهو يحاول الابتسام

فعلمت انهُ يتهددها بمعرفتهِ سر وجودها هناك وتحققت الغدر في وجههِ وندمت على ارسال عامر وانفرادها . ولكنها لما تذكرت ما ارتكبهُ ذلك الابرص من الوشاية بعبد الرحمن هان عليها كل صعب وعوّلت على الاستئثال في سبيل شفاء غليلها منهُ فقالت « واذا كنت جارنا فما الذي يهمك من امرنا »

قال « ما بالك تخاطبينني بالجفاء يا سيدة الملاح وانا انما جئت لاستعطافك فلا تجزعي »

فادركت ما وراء ذاك اللطف وسكتت وقد صعد الدم الى راسها فتحوّل وجلها الى غضب وقالت « عهدنك جئت لمخاطبة والدي وهو غائب فاذا جاء خاطبهُ »

قال « وماذا يفيدني خطابهُ اذا لم تكوني انت راضية »

قالت « اراك تلمح بما لا يليق بك بين يدي فتاة لا تعرفك »

قال وهو يظهر الاستخفاف « كيف تقولين انك لا تعرفينني وانا اعتقد غير ذلك ام انت لا تزالين مغرورة بذلك الولد الجاهل »

الفصل الخامس والثلاثون

الاعراض والجفاء

فلم تعد سلمى تستطيع صبرًا على تلك الوقاحة واعملت فكرتها في ما تستطيعهُ حينئذ فرأت نفسها ضعيفة منفردة غريبة والخاينة واعوانهُ وكل اهل الشام ضدها وحياتها وموتها بين شفتي ذلك الرجل . فاحسّت ان الجبال تراكمت على صدرها فتساقطت دموعها بالرغم عنها فحوّلت وجهها لئلا يلحظ شمر ذلك فيها فيزداد طمعهُ بها

اما هو فلما رآها تبكي استسهل استرضاءها فعمد الى الملاينة فتقدم نحوها وقال بصوت ضعيف « لا تبكي يا سلمى ولا تخافي فاني مع علمي بكل اسرارك واسرار عامر وعبد الرحمن لا أنوي بك شرًّا بل انا نصيرك وعونك حتى تخرجي من هذه الديار آمنة . على شرط ان تجيبي سؤل قلبي وترحمي محباً قطع البراري والقفار سعيًا اليك فارحمي قلب هذا العاشق الولهان واتركي من بالك مجاراة الغلمان الذين يسوقون الموت الى انفسهم

بجهلهم وغباوتهم كما فعل ابن عمك عبد الرحمن الذي اغواك بشقشقة لسانه حتى وقع اسيرًا وسيق الى السجن مغلولاً ولو أردتُ ان أسوقك واسوق عامرًا الى ذلك الاسر لفعلت . ولكن قلبي لم يطاوعني لاني احبك واذا اطعتني ورضيت بما اطلبهُ منك عشتِ معي سعيدة آمنة لان ما تسعون في نيلهِ انما هو اضغاث احلام ونحن الآن اهل الصولة والبطش وخليفتنا صاحب السلطان والجند والاعوان .. فما قولك ؟ »

وكان شمر يتكلم وينظر الى وجهها من وراء النقاب وهي معرضة عنهُ ملتفتة الى الحائط وفرائصها ترتعد وقد جمد الدمع في عينيها واحتارت في امرها فظلت صامتة

فاستبشر شمر بسكوتها وظن السكوت جوابًا فاعاد الكرة وقال « اني والله ليعجبني تصنعك وسداد رأيك فافصحي لي عن رضاك وهذا يكفيني الآن »

فلم تعد سلمى تصبر عن الجواب فحوّلت وجهها اليهِ وقالت « انك طامع بامر بعيد عن باعك فانصرف من هنا بسلام »

فضحك وقال « الى اين انصرف يا سلمى ... أأنصرف الى أمير المؤمنين فاطلعهُ على حالك فيصيبك ما اصاب ابن عمك .. ؟ واظنك لم تفهمي مغزى كلامي بعد ... فاقول لك بصريح العبارة ان عبد الرحمن اصبح في قبضتنا ولم يبق لهُ مطمع بالحياة فاستبقي نفسك وعامرًا . والاَّ فان الموت اقرب اليكما من حبل الوريد ... » قال ذلك والخبث يتجلّى في وجههِ

فابتدرتهُ سلمى قائلة « خسئت يا نذل الرجال ان باعك ويباع يزيد اقصر من ان تنالا شعرة من عبد الرحمن »

فضحك شمر ضحكة طويلة وقال « صدقت اننا قاصرون عنكما كأنك لم تفهمي قولي بعد ... الم تفهمي ان عبد الرحمن اسير عندنا وقد قبضنا عليهِ وهو يحاول قتل امير المؤمنين فمن اين تأتيهِ الحياة بعد ... اقلعي عن عنادك واطيعي ناصحًا يعرض عليك السعادة فاذا رفضتها اذاقك الموت الزؤام »

قالت « لا تحسبني جاهلة ما تقولهُ فقد علمت ان عبد الرحمن اسيرٌ وانك انت وشيبت بهِ وانك قادر ان تشي بي ايضًا وتميتنا معًا وقد فهمت كل ذلك . فيا حبذا الموت مع عبد الرحمن ولا الحياة معك ياخائن ... قلت لك امضِ واخسف وافعل ما تشاء . والموت اهون ما تخوفني بهِ وهو احب اليَّ من قربك . فاذا بعدتَ عن وجهي لا أُبالي حييت او متَّ »

فوقع ذلك التوبيخ موقع السهام في قلبه ولكنه كان شديد الولع بسلمى مذ كانت في العراق وهو انما لحق بهم الى الشام واوقع بعبد الرحمن طمعاً بالحصول عليها لانه لم يكن يجسر على طلبها وعبد الرحمن باق . فلما اوقعه في الاسر ظنها تيأس من حياته وتخاف على حياتها فترضى به . وكان يريد مخاطبة عامر بشأنها وتهديده فلما لم يره هناك خاطبها وعجب لجسارتها وعزة نفسها وهان عليه ما سمعه من التوبيخ وعوّل على استرضائها باي وسيلة كانت

فقال « يا للعجب من جهالتك وقد كنت احسبك عاقلة فاذا أنت حمقاء مغرورة ولكنني اعرض عليك الحياة مرة أخرى فاذا رفضتها كان ذلك آخر العهد بك . . . . »

قالت « امض وافعل ما تشاء . . اخرج من هنا وقل ما تقول . . . . »

فخرج شمر والغضب ظاهر على وجهه وحركاته وهو يلعن سلمى ويتوعدها . ولكن قلبه لم يطاوعه عليها . فصبر نفسه ريثما يرى عامراً ويسترضيه بالوعيد والتهديد فيمنعها

اما سلمى فاقفلت الباب وراءه واطلقت لنفسها عنان البكاء وجلست تبكي حبيبها وتندب سوء حظها وتتفكر في حالها وقد ايئست بالهلاك . حتى اذا كلّت من البكاء والنحيب استرجعت رشدها واعملت فكرتها فلم تر خيراً من تربصها حتى يرجع عامر فتستشيره في الخروج من هذا الدير والاختفاء في مكان آخر ريثما ينفتح باب الفرج

الفصل السادس والثلاثون

العزم على الرحيل

ومضى معظم ذلك النهار وهي بين بكاء وتأمل لا تتفكر بطعام ولا شراب . حتى اذا مالت الشمس نحو الاصيل سمعت خطوات مسرعة امام باب الغرفة فخفق قلبها ثم رأت الباب قد فتح ودخل عامر وعلى وجهه ظواهر الدهشة فازداد اضطرابها وقالت « خبر بما سمعت »

قال « ما سمعت الاّ خيراً وانت مالك في هذه الحال هل جاءك احد بخبر جديد »

قالت « كيف تسألني عن حالي وانت تعلم ان عبد الرحمن مسجون فهل اضحك والعب . هل علمت شيئاً من خبره وما سبب اضطرابك قل لي حالاً . . قل . . »

قال « اما عبد الرحمن فقد علمت انهُ حيٌّ في سجنهِ ولا خوف عليهِ الآن . واما سبب اضطراري فاني رأيت جواداً واقفاً بباب الدير موسوماً بلفظ « عدة » [1] فعلمت انهُ من خيل الحكومة وخفت ان يكون قد جاءنا احد من رجال يزيد يريد بنا سوءاً لاني صرت احسب اشجار هذه الغوطة عيوناً علينا »

فقالت « لقد نطقت بالصواب وانا ايضاً ارى رايك فهل توافقني على الخروج من هذا الدير والاختفاء في مكان آخر »

قال « نعم ولكنني اخاف اذا خرجنا الساعة ان يكون صاحب ذلك الفرس يترصدنا فلنصبر هنيهة »

فتذكرت سلمى حديث ثمر فقالت « وربما كان هذا الفرس لذاك الرجل الابرص »

قال « وما شأنهُ هل جاء الى هذا الدير اليوم . . . »

قالت « نعم جاء وتطاول الى ما يقصر بنو امية جميعهم عن نيلهِ »

فتعجب عامر وقال « وما ذا تعنين . . . هل رأيتهِ وهل خاطبك »

قالت « انهُ جاء بعد خروجك في هذا الصباح وجعل يستعطفني ويسترضيني . ولما لم يسمع غير الاعراض أخرج مغضباً وتهددني بالوشاية الى خليفتهِ وما زلت مذ خرج وانا افكر في حالنا وانفرادنا في هذه الديار بعد افتضاح امرنا فلم ارَ خيراً من الخروج سريعاً »

فصفق عامر يداً بيد وقال « تباً لك يا ثمر يا غادر . . . اظنهُ لا يصبر عن الوشاية بنا الى الغد . . . أَلم يكن من الحكمة ياسلمى ان نماطلهِ وندافعهِ ولو بالباطل ربما نخرج من هذا المكان ؟ . . . وانت تعلمين ان قيادنا في يديهِ وهو وحدهُ العالم بحقيقة حالنا . . . صبراً جميلاً . . . »

فقطعت سلمى كلامهُ قائلة « لا تلمني يا عماه فاني لم استطع صبراً عن توبيخهِ وردهِ ولم اعد اريد الحياة بعد ما اصابنا . . . » قالت ذلك وخنقتها العبرات فسكتت واغرورقت عيناها بالدموع

فندم عامر على ما بدا من لومهِ اياها وقال « اني لا الومك يا سلمى وربما لو كنت انا في مكانك لم اقابلهُ بأخف من ذلك . على اني لا اخفي عنك امراً يشبهُ هذا

(١) العقد الفريد

وقع لي بالامس مع ابن زياد ولم اطلعك عليهِ بعد »

قالت « وما ذاك »

فقص عليها خطبة ابن زياد لها الى ان قال « وانا دافعتهُ يومئذٍ خوفاً من غضبهِ . . . والآن لم يبق لنا الاَّ الاستعداد . فقد بعت الجمال والاحمال فخفَّت امتعتنا ولم يبق لنا ما نحملهُ غير هذه الثياب »

قال ذلك واخذ في جمع الثياب وحزمها . ولم يكد يفعل ذلك حتى سمع رئيس الدير يناديهِ باسمهِ . فاجفل وتحول الى الباب ففتحهُ وتطلع فرأى الرئيس واقفاً تحت الصفصافة واماراتِ البشر على محياه . فلما وقعت عينهُ على عامر اومأ اليهِ باصبعهِ ان يأتي اليهِ . ولم يكلمهُ

الفصل السابع والثلاثون

القول الفصل

فاستبشر عامر بوجه الرئيس وذهب عنهُ اضطرابهُ واستأذن سلمى بالخروج الى الرئيس واخبرها بانهُ يدعوهُ اليهِ وخرج على عجل . وقبل ان يصل اليهِ تحول الرئيس نحو السلم المؤدية الى السطح وهو يومئُ اليهِ ان يتبعهُ فسار في اثرهِ حتى صعد الى السطح وتحولا الى غرفة الرئيس . فاذا هناك عبيد الله بن زياد قاعداً على وسادة مثناة فوق البساط . فلم يتمالك عامر عن الانقباض واوجس خيفة من قدومهِ وتيقن انهُ انما جاء خاطباً . ولكنهُ تجلد وتظاهر بالبشاشة والارتياح . فوقف لهُ ابن زياد ورحب بهِ واجلسهُ الى جانبهِ وجلس الرئيس على جانب البساط بقرب الباب

فلما استقرَّ بهم الجلوس قال عامر « كيف اصبح مولانا امير المؤمنين اليوم »

قال « اصبح في خير وقد كفاني ان احمل اليكم بشرى اظنها تسركم وان كانت بالحقيقة لا تسرني »

فسكت عامر ثم ادرك ان سكوتهُ يعدُّ احتقاراً لانعام الخليفة فقال « اننا جند امير المؤمنين نأتمر بامرهِ »

قال « انت تعلم ما في نفسي من امر ابنتك وما خاطبتك بهِ بالامس . الا تذكر ذلك ؟ »

قال « بلى يا مولاي »

قال « وقد كان في نيتي ان اعود اليك مرة أُخرى فسبقني امير المؤمنين . لانهُ شاهد ابنتك بطريق الاتفاق ووقعت من نفسهِ موقعًا حسنًا فأحب ان يسعدك بالمصاهرة على ان تكون ابنتك من بعض نسائهِ »

فوقع ذلك الكلام في اذن عامر وقوع السهم في قلبهِ وتلعثم لسانهُ وظهرت الحيرة على محياهُ فظل ساكتًا

فلم يخطر ببال ابن زياد ان عامرًا يتردد في الجواب ولكنهُ حسبهُ بغت لحصولهِ على نعمة لم يكن يتوقعها . فاعاد عبارتهُ ونمقها فقال « ولو لم يسبقني أمير المؤمنين الى ذلك لكنت احسبني سعيدًا بمصاهرتك . ولكن امر الخليفة فرض متبع فاهنئك بهذه النعمة التي يغبطك عليها كثيرون لما ستنالهُ بهذه المصاهرة من اسباب السعادة »

فلم يزدد عامر بذلك الايضاح الاَّ ارتباكًا . وحدثتهُ نفسهُ ان يعتذر بخطبة سلمى لشاب آخر ولكنهُ خاف ان يسأله عن ذلك الخطيب وهو لا يقدر على التصريح باسمهِ ولا ان ينتحل احدًا سواه لانهُ لا يعرف من يسلم اليهِ سرَّه في تلك الديار . فلم يستطع غير التظاهر بالقبول واسداء الشكر على هذه النعمة ريثما يدبر حيلة للفرار فقال وهو يحاول الابتسام « اني اعدُّ نفسي اسعد الناس بهذه الامنية . لان التقرب من امير المؤمنين شرف وسعادة . وما ابنتي الاَّ جارية من جواريهِ . ولكنني أرغب الى مولاي ان يمهلنا يومًا او يومين ريثما نتأهب لحمل الفتاة الى دار الخلافة . لانها ستتلقى هذا الخبر بالاندهاش لبعد هذه النعمة عن خاطرها لا سيما وقد اصبحت اليوم مخرفة المزاج »

فقال ابن زياد « لا اظن الخليفة الاَّ راضيًا بما ترتاح اليهِ عروسهُ . واذا استعجل في الامر فانما يكون استعجالهُ عن رغبة في سرعة استقدامها اليهِ فيرسل اليها من يقوم بخدمتها حتى تصل داره في امن وراحة »

فسكت عامر . فحمل ابن زياد سكوتهُ على الرضا . ثم نهض فنهض الرئيس وعامر فودعهما وخرج

الفصل الثامن والثلاثون

انقلاب غريب

اما عامر فاسرع الى سلمى ليرى رأيها في هذا الامر الجديد . وكان صبرها قد نفد في انتظاره . فلما اطل عليها وشاهدت البغتة على وجهه اوجست خيفة وابتدرته بالسؤال . فقال لها « هلمي بنا الى الفرار فاني لا ارى فرجاً الا به »

قالت « ولماذا ؟ وما الذي حدث ؟ »

قال « اننا وقعنا في مشكل اعظم مما كنا نخافه »

قالت « وما ذلك »

فقصّ عليها حديث ابن زياد كما وقع . وكان يتكلم وهو يتوقع ان يرى اجفالها فاذا هي قد ابرقت اسرتها واشرق وجهها وزال غضبها ولم تجب

فقال « ما رأيك يا سلمى ألا ترين ان نسرع في الفرار »

قالت « ولماذا الفرار ؟ »

فاستغرب سؤالها وقال « وما هذا السؤال . . . الا نفرّ من هذه الهوة »

قالت « انحسب الاقتران بالخليفة هوّة » وضحكت

فازداد استغراباً ولكنه حسبها تمزح فقال لها « صدقت ان الاقتران بالخلفاء سعادة ! هيا بنا نحمل امتعتنا وننصرف قبل ان تداهمنا تلك السعادة »

فقالت « كيف نفر من سعادة يتمناها كل انسان . العلك تحسبني أمزح ؟ »

قال « لا اشك بانك تمزحين »

قالت « كلاّ اني انما اقول الجد . ومتى رأيتني مزفوفة الى الخليفة تحقق هزلي من جدّي »

فلم يصدق قولها وما زال يحسبها تعبث به فقال « دعينا من المجون الآن فان الوقت قصير . . هلم بنا نرحل . وأرى ان يخرج كل منّا على حدة خلسة . واذا رأينا حمل الامتعة يدعو الى شبهة خرجنا بدونها »

قالت « اذا شئت الخروج فاخرج واما انا فاني انتظر وفد الخليفة لاسير اليه »

فقال « قلت لك دعينا من المجون يا سلمى فليس هذا وقته »

فالت والجدّ بادٍ على وجهها « قلت لك اني غير ماجنة ولا اقول غير الجدّ وأنا باقية هنا حتى يحملوني الى دار الخليفة واذا ساءك ذلك فاني حيثما شئت »

فقال وقد ملّ من اصرارها على ذلك « اذا كنت تقولين الجد فما انا معك . . . والاّ فما الذي تعنينه ؟ »

قالت « كن حيث شئت فاني اعني ما اقول . . »

قال « اتعنين ان تقبلي بزيدًا زوجًا لك ؟ »

قالت « لا تقل بزيدًا بل قل أمير المؤمنين »

فانذهل عامر وظن نفسهُ في حلم وكان وهو يخاطبها قد همّ بجمع الامتعة فلما سمع كلامها ترك ما كان في يده من الثياب ووقف واسند ظهره الى الحائط . ولبث مبهوتًا لا يبدي حراكًا وهو يعجب مما سمعهُ من سلمى وقال في نفسهِ « لقد صدق من قال ان النساء ضعينات العقول . ان هذه الفتاة نسيت ابن عمها بعد ان كانت تتظاهر بالاستهلاك في حبهِ ورضيت رجلاً كان السبب في القبض عليهِ وربما بقتلهِ . . . الله الله يا عبد الرحمن » ثم نظر الى سلمى وتأمل في حالها فاذا هي جالسة لا تعبأ بغضبهِ فقال لها « يا سلمى »

قالت « نعم »

قال « أأنت بنت حجر بن عدي »

قالت « لا أدري »

قال « ألم تكن بالامس تبكي والدك تحت تلك الجميزة » ألم تتعاهد على الاخذ بثأره « هل نسيتِ موقف عبد الرحمن والخنجر بيده ؟ أنسيت قول الهاتف ؟ أنسيتِ عبد الرحمن ابن عمك وخطيبك ؟ . . نسيتهِ لانهُ وقع في ضيق ويئست من حياتهِ ؟ وطمعت بالتقرب من الخليفة ابن قاتل ابيك . . . اعوذ بالله ما الذي أراه ؟ أفي حلم انا ام في يقظة ؟ . . . »

فقالت بصوت هادئ لا يكدره اضطراب وهي مطرقة « لا بل أنت في يقظة »

الفصل التاسع والثلاثون

الحيرة

فلما سمع هذا الاصرار تصاعد الدم الى رأسه وتصوّر فشله مع ما عاينه من الانقلاب . فتناثر الدمع من عينيه وهو يحاذر ان تلحظ سلمى ذلك فيه فتنسبه الى الضعف . فتحوّل وخرج من الغرفة وهو لا يدري ماذا يفعل ولا الى اين يذهب . ولم يصل الى الصنصافة حتى لقيه الرئيس . فلم ينتبه عامر حتى خاطبه الرئيس وسأله عما كان من خاطر سلمى . فلم يدر بماذا يجيبه لئلاّ يدرك كدره فيستطلع شيئًا من سره فيخبر في امره وخاف افتضاح سرهِ فتجلد وحاول الابتسام غصبًا وقال « لا ريب في انها ترتاح الى هذه السعادة » قال ذلك وتظاهر بامر طرأ على ذهنه يدعو الى سرعة الرجوع . فاستأذنه وعاد حتى أتى باب الغرفه وهو لا يلتمسه فاراد التحوّل عنه فوقعت عيناه على سلمى فاذا هي منشغلة في شيء تحاول دسه في جيبها ولما رأت عامرًا بادرت الى الباب فاغلقته في وجهه ثم اوصدته

فلما رأى تسترها منه الى هذا الحد داخله ريب من امرها ولبث واقفًا بالباب وهو لا يفهم سرّ هذه الظواهر الغريبة . فلم تطاوعه نفسه على طرق الباب لكنه احب العزلة برهة لعله اذا خلا بنفسه ينكشف له سبب من الاسباب . فانقلب راجعًا حتى خرج من باب الدير ومشى في البستان حتى تجاوزه وهو غارق في بحار الهواجس لا يدري الى اين تسير به قدماه

وما شعر الاّ وهو على مقربة من الجميزة ولما وقع بصرهُ على قبر حجر اختلج قلبه في صدره لتذكره ليلتهم على ذلك القبر . فتاقت نفسه الى البكاء فوق ترابه لعل هاتفًا ينبئه بحقيقة ما يبدو له من الغرائب . وفيما هو يفكر في ذلك خطر بالهِ الشيخ الناسك فقال في نفسه « يا ليتني القاه واستطلعه سر هذا الامر ولا شك في انه يفرج همي » ولم يكد يفكر في ذلك حتى رأى شبحًا خارجًا من وراء الجميزة وهو يثب على جذعها كأنه يحاول الصعود اليها . فاراد عامر ان يناديه فسبقهُ بصره الى اعلى الجميزة فرأى شيخًا متكئًا على بعض اغصانها فتفرس فيه فاذا هو الشيخ الناسك بعينه . فاجفل عامر وعجب لمقام ذلك الرجل هناك وتذكر ما ظهر منه من الغرائب السابقة ولكنه ارتاح لذلك الصدفة لالتقائه

به في ذلك المكان . وقبل ان يهمّ بمخاطبته رآه يتحرّك فتربص ليرى ما يبدو منه فاذا هو ينحدر نازلاً باسهل ما يكون . فظلّ عامر واقفاً حتى وصل الناسك الى الارض والكلب يحوم حوله ويثب على يديه ورجليه كأنه يرحب به

وكان الناسك قبل ان يصل الى الارض قد ارسل شعر ناصيته على جبينه وعينيه فغطى ما بقي من بحتته خالياً من الشعر الاّ رأس انفه وصاح فيه قائلاً « لقد قضي الامر يا عامر ولكن لا تجزع فانهم لن يقتلوه على عجل » فارتعدت فرائص عامر واقشعر بدنه وهمّ بيد الشيخ ليقبلها فامسك الشيخ يده بيده وكلاهما ترتعشان وقال « تجلد يا عامر وكن رجلاً . . . »

فامسك عامر ارتعاده وارتاحت نفسه الى مكاشفته بحال سلمى فقال « اني لا اجزع على عبد الرحمن ولكني خائف على سلمى »

قال « وما الذي يخيفك عليها »

قال « لقد طلبها يزيد لتكون زوجاً له فقبلت بالرغم عني . . . »

فارخى الشيخ يده فافلتت يد عامر منها ولبث كلاهما صامتين برهة وعامر ينظر ما يبدو من كرامات الشيخ وقلبه يخفق فاذا بالشيخ قد جلس واسند ظهره الى الجميزة وهو يحك رأسه باطراف اظافره كأنه ينكر في امر . ثم قال « وأي بأس عليها من ذلك القبول »

قال عامر « ألا ترى بأساً عليها ياسيدي ؟ وهب انها لا بأس عليها فكيف تقبل هي بهذا الامر »

فضحك الشيخ حتى بدت نواجذه وقال « لا بد لها من خير ترجوه بذلك فلا تزجرها »

فتعجب عامر وقال « هب انها ترجو خيراً ولكن كيف يطاوعها قلبها على ذلك ؟ كيف تخون خطيبها وابن عمها وترضى بذلك الاموي بدلاً منه ؟ . . »

فقال الشيخ « تأدب يا عامر ان ابنة حجر بن عدي لا تخون . وهي لم تأت الشام وتكبد مشاق الاسفار وتحمل خطر هذا المقام لتخون قلبها وتغدر بابن عمها »

قال عامر « ولكنها قد فعلت يا مولاي . وها انها مستعدة للذهاب الى يزيد »

قال « دعها تذهب واظهر لها رضاءك بذهابها وانظر ما يبدو منها »

الفصل الاربعون

عودٌ الى سلمى

فانذهل عامر لتلك المعميات ولم يرد الالحاح في الاستفهام لئلاً يغضب الناسك . ولكنهُ استحسن رأيهُ في مسايرتها ليستطلع ما يكنهُ ضميرها وتظاهر برغبتهِ في الانصراف اليها فابتدره الشيخ قائلاً « اذهب اليها على عجل »

فهض عامر وتحوَّل وهو يتعثر باذيالهِ لفرط انذهالهِ من غرائب ما مرَّ بهِ في ذلك اليوم حتى اتى الغرفة . فرأى الباب لا يزال موصداً فطرقهُ وصبر فلم يجبهُ احدٌ فالحَّ في قرعهِ فنتحتهُ سلمى وتحولت الى حصير جلست عليهِ وهي مطرقة . فدخل عامر واقفل الباب وراءهُ ونظر في وجه سلمى فرأى الكآبة بادية عليهِ وكأنها كانت تبكي فقال لها « العلك لا تزالين على عزمك يا بنية »

فاشارت برأسها أن « نعم »

فقال « لقد فكرت في امرك بعد خروجي من عندك فرأيت رأيك مصيباً لاننا لا نستطيع الفرار الآن وعلينا الارصاد والعيون من كل ناحية . وزد على ذلك ان نقرَّ بنا من الخليفة سعادة كبرى ربما عادت علينا بالخير »

فرفعت بصرها اليهِ وتفرَّست في وجههِ هنيهة ثم قالت « يظهر انك تريد الذهاب معي »

قال « وكيف ? لا »

قالت « لا .. لا تذهب معي ... » .

قال « كيف لا اذهب معك والى اين اذهب ? »

قالت « لا ادري الى اين تذهب ولكنني لا اريد ان يذهب معي احد »

قال « كيف يا مولاتي ... اذا كنتِ تعدّين اقترانك بالخليفة سعادة فلماذا تريدين حرماني منها . وارجو اذا صرت انت زوج امير المؤمنين ان تساعديني على اطلاق سراح عبد الرحمن لانك ستتسلطين على قلب الخليفة . ولا اظنهُ اذا طلبتِ اطلاق سراح ابن عمك الاَّ فاعلاً ما تريدين . وربما توصلنا بواسطتك الى مناصب رفيعة »

قال ذلك وهو يراقب ما يبدو منها وعيناه شاخصتان اليها

أما سلمى فلما سمعت كلامة شخصت ببصرها اليهِ وهي تشك في صدق مراده . ثم قالت « اصحيح ما تقولهُ يا عماه . هل رأيت ان تطاوعني في الذهاب الى الخليفة . اقسم بعبد الرحمن انك تسمح لي بذلك »

قال « نعم يا سلمى انهُ صحيح لا ريب فيهِ واقسم لك بهِ »

قالت « فاطعني اذًا ودعني اذهب وحدي »

قال « ولماذا ذلك ... اني لأعجب من أمرك . أكلما جاريناك في غريبة أتيتنا بغريبة اخرى . ان السر في تمنعك عن ذهابي معك اغرب من السر في قبولك بالذهاب . ما هذا يا سلمى ؟ » قال ذلك والاستغراب بادٍ في عينيهِ . ولكنهُ لم يكد يتم قولهُ حتى رأى سحنة سلمى تبدلت من الكآبة الى الغضب فتقطب حاجباها وتوقدت عيناها وقد زادها الاحمرار حنقًا وتعاظمت هيبتها حتى لم يعد عامر يستطيع النظر اليها وخاف مما وراء ذلك . أما هي فوقفت بغتة وقوف الاسد وتحوّلت حركاتها الى الخفة والشدة كأنها من اقوى الرجال وقالت « أتظنني ذاهبة للاقتران بيزيد ؟ »

قال « ولماذا اذًا »

فمدت يدها الى جيبها واستلت خنجرًا كانت قد خبأتهُ هناك وقالت « اني ذاهبة لاقتلهُ بحد هذا الخنجر »

فاجفل عامر وغلب عليهِ الاستغراب لما ظهر من شجاعة سلمى وقال « كيف تتعللين ذلك يا سلمى ... كيف تطلبين مني ان ارضى معك بذلك ونحن لا نزال نشكو من تهور عبد الرحمن لانهُ ساقهُ الى خطر القتل فتسوقين نفسك الى تهوُّر ابلغ منهُ ؟ »

الفصل الحادي والاربعون

القول الفصل

فقالت وقد هاجت عواطفها « أتعلم ان عبد الرحمن هناك تحت خطر القتل وتمنعني من الذهاب اليهِ ؟ ... وتلومني لرغبتي في اللحاق بهِ . فاذا لم ابادر اليهِ فماذا افعل ؟ أيدعوننا يزيد ان نسير اليهِ ونملك رقبتهُ بالقرب من سجنهِ ولا نرضى ؟ نعم اني عددت عمل عبد الرحمن تهوُّرًا لانهُ لم يكن يرجو الاقتراب من يزيد وحولهُ الخدم والاعوان . ولكن

يزيداً يدعوني اليوم لاكون معهُ في فراشهِ وهي فرصة ينبغي ان لا اضيعها . ام تريد ياعامر ان اخاف على حياتي وعبد الرحمن تحت خطر القتل .. في قبضة ذلك الرجل .. آه ... دعني اذهب اليهِ فاما ان اخلص حبيبي ومنتهى املي واقتل يزيداً وانقذ الاسلام من شرهِ وانتقم لوالدي . واما ان اموت فداء عن حبيبي ويجو هو . او ان نموت جميعاً ... فلا تقف في سبيلي فاني ذاهبة الى يزيد رضيتَ ام لم ترضَ ... ولولا خوفي من هذا الاعتراف لكاشفتك بغرضي من بادىء الرأي ... فلا تقف في سبيلي » قالت ذلك وقد تغيرت هيأتها من شدة الهياج

فلم يزدد عامر الاَّ استغرابًا ودهشة وظل برهة صامتًا متحيرًا ثم قال « فاذا كنت ترين الموت هينًا عليك في سبيل عبد الرحمن فما الفائدة من بقائي وانا انما عشت لاجل راحتكما . فارفقي بي ودعيني اسير في خدمتك فاما ان نموت جميعًا واما ان نحيا جميعًا ... أم انت تحسبينني جبانًا ؟ »

فلما سمعت قولهُ امسكت نفسها وتجلدت وحاولت السكينة وقالت « حاشاي يا عماه ان اظن بك الجبن ولكن لا فائدة من ذهابك ... » وكانها كانت تهمُّ بان تقول شيئًا وامسكت نفسها

فابتدرها قائلاً « كيف لا يكون في ذهابي فائدة .. فهل الفائدة اذا ببقائي هنا ؟ »

قالت « نعم ياسيدي ارعني سمعك ... وتبصر في قولي .. اذا ذهبت انت معي كنا جميعًا تحت خطر الاسر والقتل . فاذا لم افز انا بقتل يزيد وحُكم عليَّ بما ارت يُحكم عليك انت ايضًا بمثلهِ . فمن يسعى بعد ذلك في انقاذ عبدالرحمن . واما اذا كنت انت خارجاً وقدر عليَّ بالموت ظللت انت مطلوق السراح فتسعى في انقاذ حبيبي عبدالرحمن ... واذا تمكنتَ من ذلك ولقيتهُ حبهِ عني وقل لهُ — ان سلمى فضلت الموت في سبيل حبك على البقاء بعدك واذا بقيت انت حياً فان عظامها تنهال في اعماق القبر — » قالت ذلك وخنقتها العبرات وغلب عليها الهيام فجلست وقد خارت قواها ووقع الخنجر من يدها . فانتبهت لنفسها فاسترجعت رشدها والتقطت الخنجر من الارض وقربتهُ من فمها فقبلتهُ وهي تقول بصوت مخنوق « ان فيك آمالي وعليك متكلي فاما ان تُنعمد في احشاء يزيد او في احشائي ... وياحبذا هذا اذا كان فيهِ نجاة مالك فؤادي ... » ثم اغمدت الخنجر وارجعتهُ الى جيبها وجلست وقد تكسرت اهدابها من فرط البكاء وهما تنقدان شجاعة وثباتًا

الفصل الثاني والاربعون

الوصية

فلما عاين عامر منها ذلك تضاعف اعجابه بشهامتها ولكنه ازداد حيرة ولم يعد يعلم بماذا يدافعها · فاطرق واعمل فكرته فلم ير مندوحة عن اجابتها · ولما تصور مقدار ما يتهددها من الخطر هناك تحقق انها ملقية بنفسها الى التهلكة وهو مع ذلك لا يرجو انقاذ عبد الرحمن فقال لها « وما قولك اذا حكم القضاء بقتلك وقتل عبد الرحمن هل من فائدة ببقائي »

قالت « اوصيك اذا حكم القضاء بذلك ان تقضي بقية حياتك فوق قبر والدي تبكيه عني وعن عبد الرحمن واذا ملكت رشدك فاذهب الى الامام الحسين سيد شباب المسلمين وجاهد معه في سبيل نصرة الحق لعل الله ان يأتيه بالفرج بعدنا »

فلم يرَ عامر بدًّا من السكوت بالرغم عنه وقال « لقد غلبتني يا سلمى بشهامتك وسددت عليَّ السبل بحجتك فها اني فاعل ما تأمرين والله حسبي ونعم الوكيل »

فلما سمعت قوله قالت « ولكن احذر ياعماه ان تبقى في هذا الدير لانهم اذا عرفوا من انا لا آمن ان يبعث يزيد اليك بجند يقبضون عليك على حين غفلة »

فقال « لقد اصبت ولا فائدة من بقائي هنا وانت في قصر الخليفة ولكنني سأتنكر وادخل دمشق لأتنسم الاخبار · واوصيك ان تتدبري امرك بالتأني والحيلة عسى ان يوفقك الله الى ما فيه الخير »

قالت « ليطمئن بالك عليَّ ولا تعبأ بما تراه فيَّ الآن من ظواهر الحدة وتذكر كيف رأيتني لما اتيتني بخبر يزيد الم ترَ فيَّ دهاء ؟ »

قال « اني والله معجب بثبات جاشك يا سلمى ولكنني اخاف عليك ... » قال ذلك وشرق بدموعه

قالت « كن ثابتًا مثلي على الاقل وانا فتاة وانت كهل عركه الدهر ولا يخفى عليك اننا نهضنا لعمل كبير اذا فزنا فيه كان خيرًا وسعادة لسائر المسلمين · افلا يليق بنا ان نعرض انفسنا لخطر مثل هذا للحصول عليه »

فجثا عامر على ركبتيه ورفع يده ونظر الى فوق وقال « اني استودعك اللهم وديعة اودعنيها عبدك حجر بن عدي شهيد الحق ونصير صاحب الحق فلا تخيبني بها انك فاحص

« وعالم بما وراء حجب الغيب »

ثم نهض ونهضت سلمى وقد سكن روعها هنيهة على اثر تلك العزية لكن عامرًا عاد الى القلق حالاً واما سلمى فانها ارتاحت لما تمّ لها امر الذهاب وحدها وهي تتعزى بما عوّلت عليهِ من الاستهلاك في سبيل الحب الصادق ونصرة الحق القويم

وكانت الشمس قد توارت وراء الافق وعمّ الليل بارسال النقاب . وأخذ التعب من سلمى وعبد الرحمن مأخذًا عظيماً لما مرّ بهما من الاهوال في اثناء ذلك النهار فباتا تلك الليلة ولم ينما والقلق سائد عليهما

واستيقظ عامر قبل الفجر وسلمى لاتزال في الفراش فظنها نائمة فانسلّ حتى خرج من الغرفة وهو يريد الخلوة ليستخير ربهُ في ما يرجوه من ذهاب سلمى الى دار الخليفة او يخافهُ من عواقب تهوّرها

فصعد الى السطح صعودًا بطيئًا لئلاّ يشعر بهِ الرئيس حتى اطلّ على الغوطة وقد طارت عنها الاطيار وهي بين تغريد وزقزقة وسداعبة لايشغلها شاغل عن التمتع بما خلقت لهُ . فاتجه فكرهُ الى ما هو فيهِ فقال في نفسهِ « هنيئًا لهذه الخلائق الخفيفة انها لا أخالها الاّ اسعد حالاً من بني الانسان واذا فاخرناها بما نعتقدهُ في انفسنا من السلطان عليها وما نرجوهُ من ثواب او نتوقعهُ من نعيم فالعبرة في الواقع فهي اسعد حالاً منا ولا يظهر من سائر احوالها انها تهتم بحبيب ولا تخاف من رقيب وما ادرانا انها لا ترجو ثوابًا مثلنا » واعترض اوهامهُ معاء الماعز في الزريبة وخوار الثيران فقال ولا اخال هذه انعس حالاً من اسيادها بني الانسان ونحن انما نخدمها بما في وسعنا التماسًا لسعادتنا والسعادة تبعد عنا لما يقف في سبيلها من عقبات الطمع والشره مما لا نعرف لهُ حدًّا نقف عندهُ

الفصل الثالث والاربعون

فشل شمر

ولم تطل احلامهُ في عالم الخيال لما قام في نفسهِ من الاهتمام الشديد بسلمى وذهابها الى يزيد . فلما عاد الى هذه الهواجس اقشعر بدنهُ لما يخافهُ عليها هناك . ولكنهُ لايدري ما يفعل وقد تندت حيلتهُ في استبقائها فلم يرَ غير التسليم الى العناية وعزّى نفسهُ بما سمعهُ

تحت الجميزة من قول الهاتف « و بشر الذين ظلموا بعذاب أليم » فارتاح بالهُ فتحول ذهنهُ الى عبد الرحمن وخاف ان يستعجل يزيد في قتلهِ فيذهب سعيهم هباءً منثورًا

فاستغرق في هذه التخيلات حينًا وما انتبه حتى وقعت اشعة الشمس على عينيهِ وهو ينظر الى مشرقها على غير انتباه فخاف ان تستيقظ سلمى ولا تراه في الغرفة فتضطرب . فمشى نحو السلم فاذا بباب علية الرئيس قد فتح وخرج الرئيس وقد تزمل بعباءتهِ فاستقبلهُ عامر بالتحية فرد السلام عليهِ وقال « اراك مبكرًا على السطح »

قال « خرجت استنشق نسمات السحر »

قال « ظننتك رأيت رسول الخليفة . ألم تره ؟ »

فاختلج قلب عامر عند سماع اسم الخليفة وقال « لا لم اره ابن هو »

قال « جاء مساء الامس وانتم نيام فبات عندنا على ان يقابلك في هذا الصباح »

قال « وابن هو يا سيدي »

فنادى الرئيس بعض الرهبان وامرهُ ان يدعو الرسول

ولم تمض برهة حتى رأى الرجل صاعدًا وحالما وقع نظرهُ عليهِ عرف من برصهِ انهُ شمر بن ذي الجوشن فاستعاذ بالله من شرهِ وعلم انهُ قادم لمخاطبتهِ بشأن سلمى لنفسهِ

اما شمر فاستقبل عامرًا باسمًا وقال لهُ « هل تأذن لي بخلوة قصيرة »

قال « تفضل » ومشى بهِ الى جانب من جوانب السطح منفرد وقبل ان يصلا الى المكان قال شمر « اظنك ادركت سبب مجيئي يا عامر »

فرأى عامر ان يبغتهُ بخبر الخليفة وخطبتهِ سلمى لكي لا يترك لهُ مجالاً فقال « العلك قادم من قبل الخليفة لحمل خطبتهِ اليهِ »

فلما سمع شمر ذلك بغت واستوقف عامرًا بيدهِ وقال لهُ « واي خطيبة »

قال « سلمى »

قال « هل خطبها الخليفة »

قال « هكذا يقولون ونحن ننتظر وفدًا من عندهِ اليوم »

فبهت الرجل وظل صامتًا برهة ثم قال « قد خرجت سلمى من يدي اذًا . . . »

فخاف عامر اذا جافاه ان يشي بسلمى او ينوي بها شرًا وظنَّ مجاملتهُ تدفع ذلك الشر عنهُ فقال « لا ادري اذا كانت خرجت او لم تخرج ولكنني اعلم ان مولانا امير المؤمنين بعث يخطبها لنفسهِ ومع ذلك فالمستقبل في علم الله »

قال « واي مستقبل ترجو؟ اتحاولني ياعامر ؟ ولكن ذلك كله من عناد تلك الفتاة الجاهلة . . . ألم تخبرك بما لاقتني به من الجفاء بالامس ؟ اظنها كانت طامعة بالخليفة ؟ » قال ذلك وضحك ضحكة اغتصابية ثم قال « فلتهنأ بالخليفة هي وخطيبها الاول اذا كان لا يزال في قيد الحياة »

فارتعدت فرائص عامر وقال هل تعرف شيئًا عن عبد الرحمن وابن هو »

قال لا اعلم ما جرى له حتى الآن ولكنني اخبرك ان عناد سلمى سيجر الوبال عليها وعليه . اتظن الخليفة اذا عرف علاقتها به يستبقيها او يستبقيه ؟ فلتهنأ ابنة حجر بما تتوقعه من رفض شمر » قال ذلك وتحوّل مسرعًا وهو يتعثر باذياله لشدة سرعته حتى نزل السلم وخرج فركب جواده وسار وعامر لا يزال واقفًا وقد جمد الدم في عروقه وهو لا يدري ما يفعل

الفصل الرابع والاربعون

الوداع الاخير

ثم تحوّل يريد النزول الى سلمى فاذا بفارس اقبل على الدير ودخل يطلب الرئيس فجاءه فخاطبه فتحوّل الرئيس الى عامر وقال له « ابشرك بوفد قادم لحمل العروس الى عريسها فاخبرها لتتأهب »

فهرول عامر حتى دخل الغرفة وهو لا يدري ما يقول لها وكانت هي قد نهضت ولبست ثيابها وتأهبت للسفر

فقال لها « الا تزالين يا سلمى على عزمك » قالت « قد عزمت واتكلت على الله »

قال لها « الا تراجعين نفسك ؟ الا تذكرين ان في دار الخليفة اناسًا يعرفون من انت وما علاقتك بعبد الرحمن ؟ اتظنين اذا عرف الخليفة حقيقة حالك يبقي عليك »

قالت ان الذي يشاهد الموت امام عينيه ويسعى اليه باختياره لا يخاف مثل هذه العواقب . اتظنني اجهل ان شمر اللعين يترقب فرصة للايقاع بي وانه حالما يعرف بوجودي في دار الخليفة يطلعه على سري ولكن . . . »

فقطع عامر كلامها قائلاً « وما قولك اذا كان قد عرف ذلك قبل خروجك من هذا الدير »

قالت « لا ابالي عرف ام لم يعرف واذا تركت له فرصة فليفعل ما يشاء . دعني الآن من بواعث التردد فقد عوّلت والسلام . فهل سمعت شيئاً عن وفد الخليفة ؟ »

قال « علمت الساعة انهم قادمون لحملك فاذا رأوني هنا ولم اذهب معهم يرتابون في امرنا وارى ان اخرج بحيلة . واذا جاؤا قولي لهم اني ذهبت في حاجة وسأوافيكم الى دار الخليفة » قال ذلك و بهت ثم التفت الى سلمى وقال « ها انك ذاهبة نحت خطر هو اشد مما خفناه على عبد الرحمن يوم خروجه لقتل يزيد فكيف ارضى بهذا الذهاب ؟ . . لا لا لا ادعك تذهبين وحدك »

قالت « لقد قضي الامر ياعماه تعال ودّعني على عجلٍ واحفظ وصيتي لك فاذا لقيت عبد الرحمن وكنت انا قد قضيت فداء عنه فبلغه الوصية » قالت ذلك وشرقت بدموعها ولكنها ظلت على تجلدها وحاولت الكظم وهي تتشاغل باصلاح خمارها

اما هو فلم يعد يتمالك عن البكاء لاعتقاده انه لن يرى سلمى بعد ذلك الفراق ولكنه لم يشأ ان يكدرها فقال لها « سيري بحراسة الله وارفقي بنفسك فاذا رأيت سبيلاً للنجاة غير القتل فافعلي »

قالت « سأرى ما يكون » واحنت على يده لتقبلها فضمها الى صدره والدموع تتناثر من عينيه بالرغم عنه وقال « سلمى على عبد الرحمن ولا اكلفك انفاذ الخبر عنك وعنه فاني ساستطلع كل شيء بنفسي وأقف على مخبآت الاحوال في حينها ولكنني اوصيك ان ترفقي بنفسك ما استطعت »

قالت « لا تخف يا عماه وانت تعلم اني بنت حجر بن عدي وهذا يكفي » قالت ذلك وقد استرجعت قواها واستوقفت عواطفها

وفيما هما في ذلك سمعا ضجيجاً في باحة الدير فقال عامر « ان الوفد قد وصل وساخرج خلسة ولا ينتبه لي احد فاعتذري عني كما اوصيتك . استودعك الله » قال ذلك وتزمل بعباءته وخرج بخفة وانسلّ من مكان سرّي واختلط بالجمع ولم ينتبه له احد حتى خرج من الدير وقلبه يقطر دماً

اما الوفد فكان قد وصل الدير وفي مقدمته عبيد الله بن زياد وقد اعدوا هودجاً مجللاً بالاطالس . وتقدم ابن زياد توًّا الى الرئيس وطلب مقابلة عامر فنزل الرئيس

ينفسو الى غرفة سلمى فاستقبلته بجاش ثابت واعتذرت بغياب عامر وانهُ سيوافيهم الى دمشق . فعاد الرئيس بالخبر فلم يعبأ ابن زياد بذلك ولكنهُ طلب ان يقابل سلمى . فاخذه الرئيس اليها فقابلتهُ والنقاب على رأسها واخبرتهُ بغياب والدها

فقال « هل انك مستعدة للذهاب الى الخليفة »

قالت « نعم »

الفصل الخامس والاربعون

الموكب

فخرجوا بها حتى اركبوها في الهودج ومشت الفرسان حولها بالرماح والحراب في موكب حافل حتى وصلوا باب المدينة . وكانت سلمى تنظر الى تلك المدينة من خلال الستور فلما اطلت على بابها انبهرت بما رأتهُ فيها من ازدحام الاقدام وما هنالك من الابنية الرومانية الهائلة وخصوصاً باب المدينة الكبير واقواسهُ الضخمة . فدخل الموكب في القوس الوسطى وسار في شارع طويل تحف بهِ الاعمدة الرخامية من الجانبين . واستلفت انتباهها بنوع خاص قرقعة حوافر الخيل على البلاط في ذلك الشارع الطويل . على ان تلك الضوضاء لم تشغلها عن هواجسها الا برهة يسيرة . وبعد قليل وقف الموكب امام باب كبير جانباهُ من الرخام المنقوش وعلى عتبتهِ العليا رسم النسر الروماني والباب من خشب الابنوس مصفح بالنحاس بعض التصفيح . وعليهِ نقوش جميلة وكانت تسمع عن امثال هذا الرسم من عمها وتعرف ان النسر شارة الروم . فاستغربت اقامة الخليفة في بيت من بيوت الروم

ولم يكد يقف بها الهودج هناك حتى ترجل ابن زياد ودنا من الهودج وقال لها من وراء الستار « اننا بباب الخليفة فانزلي يا سيدتي » فنزلت حتى دخلت الباب فرأت على جوانبهِ الحرس من جند الخليفة وفي ايديهم الحراب . فمشت وابن زياد دليلها في باحة كبيرة مرصفة بالفسيفساء تتخللها مغارس الرياحين واحواض الرخام تتدفق عن جوانبها المياه . فسارت في احدى طرق الحديقة وابن زياد يتقدمها وبينهُ بحر وراءه وهو يخطر معجباً

بما ملكوه من ابنية الروم وآثار مجدهم ولسان حالهم يقول « أين ما تعرفينه من سذاجة ابنية الكوفة وهذه الابنية المزخرفة »

وبعد قليل انتهت الى باب آخر اصغر من ذاك يصعدون اليه بدرجات قليلة من الرخام المصقول تكتنفه عمد من الرخام فوقها قبة مغشاة بالذهب وعليها الرسوم بالالوان البديعة . ورأت بينها رسومًا تشبه ما في كنائس النصارى فلم تستغرب ذلك لما تحققته من ان هذا القصر لا يزال في ما كان فيه على عهد ولاة الروم . فدخل عبيدالله امامها تحت القبة فتبعته فاشرفت على باحة واسعة مكشوفة مسورة بالعمدان المزخرفة بالنقوش وبعضها منزل فيه الذهب وعلى دوائرها مقاصير . وارض الباحة مرصفة كلها بالفسيفساء الدقيقة على اشكال تشبه رسوم الشجر والحيوانات وغيرها . وفي وسط الباحة حوض (فسقية) من الرخام المجزع يتصاعد الماء من انبوب في وسطه طرفه يشبه راس الاسد . وفي صدر الباحة باب مرتفع عليه ستار وامامه الحجاب . فعلمت انه مدخل مجلس الخليفة . وتحققت ذلك مما رأته الى يمين الباب من جماهير الناس وفيهم الشعراء والرواة واصحاب الحاجات ممن يفدون بباب الخليفة لقضاء حوائجهم . وكانت الباحة مكشوفة من الوسط فقط يكتنفها رواق قائم على اعمدة مزخرفة . وسقف الرواق بعضه منقوش بالحفر على اشكال الازهار والاثمار والآدميين والبعض الآن مزين برسوم ملونة ومذهبة . فبهرتها تلك المناظر لانها لم تكن رأت مثلها من قبل

ولما اطل ابن زياد على تلك الباحة عرف بعض الذين كانوا هناك من الشعراء وذوي الحاجات بالقدوم اليه لمخاطبته في شؤونهم . فلما رأوا سلمى معه تقاعسوا وانزووا وراء الاعمدة

وعطف ابن زياد نحو اليسار بين الاعمدة فتبعته سلمى حتى وصلا بابًا بديع النقش عليه سترٌ من الحرير المزركش بالذهب برسوم جميلة وفي جملتها كتابة باليونانية فازداد استغرابها لاستبقاء المسلمين تلك الآثار الى ذلك الحين مع ما وصل اليه سلطانهم من السعة والنفوذ . ولو علمت معنى تلك الكتابة لكان استغرابها اعظم كثيرًا لانها كلمات تتألف منها عبارة الاستهلال بالصلاة عند النصارى وترجمتها « باسم الآب والابن والروح القدس » والسبب في ذلك ان الستور وامثالها من طراز الملك كانت قبل الاسلام تصنع في مصر وسكانها من النصارى وفيهم القبط والروم فكانوا يطرزونها بالرومية واكثر ما يرسمونه عليها تلك الآية . وكان الروم في الشام وغيرها يبتاعون تلك الستور ونحوها من مصر فيعلقونها على الابواب والنوافذ للزينة والتبرك . فلما ظهر

الاسلام وفتح المسلمون مصر والشام استعاروا تلك الزينة من الروم ولم يلتفتوا الى فحوى ما عليها من الكتابة وفي جملتهم الامويون في دمشق . وما زال ذلك دأبهم الى ايام عبد الملك بن مروان (سنة ٦٥ ه الى ٨٦ ه) وهو اول من انتبه اليه والى ما كان يضرب على النقود وما كان يطرز على القراطيس وهي البرد التي تحمل في الاواني والثياب . وذلك انه فيما كان ذات يوم في مجلسه اذ مرّ به قرطاس فنظر الى طرازه فامر ان يترجم بالعربية . فترجموه له فانكره وقال « ما اغلظ هذا وكيف ان هذه الاواني تصنع في مصر وتحمل في الآفاق » فامر بالكتاب الى عبدالعزيز بن مروان اخاه وعامله على مصر بابطال هذا الطراز وان يامر صناع القراطيس ان يطرزوها بصورة التوحيد « شهد الله انه لا اله الاّ هو » ففعلوا . وما زال ذلك هو شأن الطراز من ذلك الحين . وكتب الى عمال الآفاق جميعاً بابطال ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من وجد عنده بعد هذا النهي شيء منه بالضرب الوجيع والحبس الطويل . فاعترضه امبراطور الروم يومئذ ودار بينهما جدال لا محل له هنا . وفعل مثل ذلك ايضاً بالدنانير [1]

الفصل السادس والاربعون

سلمى في دار النساء

ودخلت سلمى من ذلك الباب بعد ان ازاحوا الستارة عنه فانتهت الى دهليز مفروش بالبسط من الديباج وعلى جدرانه نقوش كثيرة حتى اقبلت على دار النساء . وهي غرفة تكتنف باحة فيها بركة من الرخام المجزّع . فقال لها ابن زياد « انك في دار النساء يا سيدتي » قال ذلك وتحوّل فاستقبلتها امرأة عجوز ومعها رجل عليه لباس الحجاب فاستغربت سلمى ذلك . فقالت لها العجوز انه فتح وهو خصيّ مولانا امير المؤمنين وحاجبه (ويزيد اول من اتخذ الخصيان في الاسلام) [1] ومشت بها العجوز حتى دخلت غرفة قد زينوها وفرشوها بالابسطة والاطالس وفيها سرير مذهب لم ترمثله في عمرها . وما وصلت الى هناك حتى تهيبت وشعرت بعظم الامر الذي عرضت نفسها له واحست انها

(١) الدميري ج ١

في قفص من حديد . وتظاهرت بالتعب فرحبت العجوز بها وطلبت اليها ان تنزع خمارها وترتاح الى ان قالت « وقد امرني امير المؤمنين ان ادخلك الحمام »

فرفعت سلمى الخمار عن راسها فبان وجهها وتجلت محاسنها فانبهرت العجوز من جمالها وهيبتها وجعلت تمتدحها وتطنب بما آنسته من حسنها التماساً لاستئناسها . فاجابتها سلمى بلطف ونباهة . فازدادت اعجاباً بها وهناً تها بما حازته من التفات الخليفة والحت عليها بدخول الحمام

فقالت « سأدخله بعد ان استريح »

قالت « وقد اعددنا لك الثياب الفاخرة ولا ريب عندي انك اذا لبستها يزداد جمالك وتعلو منزلتك عند مولانا »

فشكرتها ولكنها استمهلتها ريثما تستريح . وهي انما ارادت التخلص من الحمام لتخفي خنجرها في مكان امين لعلمها انها اذا دخلت الحمام ستذهب العجوز معها فخافت ان تطلع على الخنجر فينفضح امرها فاعتذرت بانحراف صحتها وانها تخاف ان يضر الحمام بها

فسايرتها العجوز ولكنها رجعت الى تنفيذ امر الخليفة « فقالت واذا طلب الخليفة ان يراك فهل نقابلينه بهذه الثياب »

قالت « اذا شئت ان ابدل ثيابي فعلت واتركي الحمام الى الغد »

فاطاعتها وانتها بثوب من الحرير الناعم يجللهُ جلباب طويل ورديّ اللون فاحتالت في تبديل ثيابها بغير ان تشعر العجوز بخنجرها . واهتمت العجوز بتسريح شعرها واصلاحها فمشطتها وهيأتها فاصبحت سلمى بعد ذلك الاصلاح اشبه بالملائكة منها بالآدميين حتى ان العجوز عشقتها وعلق قلبها بها

الفصل السابع والاربعون

الجامع الاموي

اما سلمى فقد كانت في اثناء ذلك غارقة في بحار الهواجس لا تدري بماذا تفتكر لكثرة ما يتجاذبها من المهام واهمّ تلك الجواذب افتكارها بحبيبها وهي لا تدري ما اصابهُ

(١) الخميس ج ٢

هل هو مسجون ام قتل او أُطلق . ورأت في تلك الحجرة نافذة بجانبها مقعد مبني من الرخام كالدكة تكسوهُ وسادة كبيرة فجلست على الوسادة واطلت من النافذة فاشرفت على خلاء ضيق وراءهُ جدار عظيم يدلُّ على فخامة ذلك البناء . وسمعت جلبة بما يشبه التكبير فعلمت انها بقرب الجامع على انها ارادت مخاطبة العجوز لعلها تستطرق في حديثها الى خبر خطيبها فقالت لها « وما هذا البناء ياخالة »

قالت « هذا هو الجامع ياسيدتي »

قالت « وهل بناه امير المؤمنين ام ابوه »

قالت « كلاَّ ياحبيبتي ولكنهُ من بناء الروم مثل هذا القصر »

قالت « وهل كان عند الروم جوامع »

قالت « كلاَّ ولكنهُ كان كنيسة على اسم سيدنا يحيى يصلي فيهِ النصارى وكان هذا القصر الذي نحن قائمون فيهِ قصرًا لارباب الحكومة من الروم فلما فتح المسلمون الشام اتخذوا هذا القصر دارًا للامارة واقتسموا الكنيسة بينهم و بين النصارى فجعلوا نصفها جامعًا وبقي النصف الآخر كنيسة »

قالت « وهل بين هذه الدار والجامع اتصال »

قالت « نعم ان بينها دهليزًا يمرُّ فيهِ الخليفة كل صباح للصلاة و يعود منهُ . وقد ذهب في هذا الصباح ولم يعد بعد »

وفيما هي تخاطبها سمعت الضوضاء تتزايد في الجامع فقالت سلمى « وماسبب هذه الضوضاء »

قالت « ان المسلمين يلعنون ابا تراب »

قالت « ومن هو ابو تراب »

قالت « هو علي بن ابي طالب وكلما صلوا ختموا الصلاة بلعنهِ [1] »

فتذكرت سلمى مصيبتها وعلمت ان والدها انما مات في هذا السبيل

ولم تكن سلمى تعبأ بهذه الابحاث لو لم ترجُ التطرُّق الى حديث عبد الرحمن فقالت « و بالحقيقة ان هذا القصر بديع لا اظن المسلمين بنوا قصرًا مثلهُ الى هذا اليوم ولكنني رأيت فيهِ الحرس وقوفًا في الابواب ومعهم السيوف والحراب مع علمي ان الخلفاء في الحجاز والعراق لم يكونوا يتخذون الحرس »

قالت صدقتِ يا بنية واول من اتخذ الحرس هو معاوية والد امير المؤمنين بعد

(١) ابن الاثير ج ٣

حادثة البرك بن عبد الله التميمي الذي كاد يقتله لولم يقع السيف في قفاه و ينجو باذن الله فاتخذ معاوية الحذر من ذلك الحين وامر باقامة حرس الليل وقيام الشرط على رأسه اذا سجد وهو اول من فعل ذلك من الخلفاء[1] وفعل ابنه امير المؤمنين مثله . والسبب في كل ذلك يا حبيبتي ان قلوب المسلمين تغيرت عما كانت عليه من قبل وداخلها الغلّ فاصبح الأخ يحقد على اخيه وغدا قتل الخلفاء سنة عند بعض الناس حتى ان مولانا الخليفة كان في خطر القتل منذ يومين فكمن له رجل في مكان الصيد ولولم ينبه بعض خاصته الى ذلك لذهبت حياته على أهون سبيل ولكن الله نجاه وعادت العائدة على الباغي »

فلما سمعت سلمى ذلك اختلج قلبها وارتعدت فرائصها وخافت ان تستزيدها بيانًا فتسمع خبر قتل حبيبها . ولكنها لم تكن تصبر عن الاستطلاع فقالت « وماذا فعلوا بذلك الرجل »

قالت « قادوه مغلولاً وحبسوه وسمعت في هذا الصباح انهم سيوقفونه بين يدي الخليفة ويسألونه عن اصله وسبب مجيئه وبعد ذلك يقتلونه . ألا يستحق القتل ؟ »

فسكتت سلمى وزاد اضطرابها وخافت ان يبدو ذلك على وجهها فتظاهرت بصداع دهمها وحنت رأسها على ذراعها فوق النافذة واخفت وجهها

فقالت لها العجوز « ما بالكِ ياسيدتي لا بأس عليكِ »

قالت « اني أشعر بصداع أليم في راسي لا اكاد احتمله » فمدت العجوز يدها واستخرجت من جيبها خرزة من الجزع معلقة بخيط وقالت لها « خذي هذه التعويذة علقيها بين ضفائرك فانها تشفيكِ باذن الله وقد جرّبتها مرارًا فكان الصداع يذهب عني حالاً »

فقالت « ولكن صداعي شديد يا خالتي »

قالت « لا باس عليكِ خذي هذه التعويذة »

قالت ذلك ولم تنتظر جوابها بل وقفت وربطت الخرزة بضفيرة من ضفائرها وهي تقول « واذا كان لم يزل بعد فانه يزول عن قريب بقدوم عريسك . واظنه متى عاد من الصلاة يسأل عنكِ ولا ريب عندي انك ستكونين عنده في المنزلة الاولى بين سائر نسائه »

فاقشعرّ بدنها وتحققت قرب الساعة العظمى وقالت في نفسها « لقد آن الاوان فلا بد من الدهاء والحكمة والاّ ذهب السعي سدًى » فطلبت الى الله ان يلهمها الصبر و يثبت جاشها

---

١ مروج الذهب ج ٢

الفصل الثامن والاربعون

المقصورة

وفيما هي تفكر في ذلك واذا بالغوغاء قد قامت في الدار فبغتت سلمى فقالت لها العجوز « ان الخليفة قادم ومن عادتهِ اذا عاد من الصلاة ان يمرَّ بهذه الدار قبل دخولهِ المجلس ولا بد من مجيئهِ اليك لانهُ اوصاني بالعناية بكِ ولحظت انهُ كان ينتظر مجيئك بفارغ الصبر »

فاستعاذت سلمى بالله في باطن سرّها ولبثت صامتة وقلبها يخفق فحملت العجوز منها ذلك محمل الحياء فقالت وهي تضحك « ياللعجب من البنات كيف يظهرنَ الحياء والتمنع وقلوبهنَّ تطفح سروراً عند سماع صوت العريس . وما كل العرائس مثل عريسك ياملیحة فانهُ الخليفة امير المؤمنين القابض على رقاب المسلمين »

فظلت سلمى صامتة وهي تكظم ما في نفسها وتجلد وبعد هنيهة اقبل فتحٌ الخصي المتقدم ذكرهُ وقال « ان الخليفة قادم ياخالة » ومالبثت ان سمعت وقع خطاهُ قرب حجرتها حتى لم تعد تملك من الاضطراب فارسلت النقاب على وجهها . فابتدرتها العجوز ورفعت النقاب عنها وقالت « اتحتجبين عن امير المومنين وهو زوجك » وما اتمت كلامها حتى دخل يزيد وعليهِ رداء ازرق وعلى رأسهِ عمامة خضراء وبيدهِ درة (وهي قدة من جلد تخين تشبهُ الكرباج) فلما اطل على الغرفة استقبلتهُ العجوز فقبلت يدهُ وامسكت سلمى واسنهضتها للملاقاة الخليفة . فوقفت وتظاهرت بالحياء فناداها يزيد قائلاً « اهلاً بعروسنا » ومدَّ يدهُ ورفع الغطاء عن وجهها وقلبهُ يكاد يطفح سروراً لحصولهِ عليها لانهُ لم يشاهد في عمرهِ مثل ما في وجهها من الجمال والهيبة وقد زاده ذلك التمنُّع رغبة فيها وشوقاً اليها

اما هي فتجلدت ونظرت الى يزيد كانها تزن قواهُ لترى مايكون من امرها معهُ اذا همَّ بقتلهِ فرأت جسمهُ لايدلُّ على بطش شديد . وكان طويل القامة ادم اللون جعد الشعر احور العينين بوجههِ آثار الجدري [1] لهُ لحية حسنة خفيفة [2] فلم يهمها منظرهُ ولكنها احبت مطاولتهُ فبالغت في اظهار التوجع من الصداع ولم تجب . فالتفت يزيد الى العجوز كأنهُ يستفهمها فابتدرتهُ قائلة « ان عروس مولانا تشكو من صداع شديد

(١) ابو الفداء ج ١ (٢) العقد الفريد ج ٢

اظنهُ يزول قريبًا »

فقال « لا باس عليها فاري ان تنتقلي بها الى المقصورة في اعلى هذا القصر فتكون على مقربة من مجلسي فاذا اردت ان تفقدها في اثناء النهار لم يكن المجال واسعًا بيني وبينها . أو لتقم هناك او تنام وترتاح حتى نلتقي في المساء » قال ذلك وتحول حتى خرج من دار النساء الى مجلسهِ

اما سلمى فقد سرها ذلك التأجيل ريثما تدبر حيلة تتم بها الامر

وصعدت العجوز بسلمى على سلم من الرخام بجانب تلك الدار حتى اتت الطبقة العليا ومشت في دهليز والعجوز امامها حتى وصلت الى غرفة مفروشة باحسن الأثاث وفيها الطنافس والوسائد والمقاعد ولها نافذة تطل على الحديقة . فتحققت ان يزيد ايوافيها الى هناك واذا هممت بقتلهِ فانما تقتلهُ في تلك الغرفة فكيف تنجو بنفسها بعد ذلك . فاخذت تبحث وتتفكر فقالت للعجوز « ألعل هذه الغرفة منفردة هنا » قالت « ليست منفردة ولكنها مقصورة خاصة بالخليفة يصعد اليها من باب خاص »

قالت « وهل ينام فيها »

قالت « ربما نام فيها احيانًا ولكنهُ يجلس فيها لغرض سري لا ارى مانعًا من الاباحة بهِ لك . وذلك ان والدهُ معاوية كان لفرط دهائهِ وعلو همتهِ قد اتخذ هذه المقصورة مخبأً لهُ يطل منهُ على المجلس من كوة صغيرة فيرى اهل المجلس تحتهُ وهم لا يرونهُ . فعل ذلك حتى لا تخفى عليهِ خافية »

الفصل التاسع والاربعون

مجلس الخليفة

فاستبشرت سلمى بذلك المطل لتشاهد منهُ ماسيدور بين عبد الرحمن والخليفة اذا استحضروهُ للاستنطاق فقالت « وهل يجوز لي ان اطل من تلك الكوة لاشاهد مجلس الخليفة فاني لم ار مجلسًا في عمري »

قالت « ان الخليفة لا يأذن بذلك لاحد ولكنني لا اظنهُ يمنعهُ عنك على اني ادلك على الكوة فتطلين منها على المجلس واذا جاء الخليفة لا تقولي لهُ انك فعلت ذلك »

قالت « بورك فيك يا خالة انك والله لطيبة ومحبة ولاغر و اذا ارتفعت منزلتك عند الخليفة »

فانشرح صدر العجوز من هذا الاطناب وزاد رغبة في خدمتها

فقالت لها سلمى « وابن الباب السري الذي يخرج مولانا منه »

فامسكتها بيدها ومشت بها عدة خطوات ثم دارت من وراء الغرفة فاذا هناك باب صغير فتحته وأرتها سلمًا ضيقًا وقالت « هذا هو الباب السري فاكتمي ذاك »

قالت « والى ابن يستطرق »

قالت « انه ينتهي الى دهليز طويل آخره في الحديقة الخارجية يفتح من الداخل ولا يفتح من الخارج الا بمفتاح خاص »

فتفرست سلمى بالمكان حتى تصورت المدخل والمخرج فعادت الى استطلاع امر عبد الرحمن ولكنها تظاهرت بعدم الاهتمام فى بادىء الرأي وعادت الى المقصورة وجلست الى النافذة فاطلت على الحديقة والعجوز الى جانبها تسليها بالاحاديث ثم تظاهرت سلمى بالملل وقالت « دعينا نطل من الكوة ونرى مجلس الخليفة »

فمشت العجوز امامها حتى خرجت من الغرفة وتحولت بضع خطوات على الطنافس المفروشة هناك فوصلت الى وسادة صغيرة ازاحتها فانكشفت كوة صغيرة تطل على المجلس . فاذا بالمجلس قاعة كبيرة مفروشة بالسجاد الملون على دائرها مما يلي الجدران وسائد جلس الامراء عليها بعضهم على وسائد مثناة وبعضهم على وسائد غير مثناة الا يزيدًا فقد كان جالسًا في صدر القاعة على دكة مرتفعة من خشب العرعر منزل فيها الذهب وعلى رأسه اثنان بايديهما الحراب والى جانبيه ابن زياد على وسادة من الديباج المزركش بالذهب مثناة . وفي يد يزيد قضيب الخلافة وعلى كتفيه برد خاص بالخلفاء ورأت على نوافذ القاعة ستورًا من الاطلس المزركش بالكتابة اليونانية التي ذكرناها

فتأملت في هيأة ذلك المجلس فلم تجد فيه ما كانت تتوقعه من الهيبة والوقار فقد كان اهل المجلس يخاطب بعضهم بعضًا حتى علت ضوضاؤهم . وسمعت بعضهم يقهقه و يزيد لا يعبأ بقهقهتهم وكان موليًا وجهه الى ابن زيادة يخاطبه سرًا وهو يضحك

ثم صاح بغتة قائلاً « ياغلام » فدخل رجل كان واقفًا بالباب و وقف منأدبًا . فقال يزيد « قل لمن في بابنا من الشعراء اننا لا نقابل احدًا منهم اليوم وانما نريد ان نرى ذلك الغلام الذي همّ بقتلنا . . . اليّ به »

فخرج الغلام ثم عاد ووراءه عبد الرحمن مكبلاً بالحديد . فلما رأته سلمى ارتعشت مفاصلها لما خافت عليه من فتك يزيد

الفصل الخمسون

الاستنطاق

فلما وقف عبد الرحمن في وسط القاعة التفت يمنة ويسرة ونفرس في الناس وهو لا يبالي بما يتهدده من الخطر فسرّت سلمى برباطة جاشه ولبثت تنتظر ما يكون منه

فناداه يزيد قائلاً « ممن انت يا رجل »

فقال عبد الرحمن « اني من هذه الساحة »

فبادره عبيدالله بن زياد قائلاً « ايسألك امير المؤمنين عن نسبك فتجيبه بهذا الجواب »

قال « وهو الذي يسالني وهذا هو جوابي »

قال عبيد الله « يظهر من وقاحتك انك لا تدري من هو الذي يخاطبك »

قال « ادري ذلك وان الذي يخاطبني يزيد بن معاوية »

قال « قل امير المؤمنين . . . »

فقطع يزيد كلام ابن زياد وقال « دعه يا عبيد الله » ثم التفت الى عبد الرحمن وقال « وما حملك على هذه الخيانة »

قال « ليست هي خيانة وانما هي جسارة حملني عليها اعتقادي بصدق خدمتي فيها للاسلام والمسلمين »

فشعر يزيد ان الرجل ينوي التصريح بامور مهينة فراى من الدهاء محاولته على جاري عادة والده معاوية في مثل تلك الحال — وهو القائل لو كان بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت فقيل له وكيف ذلك قال « اذا هم شدوا ارخيت واذا ارخوا شددت » وكثيرًا ما كان معاوية يتحمل من اتباع علي كلامًا غليظًا ويصرفهم راضين وما ذلك الاّ من سعة صدره وغزارة حلمه وكثرة دهائه — ولم يكن يزيد مثل والده ولكنه اراد ان يتشبه به فقال لعبد الرحمن « ولكن ما يمنع ان نقول من انت وما الذي جاء بك الى هذه

الديار »

قال عبد الرحمن « انك تسألني سؤالاً لا دخل لهُ في عقابك او ثوابك وانما يكفيك ان تسمع كلامي وتأخذني باقراري وانا اقول انني جئت اتعمد قتلك »

فضحك يزيد والتفت الى ابن زياد وخاطبهُ خطاباً لم يفهمهُ احد . ثم التفت الى عبد الرحمن وقال لهُ « يظهر انك مغرور ونحن لا نرضى الاَّ ان نلتمس لك عذراً لئلاَّ تكون مدفوعاً من احدٍ بطريق الاغواء ويكفي للصفح عنك ان تلعن علياً »

فلما سمع عبد الرحمن ذلك نسي انهُ مقيد بين يدي الخليفة فالتفت اليهِ وقال « انك تطلب امراً مستحيلاً وما عليٌّ ممن يجوز ذلك عليهِ »

فقال ابن زياد « اقبل النصيحة واطع امير المؤمنين لئلاَّ يصيبك ما اصاب امثالك ممن ساقهم عنادهم الى القتل مثل حجر بن عدي و . . . . .

فنظر عبد الرحمن الى ابن زياد والشرر يكاد يتطاير من عينيهِ وقال « كأني بك يا ابن ابن سمية تفتخر بما فعلهُ ابوك بحجر وقد سعى في قتلهِ زوراً . قتلهُ لانهُ لم يلعن ابن عم الرسول (صلعم) فاذا رأيت ان ترتكب انت ايضاً مثل ذلك فاقتلني ولا تخوفني . فان علياً اولى بالمدح من سواه » فلما قال عبد الرحمن ذلك ضج المجلس وقامت الغوغاء وما من احد الاَّ اعجب بجسارة ذلك الاسير المقيد

اما سلمى فقد كادت تضيع رشدها من عظم التأثر وهي تتقلب بين الاعجاب بشهامة ابن عمها وبين الخوف على حياتهِ

ثم سمعت يزيد يقول لهُ « قد امهلناك يوماً آخر فاذا لم ترجع عن غرورك اذقناك الموت . خذوه الى السجن » فدخل الحرس ليأخذوه فقال « لا تؤجل عملاً الى الغد فاني انا اليوم مثلي بالامس وبالغد لا احيد عن الحق ولو قطعتموني اربا »

فضحك يزيد وهو يقول «خذوه»

وكانت العجوز جالسة بجانب سلمى تسمع ما دار في المجلس فلما اخرجوا عبد الرحمن قالت لسلمى « أرأيت مثل هذه الجسارة ولكنها لا تفيدهُ شيئاً وغداً يقتلونهُ »

فلم تستطع سلمى صبراً على سماع ذلك الكلام ولكنها قالت في باطن سرها «اذا بقيت يا يزيد حياً الى الغد فاقتل عبد الرحمن» وعادت الى الغرفة وقد ظهر الاضطراب عليها ولكنها تظاهرت بالصداع

الفصل الحادي والخمسون

الافتقاد

فاستقبلتها العجوز ورحبت بها ورثت لما ظهر عليها من آثار الاضطراب لاعتقادها انهُ مسبب عن الصداع . فقالت لها ألم تفدك التعويذة يا حبيبتي انها لم تخنّي الاَّ اليوم

فلم تجبها سلمى ولكنها احتالت بمنديل استخرجتهُ من جيبها وعصبت بهِ رأسها وتظاهرت بشدة الالم . فقالت لها العجوز « اذا كنت تشكين من الصداع الشديد فاليك بالفراش توسدي فيهِ وارتاحي »

فاطاعتها وانثنت الى فراش من الحرير الملوّن عليهِ غطاء من الاطلس المزركش بالذهب كانت قد اعدتهُ العجوز هناك بامر يزيد . فتوسدت سلمى في الفراش والتحفت الغطاء الى رأسها ولبثت لا تبدي حراكاً حتى ظنتها العجوز قد نامت . وهي انما سكتت لانشغال خاطرها في ما هي فيهِ من القلق وما تخافهُ على عبد الرحمن وعلى نفسها من الخطر

وفيما هي راقدة سمعت خطوات مفردة على السلم فعلمت ان يزيداً صاعد ليفتقدها ويسأل عن صحتها اذ لا يتجاسر احد على الصعود الى تلك المقصورة سواه . فاستعاذت بالله ولكنها رأت ان تتظاهر بالرقاد لان الليل لم يدنُ بعد وهي انما تريد قتلهُ ليلاً والناس نيام لتتمكن من الفرار

وبعد هنيهة وصل يزيد الى باب المقصورة فاسرعت العجوز اليهِ واستقبلتهُ في الباب وهي تشير بسبابتها على فمها ان « امشي الهوينا ولا تتكلم لان العروس نائمة »

فخفف الوطء واستفهم عن سبب نومها فقالت « ان الصداع اشتد عليها فعصبت راسها وتوسدت ويظهر انها نامت ولكنها ستفيق بعد قليل ولا اثر للالم في راسها والنوم انجع دواء للصداع »

فمشى رويداً رويداً حتى اقبل على الفراش ودنا من راسها وكان مغطى الى الجبهة فاحنى وامسك الغطاء باطراف انامله ورفعهُ . فظلت سلمى ساكنة وعيناها مغمضتان وقد اشرق محياها وزاده الدفء اشراقاً واحمراراً . فلم يتمالك يزيد عند رؤيتها عن الاعجاب بذلك الجمال الجاذب وحدثتهُ نفسهُ ان يوقظها ويجلس الى جانبها . فاومأت العجوز اليهِ

ان يتركها تنام . وامسكته بيده فمشى معها الى جانب النافذة وقالت له همساً « لانستعجل يا مولاي ان العروس عروسك تتمتع بها متى شئت . دعها تنام الآن وتستريح فاذا جاء الليل كانت كما تشاء »

فقال « ولكنني لا اريد منها الآن الاّ قبلة »

قالت « لم يكن ثمة باس من ذلك لولا خوفنا من استيقاظها »

فقال لها « هل ادخلتها الحمام »

قالت « نعم يا سيدي كن في راحة من هذا القبيل واذهب الى مجلسك »

فقال لها « اعدّي لنا ما نحتاج اليه من الشراب والطعام لنقضي الليلة في هذه المقصورة »

قالت « سمعاً وطاعة » وسارت في اثره

فادركت سلمى ذهابها ففتحت عينيها ونظرت الى جوانب الغرفة فلم تجد احداً وكانت في اثناء رقادها تفكر في طريقة الاحتيال لقتل يزيد . فلما علمت بعزم يزيد على المبيت في تلك المقصورة وسمعت استنهامه عن دخولها الحمام استخرجت الخنجر من جيبها ودسته تحت الفراش بحيث تصل يدها اليه متى شاءت ثم نهضت وراسها لا يزال معصوباً وقد تعاظم قلقها على حبيبها

الفصل الثاني والخمسون

شمر

فخرجت الى الكوة المطلة على مجلس الخليفة فرأت المجلس مشوشاً ولم ترَ يزيداً هناك ثم ما لبث ان دخل ومعه رجل لم يقع نظرها عليه حتى ارتعش جسمها وارتعدت فرائصها فاذا هو شمر بن ذي الجوشن . فاستعاذت بالله من شره وخافت من وشايته ولكنها اصبحت لا تخاف شيئاً في سبيل الانتقام لوالدها وخطيبها

ورأت يزيداً يرحب بشمر ويدعوه الى جانبه فلم يتجاسر ان يجلس على الوسادة المتناة ولكنه تربع على البساط بين يدي يزيد وهو متأدب

فقال له يزيد « لماذا لا تدنو من مجلسنا وانت اول من نبهنا الى الخطر الذي نجانا الله منه بالامس »

فقال « ان صنيعة مولانا لم يفعل الاّ الواجب عليه ولا فضل له فيه . وقد بايعنا امير المؤمنين على الطاعة والصدوع بالامر وان دماءنا وارواحنا واموالنا فداء عنه »

فضحك يزيد ومشط لحيته بيساره والدرة في يمينه وقال له « بورك فيك يا شمر انك ابيض الوجه وابيض الخصال . وسوف تنال ما تستحقه »

فقبل شمر الارض وقال « وارجو ان ينال ذلك الخائن ايضاً ما يستحقه »

قال « انه سينال جزاءه بعد ان نرى ما يبدو من اقراره فلعل له شركاء اذا اطلعنا على مخبآتهم منه امناً شرهم »

قال « الم يسأله امير المؤمنين عن نسبه »

قال « سألناه فلم يجب فامهلناه الى الغد »

فوقف شمر والسرور باد على وجهه وقال « اذا امرني مولاي اخبرته بنسبه ولا اظنه بعد ذلك الاّ آمراً بقتله في هذه الساعة »

فلما سمعت سلمى كلام شمر اهتزت كل جوارحها ولم تعد تستطيع الوقوف من شدة الاضطراب ولعنت ذلك الرجل وساعة قدومه ولكنها تجلدت لترى ما يكون فاذا بيزيد يقول « ومن هو قل »

قال « ألا تعرف حجر بن عدي ؟ »

قال « بلى اعرفه بالسمع »

قال « انه ابن اخيه و يزعم هذا الغادر انه سينتقم لعمه من امير المؤمنين »

فهبّ يزيد من مجلسه وصاح قائلاً « اصحيح ما تقول يا شمر ؟ »

قال « اني لا اقول غير الصدق واذا حضر الآن فقأت حصرماً في عينيه »

فضج المجلس وصاح يزيد « اتوني به »

وما عتم ان جاؤا بعبد الرحمن وعليه الاغلال والقيود فوقف بين يدي يزيد وهو لا يبالي . فنظر يزيد الى شمر واوماً اليه ان يخاطبه

فالتفت شمر الى عبد الرحمن وقال له « أيسألك امير المؤمنين عن نسبك فتخفيه عنه »

فنظر عبد الرحمن الى شمر وحملق فيه وهو لا يعبأ بما يتهدده من الخطر في ذلك

الموقف وقال « لم اخفِ نسبي خوفًا على حياتي ولا ارى في نسبي الاّ مايدعو الى الافتخار
فقال شمر « قل اذا من انت »

فرفع عبد الرحمن صوته وقال « اني من كندة واسمي عبد الرحمن وعمي حجر بن عدي الذي قلتموه ظلمًا وعدوانًا »

فتعجب يزيد لتلك الجسارة وقال « انقول ذلك ولا تخاف »

قال « مم اخاف وقد اقررت بعزمي جهارًا واريدكم بيانًا اني انما تعمدت قتل يزيد انتقامًا لعمي المقتول ظلمًا .. »

وكان ابن زياد جالسًا بجانب يزيد يسمع ما يدور بينهما فلما سمع قوله اراد مطاولته فقال « يظهر انك مصاب في عقلك فاقلع عما انت فيه وان كان حلم امير المؤمنين لا يضيق عن وقاحتك . فاذا استغفرته ورجعت عن غيك اظنه يصفح عن جهالتك »

قال « مه يا ابن زياد لا تتوسط في استبقائي . ولا تذكروني بحلمكم فما أنا ملتمس البقاء »

قال يزيد والغضب ظاهر في حاجبيه « قد كنا اجلنا قتلك الى الغد ونحن نحسبك نادمًا على وقاحتك فاذا انت مستعجل اجلك . فاعلم انك مقتول قبل ان تطلع شمس الغد ... خذوه الى السجن واروني رأسه في الصباح »

الفصل الثالث والخمسون

اليأس

فارادوا ان يحوّلوا به الى السجن فقال شمر « فليأذن لي مولاي ان اقتله بيدي »

قال « اقتله واتني برأسه غدًا الاّ اذا رجع عن غيه واستغفر ولعن ابا تراب » (١)

فلما سمع عبد الرحمن ذلك نفر ممن كان ممسكًا به وحوّل وجهه الى يزيد وقال « اقتلوني الآن عساي ان القى عليًا وحجرًا على عجل واذا كان لابد من تأجيل قتلي فلا ارضى بالموت قبل ان أؤدي شهادتي على رؤوس الملأ . فاعلموا يا بني امية انكم توليتم هذه الخلافة بغير الحق واخرجتموها من اهل بيت الرسول بالحيلة وحاربتم من

(١) ابن الاثير ج ٣ والمسعودي ج ٢ والفخري والتنبيس والعقد الفريد الخ

هو احق بها من سائر المسلمين ولم تفوز وا بها من دونه الاّ لرغبتكم في الدنيا ورغبته في الآخرة ولسوف تلقون عاقبة ما جنته ايديكم »

فانتهره ابن زياد قائلاً « اتقول ذلك جهاراً يا خائن »

فالتفت عبد الرحمن اليه وقد صعد الدم الى راسه وتعاظم غضبه وتذكر ما افتراه زياد والدهُ على عمه حجر حتى تمكن من قتله فقال « لا تقل خائن .. وما الخيانة الاّ من شأنك وشأن ابيك من قبلك .... وليس في هذا المجلس احدٌ لا يعرف اباك زياداً وامه سمية وكلهم يعرفون لماذا سموهُ ابن ابيه . اذكر يا عبيدالله شهادة ابي مريم خمار المدينة ألم يقل ان جدتك سمية كانت بغياً من بغايا المدينة ؟ هل وصلتَ انت وابوك الى هذا المجلس الاّ بفضل بغيها .. وما في هذا الجمع من يجهل ان معاوية لم يستلحق زياداً بنسبه ويرضى بأن يكون اخاه من ابيه الاّ لاستخدامه في مصلحته واستنصاره على اهل البيت . فاذا رضيت بهذا الاستلحاق فانما هو شهادة على قذارة اصلك . وان لم ترضهُ فاخبرني ماهو نسبك ؟ .. وتزعم مع ذلك اني خائن وما الخائن الاّ من عرف الحق وانحرف عنهُ طمعاً في الدنيا كما فعل ابوك وامثاله وكما فعلت انت وامثالك . فلا غرو اذا استغربتَ المجاهرة بانتصاري للحق . وهي شهادة حق اموت في سبيلها واذا انا متُ فان عظامي تنادي بها من اعماق القبر »

فضج الناس وتشوش المجلس والكل معجبون بتلك الجسارة وتقدم شمر الى يزيد وهو يقول « الى متى يصبر امير المؤمنين على هذه الوقاحة مرني فاقطع رأسهُ في هذه الساعة »

فصاح فيهِ عبدالرحمن « اقتل ... جرد سيفك ... انكم ما قتلتم من قتلتموهُ من نصراء الحق الاّ بمثل ذلك .. تتكاثرون على الرجل عشرات ومئات ... اقتل ... قتلك الله ... » ثم التفت الى يزيد وقال « انظنون قتل رجل مثلي يؤيد سلطانكم » واشار الى عمامته وقال « ان دون هذه العمامة الوفاً من الرجال الصناديد سوف يذيقونكم مرارة ماجنتهُ ايديكم . ان سلطانهم يا ابن معاوية لم يتأيد الاّ بالحيلة . اطعمتم الناس بالدنيا فنصروكم ... استلحقتم زياداً بنسبكم واطعمتم عمرو بن العاص بمصر فنصراكم . ولولا ابن العاص ما بقيتم بعد واقعة صفين يوماً واحداً . ولولا فعلتهُ بالاّ شعري في مجلس التحكيم لم تقم لكم قائمة . ولكن دهاء ابيك معاوية غلب على دهائه فاستخدمهُ في مصلحته فأطعمهُ مصر واكلهُ هو ومصر والشام .... ولكنها لقمة لن تهضمها امعاؤكم وسوف ترون وترى ... »

وقبل ان يتم كلامهُ قال يزيد « خذوه الى السجن واتوني برأسهِ في الغد باكرًا » قال ذلك وهو يضحك و يظهر الاستخفاف · فساقوه فمشى وهو يرسف بقيوده بخطوات ثابتة كأنهُ ذاهب الى المنافرة · ولا تسل عما اصاب سلمى من الارتعاد وما ظهر على وجهها من الاضطراب حتى اغرورقت عيناها بالدموع رغماً عنها · ولكنها فرحت بما ابداه عبد الرحمن من الانفة والحرية فلما خرج من المجلس انخلع قلبها معهُ وتعاظم قلقها · ثم عادت الى روعها وعللت نفسها بقتل يزيد في ذلك المساء قبل ان يقتل خطيبها · وكانت الى تلك الساعة تنتهب جريمة القتل لغلبة طبيعة النساء عليها فلما سمعت ما دار بينهم وبين عبد الرحمن هان عليها كل امر فظيع · واشتد بها الهياج حتى لم تعد تستطيع البقاء هناك فتحولت الى المتصورة والعجوز لم تات بعد · فافتقدت الخنجر واستخرجتهُ ونظرت اليهِ وخاطبتهُ قائلة « ارجو ان لا تخونني الليلة · انك اذا اطعتني اتيتَ بما لم يقو عليهِ الوف من المسلمين · · · فتنقذهم من سلطان اناس اختلسوا الخلافة واهانوها وتعيدها الى اولى الناس بها · تعيدها الى سيد شباب المسلمين ابن بنت الرسول · · · · · »

ولما تصورت ذلك اهتزت طربًا وقالت وقد نسيت موقفها « اذا انا ظفرت بهذه الامنية لا ابالي متُّ او بقيت حية · · · »

ولم تكد تقول ذلك حتى سمعت وقع اقدام على السلم فاسرعت الى اخفاء الخنجر تحت الفراش وجلست في الفراش وهي ترتجف وتغطت الى فوق رأسها

الفصل الرابع والخمسون

المائدة

وبعد هنيهة دخلت العجوز ووراءها جماعة يحملون آنية الطعام والشراب فمدوا السماط ووضعوا فوقهُ المواعين من الذهب والفضة وفيها الدجاج المشوي وانواع اللحوم والحلواء والفاكهة وصفّت اقداح الشراب · فتظاهرت سلمى باليقظة وتململت ثم رفعت الغطاء عن رأسها فوقع نظرها على ذلك السماط وعليهِ انواع الاشربة والوان الطعام · ورأت بجانب السماط طنبورًا فتذكرت ما كانت تسمعهُ عن اشتغال يزيد بشرب الخمر وضرب الطنابير [1] مما لم يسبق لاحد من الخلفاء · فقالت في نفسها

(١) المسعودي ج ٢ والخميس ج ٢ والفخري

اذا لم يكن وراء قتل هذا الرجل الاّ نزع هذا العار عن الخلافة لكفاني شرفاً بقتلو »

اما العجوز فلما رأتها ترفع الغطاء عن رأسها تفرست فيها فرأت الاحمرار قد تعاظم في وجهها حتى توردت وجنتاها واحمرت عيناها وقد ازدادت هيبة وجمالاً فاسرعت اليها وقبلتها بين عينيها وقالت « هنيئاً لامير المؤمنين متى فاز بمثل هذه القبلة وهنيئاً لك على ما ستحوزينهُ من المكانة الرفيعة عندهُ »

فظلت سلمى ساكتة ولم تبدِ حراكاً فظنتها لا تزال تشكو الصداع فقالت لها « كيف تشعرين الآن يا بنية »

قالت « اني احسبني احسن قليلاً »

قالت « وسيزول بقية الالم متى جلس الخليفة الى جانبك الليلة وسمعت ضربهُ على هذا الطنبور فاننا قد اعددنا لك كل شيء بامرهِ »

ولم تتم كلامها حتى فاحت رائحة البخور وسمعت وقع اقدام خفيفة خارج الغرفة فتحركت في فراشها . فقالت لها العجوز لاتجزعي يا حبيبتي ان الخليفة لم يأت بعد واما الذي تسمعين وقع اقدامهِ فهو رجل يحمل البخور سيضع مبخرتهُ هنا و يعود . فارخت سلمى خمارها على راسها ونظرت من خلالهِ الى القادم فاذا هو رجل عليهِ قباء من الاطلس الاحمر وعلى كتفهِ كساء مزركش اصفر وعلى راسهِ شاش وعلى كتفهِ الاخرى مخلاة من الحرير الاخضر ملآنة يعود الفاقلى وفي يدهِ مبخرة من الذهب الاحمر فيها نار يلقي فيها عود الفاقلى والدخان يتصاعد من المبخرة حتى ملأ المكان برائحة العود . فدخل الرجل بخفة و وضع المبخرة بباب المنصورة وكرّ راجعاً ولم يبق في الغرفة غير العجوز والمائدة وعليها الاطعمة والاشربة

ثم اشتغلت العجوز بوضع الوسائد حول تلك المائدة وأتت بقوائم من الذهب مغروس في رؤوسها وجوانبها شموع بعضها ابيض والبعض الآخر احمر والبعض اخضر واوقفتها في وسط البساط ولم تشعلها لان الليل لم يقبل بعد

كل ذلك وسلمى مستكنة في الفراش غارقة في الافكار والهواجس وهي ترجو ان لا يحضر مجلسهم في تلك الليلة احد غير يزيد

ولما غابت الشمس همت العجوز بالشموع فانارتها فأضاءت الغرفة ولبثت في انتظار يزيد . وكانت العجوز تتوقع قدومهُ قبل الغروب فلما غابت الشمس ولم يأتِ استبطأتهُ فقالت لسلمى يظهر ان مولانا الخليفة قد شغل عنا وانا لا اظن في الدنيا شيئاً يشغلهُ عن هذا المجلس . فأوجست سلمى خيفة من سبب تأخرهِ وحسبت لذلك الف حساب

الفصل الخامس والخمسون

يزيد

ثم سمعتا وقع اقدامهِ على السلم فقالت العجوز ها انهُ آت والحمدلله . فلما سمعت سلمى ذكرهُ اختلج قلبها في صدرها وتحققت دنو الخطر العظيم فتجلدت وجلست في الفراش . فقالت لها العجوز انهضي من الفراش الآن ليس هذا وقتهُ واجلسي الى المائدة . ولم تكد سلمى تهمُّ بالجواب حتى دخل يزيد وقد بدل ثيابهُ بثياب خفيفة وعلى راسهِ عمامة صغيرة . فلما اقبل على المائدة رأى سلمى لاتزال في الفراش فقال لها وهو يبتسم غصبًا « ألعلك لا تزالين مصدوعة »

فلما سمعت سلمى نغمتهُ تفرست في وجههِ فاذا هو قد تغير وعلاهُ الاضطراب فانزعجت وحدثتها نفسها بشيء يضمره وخافت ان يكون قد اطلع على سرّها لعلمها بما في نفس شمر بن ذي الجوشن عليها ولم ترَ بدًّا من التجلد والتكلف وان لم تكن ذلك من فطرتها . ولكنها كانت كبيرة العقل قوية الارادة فتجاهلت عما يبدو في يزيد من القلق وجلست كانها تتأهب لمسايرتهِ

اما هو فحالما نظر الى وجهها أشرق وجههُ وزال انقباضهُ وعاد الى هيامهِ . وكانت العجوز واقفة بين يديهِ فقال لها على سبيل المزاح « تعالي يا عجوز الخمس واملإي هذا القدح من هذا الشراب واعطي سلمى فانهُ شراب حلو »

فملأت العجوز قدحًا من شراب احمر وقالت لها « اشربي انهُ مصنوع من عصير التفاح فلا تخافي »

فتحيرت سلمى لانها لم تذق تلك الاشربة ولا تريد ان تذوقها ولكنها تناولت الكاس ولبثت تنتظر ما يريدهُ يزيد فاذا هو قد صب قدحًا آخر من زجاجة اخرى فيها شراب اصفر وقال « وهذا من عصير البلح » وشرب فتظاهرت هي بالشرب وصبت الكاس في ثيابها

فلم يستقر الشراب في جوف يزيد حتى غلب عليهِ الانبساط ودنا من فراش سلمى والطنبور بيدهِ وهو يضرب عليهِ ويطرب والعجوز تفصل اللحوم وتناولهُ وتناولها ونصب الاشربة وسلمى تحبب اليهِ الشرب عساه ان يسكر فيهون عليها الفتك بهِ

وكان شمر منذ علم بعزم الخليفة على الاقتران بسلمى قد نوى على الوشاية بها انتقاماً لما نالهُ من مجافاتها . فلما رأى موكبها قادماً الى دمشق وتحقق دخولها القصر ووقوعها من يزيد موقع الاستحسان اخذ في اعداد المكيدة فاغتنم فرصة رأى فيها يزيداً خارجاً وحدهُ من المجلس الى المقصورة فاعترضهُ وهمس في اذنهِ « ان عروسك لا يركن الى قلبها فاحترس على نفسك منها » وكان يزيد مسرعاً الى ملاقاة سلمى وقد اخذ الشوق منهُ ماخذاً عظيماً فاثرت فيهِ كلمات شمر تاثيراً لم يطل مكثهُ طويلاً . ولم يكد يجلس اليها ويتأمل محياها حتى نسي الوصية وخصوصاً بعد ان دارت في رأسهِ سورة الخمر ولم يعد يرى من الدنيا شيئاً غير ما في مقصورتهِ

اما شمر فلما طال مقام يزيد مع سلمى في تلك الخلوة ولم يسمع شيئاً جديداً زاد الحسد فيهِ لئلاَّ تكون سلمى قد تسلطت على قلب يزيد وانستهُ حالهُ . وندم لانهُ لم يصرح لهُ بحقيقة نسبها وانها ابنة عم عبد الرحمن وخطيبتهُ فيتحقق خيانتها ويخاف غدرها . واصبح شمر عند ذلك لا يهدأ لهُ بال . وفكر في سبيل ينال بهِ بغيتهُ . وهو يعلم منزلة عبيد الله بن زياد من يزيد فسار اليهِ وكان ابن زياد في غفلة عن علاقة سلمى بعبد الرحمن ولكنهُ بات كاسف البال لفشلهِ في خطبتهِ سلمى وقد شق عليهِ خروجها من يديهِ ولم يكن اطول من تلك الليلة عندهُ

الفصل السادس والخمسون

الغيرة

فلما انفض المجلس وعلم عبيد الله بذهاب يزيد الى المقصورة وان سلمى هناك في انتظاره ثارت الغيرة في قلبهِ وطار النوم من عينيهِ وكان قد أوى الى غرفتهِ في القصر وتوسد الفراش ولكنهُ لم يجد الى الرقاد سبيلاً . وكلما تذكر سلمى وجمالها وهيبتها وتصور جلوسها الى جانب يزيد وهو يعتقد ضعفهُ ولا يحترمهُ الاَّ بالنظر الى منصبهِ في الخلافة — فكلما تصوَّر ذلك يتشعر بدنهُ

قضى ابن زياد في غرفتهِ بضع ساعات وهو في قلق شديد يغالب عواطفهُ

ويهوّن المصيبة عليهِ ولكنهُ لم يتمالك عن الغيرة . وفيما هو في تلك الهواجس دخل عليهِ خادمهُ وهو يحسبهُ نائمًا فلما رآه مستيقظًا قال لهُ « ان شمر بن ذي الجوشن في الباب » .

فقال « دعهُ يدخل » وجلس في الفراش وامر الخادم فاضاء السراج

فدخل شمر وعلى وجههِ علامات البغتة والاهتمام

فابتدرهُ عبيد الله بالاستفهام عما وراءهُ

فقال لقد « اتيتك في امر ذي بال »

قال « وما هو »

قال « انت تعلم عزم الخليفة على الاقتران بتلك الفتاة الحسناء »

فلما سمع ابن زياد الاشارة الى سلمى اختلج قلبهُ في صدرهِ واصاخ بسمعهِ وقال « نعم اعلم ذلك ثم ماذا ؟ »

قال « أتعلم من هي هذه الفتاة »

قال « لا اعلم سوى انها غريبة واظنها من العراق »

قال « نعم انها عراقية ولكن من هو ابوها ؟ »

قال « أليس هو ذاك الكهل الذي كان معها في الدير . وهب انهُ ليس اباها فلا اظن معرفتهُ تهمُّنا »

قال « ان معرفة والدها تهمنا جميعًا ولو عرف امير المؤمنين من هو حموهُ لما اقترب منها . فانهُ غير الكهل الذي اشرت اليهِ »

فاستغرب عبيد الله ذلك القول وقال « ومن عسى ان يكون والدها قل يا شمر . . . »

قال « انهُ حجر بن عديّ »

ولم يتم كلامهُ حتى بانت البغتة في عيني عبيد الله وصمت برهة ثم قال « وهل انت واثق بصدق ما تقولهُ ؟ . . . »

فابتسم شمر وقال « اني اعرفها واعرف اباها وعمها وكل اهلها وقد صحبتها . . . »

فقطع ابن زياد كلامهُ قائلاً « فيكون عبد الرحمن اذًا ابن عمها ! »

قال « نعم . . وهو ايضًا خطيبها وقد قدما ومعهما الرجل الكهل الذي ذكرتهُ وهو الوصي عليها . فاقاموا في دير خالد يتربصون للفتك بامير المؤمنين . وهذا الذي ساعدني على كشف امر الرجل وايقاعهِ في الشراك وهو يهمُّ بتلك الجريمة »

فبهت عبيد الله وتحقق كلام شمر مما لاحظهُ من القرائن الاخرى فقال لهُ « لماذا لم تطلع الخليفة على هذا السر . اني اخاف ان يكون قبولها بهذا الاقتران مكيدة واخشى ان تكون عازمة على الفتك بامير المؤمنين خلسة »

قال « لقد لمحت لهُ تلميحاً ولكنهُ لفرط شغفهِ بها وشدة سرعتهِ في الذهاب اليها لم يدع لي مجالاً للكلام او زيادة التفصيل »

قال « لا استبعد ان تكون ناوية على قتلهِ . وخصوصاً اذا كانت ثابتة في رايها مثل ثبات ابن عمها وقد شاهدنا ما كان من تصلبهِ في هذا النهار . اوان تكون متصلبة مثل والدها وقد قُتل بعناده لانهُ لم يلعن علياً كما تعلم .. ما العمل الآن ؟ .. يجب ان نبلغ الخليفة الامر بصراحة لئلاَّ نلوم انفسنا فيما بعد »

قال « الرأي رأيك ولا بد من المبادرة فيهِ قبل انقضاء الليل »

فاطرق عبيد الله برهة ثم نهض من فراشهِ بغتة وقال « اليَّ بفتح خصيّ امير المؤمنين ... لأُنفذهُ اليهِ الآن »

فاسرع شمر حتى اتى غرفة فتح بباب دار النساء فايقظهُ ودعاه الى عبيدالله فنهض حتى دخل على ابن زياد وهو يخطر في الغرفة . فلما اقبل عليهِ ناداه ابن زياد فدنا منهُ فقال لهُ « اذهب الى الخليفة الآن على عجل وقل لهُ اني اريد ان اخاطبهُ في امرٍ يهمهُ »

فضحك فتح وقال « يظهر انك لاتدري ابن هو الليلة .. »

قال « بلى اني عالم بمجلسهِ ولولا ذلك لدخلت انا عليهِ وكلمتهُ »

قال « وكيف ادخل عليهِ وهو في مجلس طرب وسرور وقد اوصى ان لايزعجهُ احد بشيء . فمن يجسر على الصعود الى المنصورة ؟ ... حتى ولا انا »

قال « اما انت فتدخل وهو انما ادَّخرك لمثل هذه الليلة . وتلك هي مزية الخصيان فامضِ اليهِ على عجل لان الوقت ضيق وقل لهُ ان عبيد الله يريد ان يراك لحظة الآن »

فقال « واذا انتهرني ولم يسمع كلامي ؟ »

قال « خوّفهُ بما شئت . قل لهُ ان عبيد الله يطلب مخاطبتك لاطلاعك على امر ذي بال يتعلق بالخلافة .. ولكن لا تقل لهُ ذلك على مسمع من احد .. امض يا فتح عاجلاً وسترى اهمية هذه الدعوة »

الفصل السابع والخمسون

البغتة

فاسرع فتح وهو يتعثر باذياله حتى صعد الى المنصورة فرأى الباب مغلقاً فتنصت فسمع يزيداً يضرب بالطنبور و يتهفه . فوقف برهة وقلبه يخفق وخاف ان يغضب الخليفة اذا دعاه . فلبث مدة يتردد حتى كاد ينثني . ثم تذكر الحاج عبيد الله فهان عليه كل شيء فدنا من الباب وقرعه »

وكان يزيد في ابان انبساطه وقد اتكأ الى جانب سلمى واسند رأسه على صدرها وتمثلت له السعادة بابهج حالاتها . فلما سمع قرع الباب اجفل وجلس وصاح « من بالباب »

فاجابه فتح « انا عبدك فتح »

فصاح يزيد « اذهب فتح الله قبرك لقد ازعجني »

قال « اني ذاهب ولكنني اتيت بهمة ذات بال لمولاي امير المؤمنين »

فضحك يزيد وقال له « دع المهمات الى الغد وامض . ولو قرع هذا الباب أحد سواك لقتلته »

قال « اني اعلم ذلك يامولاي ولكنني التمس من امير المؤمنين ان يريني وجهه لحظة ثم يعود »

فنهض يزيد والطنبور بيده وقد وقعت العمامة عن رأسه و وقف بالباب . فهمس فتح في اذنه « ان عبيد الله بن زياد يريد ان يكلمك في شأن يتعلق بالخلافة »

فقال يزيد « قل له ان موعدنا في ذلك الغد » وهمّ بالرجوع . فامسكه فتح بيده وقال له « لو استطاع تأجيله لما ازعج مولانا في مثل هذه الليلة وقد استمهلته فالحّ عليّ ان آتي اليك الساعة . وكنت مستغرقاً في نومي فايقظني لهذا الامر . ولم آت اليك الاّ وانا اتوقع انتهارك وغضبك ولكنني لم أر بدّاً من المجيء »

فمشى يزيد والطنبور لا يزال بيده وقد غضب من عبيد الله وعوّل على توبيخه . ومشى فتح في أثره . ثم أمر فتحاً ان يسبقه ويدعو ابن زياد اليه »

فهرع فتح حتى لقي ابن زياد واستقدمه . فجاء واستقبل الخليفة في دهليز منفرد

وقبل ان يتكلم يزيد ابتدره عبيد الله قائلاً « انا اعلم اني ازعجتُ امير المؤمنين في ساعة طربه . ولكنني اطلعت على سرّ لا يصح السكوت عنه الى الغد الاّ بالخطر الشديد . فهل بأذن مولاي الخليفة بخلوة ؟ »

فبغت يزيد وسار في أثره الى غرفة فيها شمعة مضيئة وليس فيها احد فلما خلا به قال « بلغني يا أمير المؤمنين ان عروسك التي حملناها اليك اليوم لا تخلُ خطرًا عن عبد الرحمن الذي تعمد قتلك بالامس »

فبغت يزيد وقال « وكيف يكون ذلك »

قال « لانها ابنة حجر بن عدي و عبد الرحمن ابن عمها وخطيبها »

قال يزيد « ومن انبأك بذلك »

قال « انبأني به شمر الذي كشف لنا الدسيسة الاولى فأخشى ان تكون سلمى هذه انما اتت الى منزل الخليفة لمثل الامر الذي همّ ابن عمها به والعياذ بالله ؟؟ »

فأطرق يزيد ثم قال « سمعت مثل هذا التلميح من شمر .. ولكن ما المانع ان لا تكون هي مثله وخصوصًا بعد ان انجح لها ان تكون من نسائي »

قال « قد يكون ذلك اذا عرفتْ قيمة السعادة التي خصها بها امير المؤمنين وقد تكون شريرة متصلبة مثل ابيها وابن عمها وترتكب امرًا عظيماً يسوء المسلمين ويهدّ ركن الاسلام »

قال « وكيف نعرف الحقيقة ياعبيد الله »

قال « نعرفها من البحث بين اثوابها عن سلاح او سمّ او نحوه مما قد يستعان به على مثل ذلك المنكر »

قال « لا يمكن ان يكون معها سلاح او نحوه ولو كان معها شيء من ذلك لظهر لعجوزنا لما بدلت ثيابها في الحمام »

قال « وهل تحقق مولاي دخولها الحمام »

قال « لا ريب من دخولها لاني اوصيتهم ان يدخلوها الحمام وقد سألت العجوز فأجابت ... » ثم توقف عن الحديث وتذكر انه لما سأل العجوز عن حمامها لم تجبه جوابًا صريحًا فقال « وسأسأل هذه العجوز ثانية اذا كانت فعلت ما امرتها به فان كانت لم تدخلها الحمام تزداد الشبهة عندي فتنتشها » قال ذلك وهمّ بالخروج . باستوقفه عبيد الله وقال « لا يكفي ان نبحث في اثوابها بل ابحث في كل الغرفة فاذا

وجدت شيئاً فلا تسرع في الامر بل كن حازماً مثل ابيك رحمهُ الله وخذ الامور فالتؤدة والحلم . وها اني متربص حتى ياتيني امر مولاي »

الفصل الثامن والخمسون

كشف المخبأ

وكانت سلمى لما سمعت الخصي يخاطب يزيداً ويلح عليهِ بالقدوم اليهِ قد اوجست منهُ . على انها لم تتصور انهُ جاء لمثل ذلك الغرض . وكأن نفسها حدثتها بشرّ يتهددها فاختلج قلبها واضطكت ركبتاها ولكنها تجلدت ولبثت تنتظر عودتهُ وقد علمت ان الشراب دار في رأسهِ ودنا الوقت المنتظر

وكانت العجوز قد انزوت في بعض جوانب الغرفة وغلب عليها النعاس فنامت وقد تدلى رأسها وهي جالسة

فلما عاد يزيد بشّت سلمى بوجههِ وتوقعت ان يخاطبها او يجلس الى جانبها فاذا هو يصيح بالعجوز . فافاقت مذعورة واسرعت اليهِ فاخذ يدها وخرج من الغرفة . فلما خلا بها سألها اذا كانت ادخلت سلمى الحمام . فتلعثمت واقرت لهُ بانها لم تفعل لانها رأتها منحرفة الصحة . فعنفها ولكنهُ اوصاها بالسكوت ودخل وجلس الى سلمى فظنت لاول وهلة انهُ عاد الى ما كان فيهِ وليس هناك ما يوجب الشك . فاذا بهِ قد مد يدهُ الى صدرها وجعل يجسُّ جوانبها فاجفلت وخافت ولكنها ظنتهُ يداعبها . اما هو فتظاهر بمداعبتها ولما لم يرَ معها سلاحاً قال للعجوز « الم اقل لك ادخليها الحمام ؟ »

قالت « بلى يا مولاي ولكنها كانت منحرفة المزاج فلم اشأ ان أزعجها »

قال « خذيها الآن وها اني في انتظاركما » واشار اليها ان تأخذها الى غرفة قريبة في اول الدهليز

فتحيرت سلمى بماذا تجيب ولكنها اطاعتهُ وخرجت مع العجوز وهي لا تخاف الحمام لان الخنجر ليس معها . اما هو فاخذ يفتش في جوانب المقصورة حتى قلب الفراش ورأى الخنجر تحتهُ فلم يبق عندهُ شك في المكيدة فجعل ينتفض من شدة التأثر وحدثتهُ نفسهُ ان يقتلها بذلك الخنجر حالاً . ولكنهُ تذكر كلام ابن زياد واسرع اليهِ والخنجر في يدهِ وقد

خذ الغضب منه مأخذاً عظيماً

اما يزيد فان شغفه بسلمى واعجابه بجمالها هوّنا عليه التماس العذر لها فقال « ولكنني مع ذلك لا أرى ان احكم عليها بمجرد الظن اذ قد يتفق ان يكون هذا الخنجر هناك بالصدفة وهب انها كانت متعمدة قتلي فهل تستحيل استتابتها ؟ »

فادرك عبيد الله غرض يزيد واستصوب رأيه لانه عدلٌ فقال « لقد اصاب مولانا والرأي عندي ان نبعث اليها من يستنطقها ويسألها عن هذا الخنجر وسبب وجوده معها فاذا اقرت بجريمتها عنها وحرضها على التوبة والتماس العفو منك، فان فعلت بقيت والاّ فالخاطر لك »

فقال يزيد « نعم الرأي هذا ولكنني لا آمن ان اعهد بهذه المهمة الى سواك لعلمي بحكمتك ودهائك »

فلم يصدق عبيد الله ان اذن له بذلك فاسرع الى الغرفة التي كانت سلمى فيها وكانت سلمى لما نزلت الى تلك الغرفة والعجوز معها ولم تجد هناك شيئاً من معدات الحمام ادركت ان امرها لم يبق مكتوماً وانها انما سيقت الى هناك لامر يوجب الخوف فلم تعبأ بشيء وقد يئست من الحياة . ولولا الافتكار بعبد الرحمن واملها ببقائه لما ترددت لحظة في الموت . وكانت العجوز ايضاً مندهشة ولم تفهم معنى هذا الانقلاب ولم يستقر بها المقام هناك حتى جاء ابن زياد وقرع الباب فخرجت له العجوز . فقال لها « اين سلمى »

قالت « وما الذي تريده منها »

قال « اريد ان ابلغها امراً من امير المؤمنين »

قالت « هي هنا » واشارت الى داخل الغرفة

الفصل التاسع والخمسون

سلمى وعبيد الله

فدخل عبيد الله وقد خبأ الخنجر تحت ثوابه . وكانت سلمى لما سمعت صوته ارتعدت فرائصها وارخت النقاب على رأسها . فلما اقبل عليها وتصور جمالها قال في

تنسو « حرام ان يمس هذا الجسم بسوء » فتلطف في الكلام وقال « لقد جئت من قبل مولاي امير المؤمنين اسأله عن امر ارجو ان تجيبي عليه بالصدق »

فظلت سلمى ساكنة مطرقة ولكن قلبها اشتد خفقانه . فلما لم تجب مدّ عبيد الله يده الى جيبه واستخرج الخنجر وقال لها « اتعرفين هذا الخنجر ياسلمى »

فلما رأت الخنجر تحققت فشلها وايقنت انها ذاهبة فريسة جسارتها فامتقع لونها وظلت مطرقة لانها لم تجد جواباً تجيب به

فتوسم عبيدالله من سكوتها خيرًا وقال لها « يظهر انك نادمة على تهجمك في مثل هذه الحال والعاقل من رأى العبرة في غيره فاعتبر . اما كفاك ما رأيت من فشل عبد الرحمن وطيشه حتى القيتِ بنفسك الى التهلكة . ولا ريب انك انما فعلتِ ذلك باغراء بعض الجهال والاّ فمن كان عنده ذرة من العقل لا يفعل مثل فعلتك . . . يطلبك الخليفة لتكوني عروسًا له فتتعمدي قتله وانت تعلمين ان حولهُ الجند والرجال ! فالى ابن تمضين . فاذا قلت انك عالقة بذلت الشاب الجاهل فاعلمي انهُ قتل واصبح في عداد الاموات منذ ساعتين . . . . »

ولم يكن عبد الرحمن قُتل بعد ولكن عبيد الله ظن يأسها منهُ يقرب رضوخها لكنهُ لم يبلغ الى هذا القول حتى شهقت سلمى شهقة اجفل لها عبيد الله واطلقت لنفسها عنان البكاء لانها تصورت فشلها وفشل حبيبها وذهاب آمالها ادراج الرياح . فلما سمعت انهُ صار في عداد الاموات لم تتمالك عن البكاء والنحيب .

فلما سمعها عبيد الله تبكي ظنها ندمت على ما فرط منها فجلس بجانبها على وسادة وقال بنغمة المشفق « لا تبكي يا سيدتي ولا تخافي فاذا كنت نادمة على مافرط منك فانا اتوسط لك في العفو لدى امير المؤمنين واظنهُ يعفو عنك »

فلم تجب ولكنها أبطلت البكاء ولبثت صامتة وتزحزحت من مكانها لتبتعد عن عبيد الله وقد تحوّل خوفها الى غضب واصبحت بعد سماعها بموت عبد الرحمن لا تبالي بالحياة بل هي تتمنى الموت . ولو تحقق عبيد الله وجهها من وراء النقاب لرأى عليهِ امارات الغضب وليس امارات الخوف . ولكنهُ حمل سكوتها محمل القبول فقال لها « وانا اضمن عفو الخليفة عنك اذا اقررتِ بذنبك ولعنتِ ابا تراب »

فلم تعد سلمى تصبر على ما تسمعهُ فرفعت راسها وقالت « امض يا ابن زياد من امام وجهي »

فقال وهو يمازحها « وهل تريدين ان ابعث اليك امير المؤمنين ليكون العفو على يده »

قالت ألا تزال تذكر العفو . . . وممن اطلبه ؟ امن يزيد بن معاوية دقاق الطنابير ومعاقر الخمور . . . وعلى مَ اطلب العفو ؟ . . . ألكي ابقى حية وانت تقول انكم قتلتم عبد الرحمن ؟ . . آه منكم . . آه من ظلمكم وعنوكم . . . قتلتم عبد الرحمن وجئتم تلتمسون بقائي . . . اقتلوني فما أنا طامعة بالحياة بعد الذين ماتوا قبلي . . . » قالت ذلك واختنق صوتها وهي تتجلد ولا تريد ان يبدو الضعف عليها وعبيدالله يعجب بجسارتها . وكان يختلس النظر الى وجهها من خلال النقاب وهي تتكلم فيحر بماء عينيها وملامح فمها حتى اذا هم بمخاطبتها رآها عادت الى الكلام فقالت « ثم انتم تجعلون لعن عليّ شرطاً على العفو وهو اولى الناس بالفضل . . . . دعوني من عنوكم والحنوني بعبد الرحمن . الحنوني به . . . اقتلوني . . . آه ياعبد الرحمن قتلوك قتلة الصالحين ؟ سافكو دماء الابرياء . . . لاجرم . . . ان لك اسوة باولئك . . . . » ثم خنقتها العبرات فسكتت

فاجابها عبيدالله وهو يخفف عنها « يظهر انك لم تفهمي حقيقة حالك . انك متعمدة قتل الخليفة وهو انما بعثني لاقتلك فشفقت على شبابك واردت استبقاءك اهكذا يكون جوابك »

قالت « لا جواب عندي غير هذا . اذا كنت آتياً لتقتلني فانا اقول لك اقتلني وما القتل الاّ من اسباب الراحة عندي اقتلوني . اقتلوني . . . »

فقطع ابن زياد خطابها وقال « أتفضلين القتل وخسارة الدنيا والآخرة على ان تلعني علياً او على ان تستغفري الخليفة وانا واثق بانك لم تقدمي على هذا المنكر الاّ باغواء بعض الناس و . . . »

فقطعت كلامه وقالت « لم يغوني احد ولكنني تعمدت قتله انتقاماً لابي وابن عمي وسعياً في مصلحة المسلمين . ولم اقدم على هذا الاّ وانا عالمة بما يهددني من خطر القتل . فلم اتوفق لما اريد . . فاقتلوني فما انا خير ممن قتلتموه قبلي »

فقال عبيد الله « اني انصحك نصيحة لوجه الله ان تقلعي عن هذا الحمق ولا فائدة من العناد فقد اصبحت وحيدة لانصير لك الاّ ان تشفقي على شبابك وتطيعيني . . . اني والله اضنّ بهذا الوجه المليح ان يعفره التراب »

قالت لاتضنّ بشيء لايضنّ به صاحبه . . اقتلني او اعطني هذا الخنجر فاغمده في احشائي » قالت ذلك ومدت يدها الى الخنجر فاخذه عبيد الله وتحقق ان الكلام معها لا يجدي نفعاً فتركها وعاد الى يزيد

الفصل الستون

ان لله جنداً من العسل

وكان يزيد في انتظاره على مثل الجمر وهو يود ان ترجع سلمى عن عزمها وتعتذر وتبقى عروساً له — فلما عاد عبيدالله قص عليه ما بدا منها من الاول الى الآخر فعاد يزيد الى غضبه وقال « قبحها الله من خائنة منافقة »

فلما رآه ابن زياد في تلك الحال قال له « ماذا يرى مولاي ان نفعل بها »

قال « ارى ان اقتلها حالاً بهذا الخنجر »

قال « انها تستوجب القتل . ولكنني لا ارى ان تلوث يدك بدمها ولا ان تجعل احداً من اهل القصر يعلم بذلك »

قال « وكيف اذن ؟ . . . أأعفو عنها ؟؟ »

قال « اذا عفوت كان ذلك من حلمك وسعة صدرك وكذلك كان يفعل ابوك رحمهُ الله . فقد كان يسمع الاهانة من نساء بني هاشم و رجالهم فيسكت عنها وهو قادر على الانتقام . وكثيراً ما كان يقربهم ويعطيهم العطيات [1] وهو دهاه امتدحهُ العقلاء عليه . ولولا ذلك ما هان عليه تأييد سلطانه . فاذا رأيت ان ترفع عن الانتقام من هذه الفتاة وتخرجها من قصرك انقاء شرها فعلتَ ماهو جدير بابن معاوية بن ابي سفيان »

قال « اتطلب مني الافراج عن هذه الخائنة بعد ان تحققت عزمها على قتلي ؟ لا اظن معاوية يفعل ذلك في مثل هذه الحال »

قال « اذا لم يكن السكوت عنها ممكناً فافعل ما بدالك . ولكنني لا اريد ان يعلم اهل هذا القصر ان هذه الفتاة تجرأت على الفتك بالخليفة لئلا يهون الاقدام على ذلك في عيون الآخرين »

قال « ما العمل اذاً »

قال « قلت لك افعل كما كان يفعل ابوك . فاذا لم يكن من قبيل العفو بالحلم الواسع فعلى سبيل القتل بالعسل . . . ألا تذكر طبيبهُ النصراني ابن أثال »

قال « بلى »

---

(١) المسعودي وابن الاثير العقد الفريد الخ

قال « الم يكن ابوك يستخدمه في قتل اعدائه سرًا بالعسل المسموم »

قال « سمعت ذلك لكنني لم اتحققه »

قال « ألا تذكر لما اراد والدك رحمة الله ان يبايعك في حياته — ما كان من امر عبد الرحمن بن خالد بن الوليد ؟ »

قال « واي شيء تعني ؟ »

قال « اعني ان اباك لما اراد ان يمهد بالخلافة اليك من بعده جمع اعيان اهل الشام اليه وقال لهم (اني قد كبرت سني ورق جلدي ودق عظمي واقترب أجلي واريد ان استخلف عليكم فمن ترون) فقالوا (عبد الرحمن بن خالد بن الوليد) فسكت واضمرها ودس ابن أثال الطبيب الذي ذكرته فسقى عبد الرحمن هذا قدحًا من العسل مسمومًا . فمات والناس يحسبونه مات بعلة . وفعل مثل ذلك ايضًا بالأشتر وكان علي بن ابي طالب قد انفذه واليًا على مصر بعد قتل محمد بن ابي بكر . فسير والدك الى دهقان العريش فقال له (ان قتلت الاشتر فلك خراجك عشرين سنة) فسقاه السم في العسل فمات الاشتر وخلصنا من شره على اهون سبيل . وهكذا فعل ابوك ايضًا بالحسن بن علي لما رأى ما كان من حاله في امر الخلافة فدس الى جعدة بنت الاشعث زوجة الحسن وقال لها (ان قتلت الحسن زوجتك يزيدًا) فدست له السم فلما مات الحسن بعثت جعدة الى ابيك تطالبه بك فاجابها (اني اضن بيزيد) وقد مات في ايام ابيك كثيرون من اكابر الناس بهذه الحيلة وكان ابن أثال هو الذي يركب لهم السموم ويمزجها بالعسل [1] فهل كان ابوك عاجزًا عن قتلهم بالسيف ؟ كلا ولكنه كان يرى السم اهون سبيلاً حتى قال « ان لله جندًا من العسل » [1] فاذا كان لابد من قتل هذه النساة فما يمنعك من ان تفعل انت ايضًا مثل فعل ابيك . وما هي الا جرعة تشربها فتموت والناس يحسبونها ماتت بمرض او نحوه . وهذا طبيبك ابو الحكم عالم بانواع الادوية وله وصفات مشهورة وكثيرًا ما كان والدك ايضًا يستطبه ويعتمد عليه في تركيب العقاقير لمثل هذه الغاية » [1]

---

(١) طبقات الاطباء ج ١

الفصل الحادي والستون

ابو الحكم الطبيب

فلما فرغ عبيد الله من كلامه قال يزيد « ائتني بابي الحكم في هذه الساعة »

فخرج عبيد الله الى غرفته فرأى شمر وكان في انتظاره هناك فقال شمر « ماذا فعل الخليفة »

قال « لقد كشف المكيدة وتحقق قولنا . اتعرف منزل ابي الحكم الطبيب النصراني ؟ »

قال « اعرف انه بالقرب من هذا القصر »

قال « سر اليه وقل له ان امير المؤمنين يدعوك اليه الساعة »

فسار شمر وتحول ابن زياد الى يزيد فرآه جالساً وقد اخذ الغضب منه مأخذاً عظيماً فجعل يهوّن عليه و يهنئه بالسلامة ومن قوله « نحمد الله انه لطف بمولانا وكشف لنا نيات اعدائنا فلا تطلع الشمس الاّ وقد قتل هذان الخائنان وارتاحت البلاد من شرهما وما ذلك الاّ لأن الله مؤيد سلطاننا بالرغم عن اهل العناد »

فانشرح صدر يزيد وقال « بورك فيك يا عبيد الله و بورك بشمر انه والله ذو فضل علينا وسنوليه عملاً يتمتع به ان شاء الله »

و بعد قليل سمعا وقع اقدام بينها خشخشة نعال رومية فعلما ان الطبيب قادم . ثم دخل شمر وهو يقول « ان الطبيب في الباب » فأمر بدخوله

وكان ابو الحكم شيخاً تدلت على صدره لحية بيضاء و بان الهرم على وجهه من تجعد بشرته وقد تزمل برداءه على عجل ووضع القلنسوة على راسه بغير نظام لسرعة قدومه . فحيّا الخليفة ووقف بين يديه فابتدره يزيد قائلاً « اجلس يا ابا الحكم »

فجلس

فقال يزيد « اتدري لماذا دعوناك »

قال « كلاّ يامولاي »

قال « دعوناك لنستعين بعلمك على مقاصة الخونة اهل الغدر »

قال « اني وما اعلم بين يدي امير المؤمنين »

قال « هيئ لنا جرعة عسل قاتلة واسقها في الفجر القادم لفتاة تراها جالسة مع عجوزنا في المقصورة . واحذر ان يعلم احد بذلك »

قال « العجب يامولاي كيف تحذرني من هذا الامر وانت تعلم اني طالما كنت افعل مثله بامرائيك ولم يعلم به احد »

قال يزيد « فامض الآن واعدد العقاقير واستعن بحبيبنا عبيد الله على ذلك »

فوقف الطبيب وقبل يد الخليفة وخرج ومضى الخليفة الى فراشه وسار عبيد الله الى غرفته . وقد سرّ شمر بنفوذ بغيته

الفصل الثاني والستون

عامر

فلنترك ابا الحكم يهيء جرعة العسل . ولنعد الى عامر وما كان من امره بعد خروجه من الدير . فانهُ خرج بالرغم عنهُ وقلبهُ معلق بسلمى خوفًا عليها مما عرّضت نفسها لهُ من الخطر العظيم . فاستظل في مكان يشرف على المارة حتى رأى موكب سلمى مارًا الى دمشق فانصدع قلبهُ وندم على مجاراتها وتحقق وقوعها في الفخ وذهابها هي وعبد الرحمن ضياعًا

لبث مستظلاً في الغوطة حتى توارى الموكب . فلم يعد يستطيع صبرًا عن تتبع الخبر فمشى نحو دمشق وهو يفكر في سبيل يدخل بهِ دار الخليفة ويستطلع احوال عبد الرحمن وسلمى . وما زال ماشيًا حتى دخل دمشق فسار الى المسجد وهو يعلم ان دار الخليفة بجانب المسجد . فلما اقبل على الجامع رأى الصلاة قائمة ويزيد يخطب في الناس . فسجد مع الساجدين واخذ يتفرّس في الوجوه لعلهُ يرى احدًا يعرفهُ ليستعين بهِ او يسترشده او يستشيرهُ فوقع نظرهُ على شاب واقف بازاء اسطوانة من اسطوانات المسجد يسمع الخطبة . وخيل لهُ لاول وهلة انهُ يعرفهُ . فتفرّس فيهِ جيدًا فتذكر انهُ رآهُ في غير ذلك المكان وما لبث ان عرفهُ وهو الفرزدق الشاعر الشهير . وكان يومئذٍ في اول العقد الرابع من عمرهِ لم يتزوّج نوارًا بعد . وكان سبب معرفة عامر بهِ ان غالبًا ابا الفرزدق جاء الى الامام علي بعد واقعة الجمل بالبصرة (سنة ٣٦ ﻫ) ومعهُ ابنهُ الفرزدق وكان صبيًا وقال لعلي « ان بنيَّ هذا من شعراء مضر فاسمع منهُ » فاجابهُ علي « علمهُ القرآن »[1] وكان عامر حاضرًا في ذلك المجلس واعجب بغيرة الامام على الدين . ثم شاهد الفرزدق بعد

١ الاغاني ج ١٩

ذلك باعوام في الكوفة وقد صار شاباً فذكّره بما قالهُ الامام فقال الفرزدق «ان تلك الكلمة ما زالت ترنُّ في أُذني وقد قيدت نفسي عن الشعر فآليتُ ان لا اقول الشعر حتى احفظ القرآن»

وكان عامر يعلم ان الفرزدق متشيع لاهل البيت سرًّا فرأى ان يستعين بهِ في الامر. فلما انقضت الصلاة وتفرق الناس سار في اثرهِ فرآه يعرج نحو القصر فاعترضهُ واوقفهُ وحياه فعرفهُ الفرزدق ورحب بهِ فطلب الخلوة بهِ. فمشيا الى منزلهِ فلما خلوا شكا لهُ عامر حالهُ حتى بكى. فاستغرب الفرزدق حكايتهُ وقال «ما العمل الآن وما الذي استطيعهُ. ان الواقعة مشكلة. ولا يستطيع احد التظاهر بهذا الامر كما تعلم. ولو شاورني عبد الرحمن لاشرت عليهِ بالسكون لأن الامر قد استتبَّ لهؤلاء ولا حيلة في النجاة من ايديهم فلا يفيدنا التمرد شيئًا»

فتنهد عامر وقال «وهو لم يقدم على ذلك برأيي ولكن لا خيرة في الواقع وانما أُريد منك ان تصحبني معك الى مجلس الخليفة فاقف ببابهِ في جملة الشعراء لعلي اسمع ما يجري على عبد الرحمن من المنادير»

قال الفرزدق «اني اجعلك راويتي» (وكان الشعراء في الجاهلية واوائل الاسلام يصطحبون الرواة حيثما رحلوا ولكل شاعر راوٍ خاص يحفظ شعره او يروي لهُ اقوال الآخرين فاذا دخل الشاعر على الخليفة دخل راويتهُ معهُ وجلسا متحاذيين)[1].

فاستحسن عامر الرأي فتنكر بلباس الراوية وخرج مع الفرزدق حتى دخلا دار الخليفة ووقفا مع سائر الشعراء. ولم يأذن يزيد للشعراء بالدخول عليهِ في ذلك اليوم كما تقدم. واما عامر فكان يستطلع الاحوال ويتنسم الاخبار فشاهد عبد الرحمن بعينهِ لما ساقوهُ مغلولاً للمرة الاولى ثم جاء بعض الذين كانوا معهُ وقصّ ما ظهر من بسالتهِ وهو معجب بذلك

ولما استقدموهُ للمرة الثانية وجاء المخبر بعد رجوعهِ قص ما كان من الامر بقتلهِ. فوقع عامر في حيرة وبحث عن الحجرة التي سجن فيها فعلم انها حجرة واطئة كانت في عهد الرومانيين حمامًا يغتسل بهِ والي دمشق. ولم يعد عامر يستطيع صبرًا وهو يفكر في حيلة ينقذ بها عبد الرحمن ثم يفكر في سلمى

(١) الاغاني

الفصل الثالث والستون

السرداب

وفيما هو يعمل فكرته تذكر الشيخ الناسك فاستأذن الفرزدق وخرج مسرعًا الى الغوطة حتى اطل على الدير فالتمس الناسك عند الجوزة حيثما لقيه المرة الاخيرة. فسمع نباح الكلب قبل وصوله اليها فاستبشر واسرع الى الجوزة فرأى الناسك متكئًا فوق قبر حجر ولما سمع نباح الكلب جلس ونظر الى عامر. فلما عرفه ارخى شعره على عينيه وصاح به « ابن سلمى »

قال « انها يا سيدي في قصر يزيد لا ادري ما آل اليه حالها وانما جئتك في امر ذي بال لا اخال احدًا يفرجني فيه سواك »

قال « قل واتكل على الله »

فقص عليه حديث عبد الرحمن باختصار حتى اتى الى آخر الكلام فقال « وفي هذا الليل يقتلونه ... سيقتلة شمر اللعين بيده فما العمل ؟.. »

فظل الشيخ الناسك مطرقًا ولم يجب. فسكت عامر ايضًا لعلمه ان النساك واصحاب الكرامات لهم مناجاة خصوصية يستخيرون الله بها. ثم قال الناسك « الم تعلم ابن سجنوا عبد الرحمن »

قال « بلى يا مولاي انه مسجون في الحمام القديم في قصر يزيد »

فرفع الناسك رأسه وقال « ابشر بالفرج يا عامر ... ولكن يجب ان تكون رجلاً وتتشدد وتكابد الخطر في انقاذ عبد الرحمن »

فقال « اني مستعد ان افديه بروحي.... »

قال « اتعرف الكنيسة جيدًا »

قال « واي كنيسة يا مولاي »

قال « كنيسة النبي يحيى التي جعل المسلمون نصفها جامعًا وهي بجوار القصر »

قال « نعم اعرفها وقد كنت في صباي اذا جئت مع اهلي الى دمشق صليت فيها ونحن يومئذ على دين النصرانية مثل سائر آل كنده »

قال « لا يخفى عليك ان الجامع والكنيسة والقصر متلاصقة ومجاورة »

قال « نعم يا سيدي »

قال « ادخل الجزء الباقي للنصارى يصلون فيهِ ولاحرج عليك في الدخول . ولكن يجب ان تحتال في البقاء بالكنيسة الى الليل . فاذا امنت العيون امش الى جانب الخراب فتجد هناك رخامة مشغولة بالفسيفساء على شكل اسد . فاذا رفعت هذه البلاطة رأيت سلماً قصيرًا يؤدي الى سرداب تحت الارض فامش في ذلك السرداب وانت تجس الجدران بيدك واجعل اعتمادك على اليد اليسرى . فلا تمشي بضع دقائق حتى تقبل على باب صغير يمتطرق الى الحمام . فاذا توفقت للوصول اليهِ وعبد الرحمن باق حلّ قيوده وعد بهِ في نفس السرداب واجعل هذه المرة يدك اليسرى دليلك فيطول بك المسير في اثناء رجوعك فلا تخف لانك تصل بعد طول المشقة الى مكان خارج سور المدينة . فاذا نجونما تعاليا اليّ »

وكان الناسك يتكلم وعامر متطاول يصغي لقولهِ فاستبعد اتفاق ذلك وخاف ان يعتمد على هذه النصيحة فيقضي بقية اليوم في الانتظار ثم لا يجد سردابًا ولا سبيلاً وتكون الفرصة قد فاتت . فاراد ان يتحقق نجاح مسعاه فقال « هل يسمح لي مولاي بسؤال »

قال « لا تشكك يا عامر في ما اقولهُ لك ولا تظن قولي من قبيل الظن او الحلم . ولكنني اعرف المكان جيدًا وامثال هذه السراديب كثيرة في دمشق واكثرها كان اقنية للماء من عهد الروم ثم اعتاضوا عنها باقنية اخرى جديدة فظلت تلك السراديب خالية . ولا اخفي عنك انك قد تلاقي مشقة كبيرة في تخطي هذا السرداب لانهُ مهجور من زمن قديم فربما انسد في بعض اجزائهِ او تهدم في البعض الآخر ولذلك قلت لك ان هذا العمل يحتاج الى شجاعة واقدام »

فاطمأن بال عامر وتحقق وجود السرداب ولم يعبأ بما قد يحول دون المسير فيهِ ونهض فقبل يد الناسك وهو لا يرى وجههُ . فقبل الناسك راسهُ ودعا لهُ بالتوفيق فاستبشر عامر بدعائهِ لاعتقاده بكرامتهِ واسرع الى دمشق وسار توًّا الى الكنيسة وهو يعرف مدخلها ويسهل عليهِ التظاهر بالنصرانية لانها ما زالت قريبة العهد منهُ

الفصل الرابع والستون

الكنيسة

وصل عامر الى الكنيسة ساعة الغروب فاشتم رائحة البخور وسمع اصوات المنشدين وهو لايزال في صحنها فعلم ان الناس في الصلاة . فدخل في جملة الداخلين ولم ينتبه له احد لان امثاله كثيرون من نصارى البادية واكثرهم من عرب غسان فكانوا اذا نزلوا دمشق دخلوا كنائسها وسمعوا الصلاة فيها . وكان الغسانيون قد اسلم معظمهم على اثر الفتح اما فرارًا من الجزية واما تزلفًا الى المسلمين . ولكن جماعة كبيرة منهم كانوا لا يزالون على النصرانية وقد اقاموا في البلقاء وحوران وكانوا يأتون دمشق للاستبضاع او نحوه فيدخلون الكنائس ليتبركوا بالصلاة وهم لا يفهمون منها شيئًا الاَّ من كان يعرف اليونانية منهم . وكان في دمشق كنائس اخرى غير هذه

فلما دخل عامر كنيسة ماري يوحنا المشار اليها لم يستغرب احد دخوله فالتمس مجلسًا منزويًا جلس فيه والصلاة قائمة والاناشيد تصدح والبخور يتصاعد وهو يفكر في حاله وما هو مقتحمه من الخطر الشديد — ولم يكن يبالي بالخطر لوانه واثق بنجاح مسعاه

ونحو العشاء انقضت الصلاة وتفرق الناس فتظاهر هو بالنعاس والضعف . فلما خلت الكنيسة من المصلين وصعد القسيسون الى غرفهم دار الخادم (القندلفت) على الشموع وجعل يطفئها . فلما رآه عامر يفعل ذلك ورأى الظلام يتكاثف تذكر سردابه وما قد يكون فيه من الظلام الحالك فقال — لابد لي من مصباح او شمع استضيء به في طريقي . فعول على سرقة بعض الشموع مما على المذبح . ولكنه ما زال خائفًا من الخادم . وفيما هو يفكر في ذلك دنا الخادم منه وكلمه مستفهمًا عن غرضه . وكان الخادم من اهل دمشق وقد تعلم العربية . فقال له عامر « اني رجل مريض وقد نذرت ان ابيت الليلة تحت صورة القديس يوحنا لعلي ابرأ من دائي »

فاستحسن ايمانه ولكنه استطال الاقامة معه طول الليل لانه مأمور باقفال الكنيسة قبل انصرافه فقال له ولكنني « اريد اقفال الكنيسة »

فقال عامر « اذا كنت خائفًا مني فاقفل الباب وخذ مفتاحه معك ودعني انام هنا الى الصباح لاني قد بدأت اشعر بالراحة فعسى ان ينفعني ايماني »

فلم يرَ الخادم بأساً من بقائهِ طالما كانت البيعة مقفلة ومفتاحها معهُ فسايره ولكنهُ بالغ في مسايرتهِ فجاءهُ بزيت من زجاجة مقدسة كانت في حق امام ايقونة العذراء ودهن بهِ رأسهُ وقال لهُ ان بركة العذراء تعجل شفاءك . فتظاهر عامر بالنوم فدعا لهُ الخادم بالشفاء وتركهُ واقفل باب الكنيسة وخرج الى غرفتهِ

وصبر عامر برهة وهو ينظر الى الكنيسة وعلوسقفها وما تعلق بهامن المصابيح والشموع وكلها مطفأة الاّ مصابيح صغيرة معلقة امام الايقونات الكبرى وفي بعض الايقونات صور كبيرة بقطع الآدميين ظهرت لهُ مجسمة وزادها فراغ المكان تجسماً ورهبة فاقشعر بدنهُ وخيل لهُ ان تلك الصور اشباح حية ترقب حركاتهِ وابصارها كلها مصوبة نحوهِ . ثم تذكر عبد الرحمن وما هوفيهِ من الخطر فهبَّ من متكأهِ واصاخ بسمعهِ فلم يسمع صوتاً ولا حركة فتحقق نوم الناس وقد مضى هزيع من الليل

الفصل الخامس والستون

السرداب

وكان قد راقب البلاطة التي وصفها لهُ الناسك فمشى الى جانب المذبح حتى وقف بقرب البلاطة فتأملها فاذا هي كبيرة وليس فيها مكان تمسك بهِ ولا شقٌّ تسند الانامل اليهِ فاستل خنجرهُ وعالج مكان اتصالها بما يجاورها وما زال يعالجها حتى تزحزحت وتوسم قرب اقتلاعها فأخذ يهمُّ بشمع يحملهُ معهُ ليستنير بهِ في ذلك السرداب وكلهُ من الشمع الاصفر . فحمل شيئاً منهُ في جيبهِ واستبقى واحدة اشعلها من مصباحٍ ورفع البلاطة بلباقة وخفة لئلاَّ يسمع لها صوت ولم يكد ينقلها حتى احس بنسيم بارد خرج من السرداب وفيهِ رائحة عفنة فاستبشر بسهولة الطريق لانهُ كان خائفاً من الاختناق . فنزل على درجات من الحجر والشمعة في يدهِ حتى وصل قاع السرداب فغاصت قدماهُ في بقايا مياه واوحال وحام البعوض حول الشمعة ولم يخطُ بضع خطوات حتى جاءتهُ نسمة قوية اطفأت الشمعة فاظلم السرداب فرمى الشمعة ومشى وهو يتجسس ويتلمس ويساره على الحائط وقد احس برطوبتهِ وقلبهُ يخفق ولا يسمع غير طنين البعوض ولا يرى شيئاً لشدة الظلام تارة يغوص في الاوحال وطوراً يعثر بالاحجار حتى انتهى الى مكان جاف

فاسرع فيه وهو يحملق بعينيه ويصيخ بسمعه لعله يرى بصيصاً او يسمع حسيساً

وفيما هو في ذلك سمع صوتاً بعيداً لم يفهمه لبعده فاسرع في خطواته ويده اليسرى الى الحائط والصوت يقرب منه حتى عثرت رجله بحجر فوقف ونفرس في المكان وتجسس الارض بانامله فاذا هو عند آخر السرداب وامامه درجات لابد له من صعودها . وقبل ان يخطو عليها رأى نوراً ضعيفاً خارجاً من شقوق باب صغير في اعلى السلم وسمع قائلاً يقول « لا تتهددني بالقتل فاني لا اخاف الموت »

فعلم عامر انه وصل الى السجن وعرف صوت عبد الرحمن فصعد الدرجات حتى دنا من الباب ووضع عينه على شقٍ فيه وحدق في ما هنالك فرأى رجلاً واقفاً كان بيده مصباح فوضعه على حجرٍ بارز من احد الجدران ودنا من رجل آخر جالس والاغلال في يديه ورجليه . ونفرس عامر في الرجل الواقف فعرف من بياض برصه انه شمر ورأى في يده سيفاً مسلولاً وعرف ان الجالس عبد الرحمن . ولم يكد عامر يراهما حتى سمع شمر يقول « يا للعجب من وقاحتك ووقاحة ابنة عمك !! انت تقول اقتلوني لا ابالي وهي تقول كذلك وانتما مقتولان لامحالة .. قتلت سلمى في هذه الساعة وانيت لاقتلك ... ولكنني قبل ان اخرج هذه الروح النجسة اطلب اليك بامر امير المؤمنين ان تلعن علياً فاذا فعلت علمت انك نادم على ما فرط منك من تعمد قتل الخليفة .. »

الفصل السادس والستون

التهديد

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال « اتخوفني يا شمر بقتل سلمى وهي بعيدة عنكم لا تنالها اسيافكم »

فضحك شمر وقال « اقول لك انك جاهل مغرور ولا تصدقني . انني قد سقتُ سلمى الى هذا القصر في هذا الصباح ليتزوجها الخليفة وقد ماتت منذ ساعة .. وان شئت ان اخبرك كيف ماتت فاقول لك انها تجرعت السم بالعسل . واما انت فساميتك بحد هذا السيف » قال ذلك وهزّ السيف بيده فاهتزت اعضاء عامر وتحفز لخلع الباب ولكنه رأى شمر وقف ولم يقترب من عبد الرحمن

اما عبد الرحمن فلما تحقق موت سلمى صاح صيحة قوية وتململ والاغلال تمنعه من الحركة . فسمع عامر صلصلة اغلاله ثم سمعه يقول « تباً لكم يا اهل الغدر . اتقتلون سلمى وتنافسون بقائي ثم تكلفونني على هذا البقاء لعن خير الناس بعد الرسول . . . تكلفني يا شمر لعن علي . . . . آه . . . ما العمل وقد قيدتم يديّ ورجليّ والموت اقرب اليّ من حبل الوريد . . ولكنني لا اخاف منه . . عجل بقتلي يا انذل الناس . . . لا لاقي حبيبتي في مكان لا غدر فيه ولا خيانة . . . ولكن . . يا ليتهم اختاروا جلاداً غيرك لاني اكره ان اموت بسيف نذل لئيم مثلك . . . »

فقطع شمر كلامه وهزّ سيفه واجابه بتنور وصوت مخنض وهو يبتسم « لم يختاروا غيري لهذه المهمة وساقتلك بهذا السيف الصقيل . . . »

فصاح عبد الرحمن « اقتل قتلك الله . . . ولو ابقيتم على سلمى لكنت آسف على الحياة من اجلها ولكنكم ارسلتموها الى النعيم قبلي فالحقوني بها . . . . آه يا سلمى يا ابنة حجر بن عدي . . . قتلوك والحقوك بابيك . . . قتلوك آه ما اقسى قلوبهم . . . اقتلني يا شمر . . ولكن مهل قليلاً دعني اندب حبيبتي دعني ابكي سلمى خطيبتي قبل ان افقد الشعور ولا استطيع ندبها . . . اعوذ بالله من شروركم . . . كيف تقتلون فتاة طاهرة ؟ . . اما تخافون الله اما تخافون ذلك الموقف الرهيب . . . هل بكيت يا سلمى على حبيبك قبل موتك ؟ هل تعلمين اني لاحقٌ بك على عجل ؟ . . »

فابتدره شمر قائلاً « قد علمتْ سلمى انك متّ قبلها او انك ماتت بعدها وقد كنت عازماً على استبقائك برهة لأتلذذ بعذابك ولكنني أراك تطلب البقاء لتندب حبيبتك فما انا مبقٍ عليك . . . وها اني قاتلك الساعة فاختر لك موتة . . . » قال ذلك ووخزه برأس السيف في كتفه وهو يقهقه . فصاح فيه عبدالرحمن « اضرب يا شمر اقتل اضرب عنقي . . . » قال ذلك وحرق اسنانه ثم قال « آه لولا خوفي من ان تقول خاف عبد الرحمن من الموت لاستعجلتك لاندب سلمى . . . »

وكان عامر ينظر ويسمع وهي اول مرة سمع فيها بمقتل سلمى وكان يحسبها في امان . فلما سمع بقتلها ورأى ما رآه من شمر خاف ان يسبقه شمر بالسيف فيقتل عبد الرحمن فتتضاعف المصيبة فاسند ظهره الى جانب الباب وتجمع بكليته وخنجره مسلول بيده ورفس الباب رفسة كسره بها ووثب حتى وقف في وسط الحجرة . فاجفل شمر ووقع السيف من يده فهمّ ان يلتقطه فابتدره عامر بالخنجر وطعنه في جنبه فوقع يختبط بدمه

فظنهُ عامر قد مات وتحوّل الى عبد الرحمن وحل قيوده وكسرها وعبد الرحمن مبهوت وهو يحسب نفسهُ في منام ولا يدري ما يقول وعامر لم يزد على قولهِ « لا تخف يا عبدالرحمن جاءك الفرج » وسكت وهو يشتغل بحل القيود ولم يبق في الحجرة صوت غير انين ثمر وهو ملقى على الارض

الفصل السابع والستون

خطر آخر

فلما فرغ عامر من حل القيود قال لهُ « اتبعني » وعاد الى السرداب . فمشى عبدالرحمن في اثره فقال لهُ عامر امسك بذيل ردائي . فامسك بذيلهِ ومشيا وهما يتلمسان الحائط الى اليسار وعبد الرحمن لا يزال يحسب نفسهُ في منام . فقضيا في السرداب زمنًا طويلاً ولم يخرجا الى النور فظن عامر انهُ اخطأ الطريق ثم احس بانحباس الهواء عنهما وضاق تنفسهما فحدثتهُ نفسهُ ان يعود ثم تذكر قول الناسك وما انذرهُ بهِ مما سيلاقيهِ من المشقة والخطر فعوّل على الاستمرار في طريقهِ حتى اشتد بهما الضيق واوشكا ان يختنقا من كثرة العفونة وقلة الهواء . ولحظ عبد الرحمن تلبكهُ فقال لهُ لا تأسف على حياتنا يا عماه . . . لا باس من موتنا معًا في هذا السرداب لا يعلم بنا احد فاني لا أرى الحياة عزيزة بعد موت سلمى واما انت . . . . »

فابتدره عامر قائلاً « ولا انا احب البقاء بعدكما ولكنني لا احب ان نموت قبل الانتقام من هؤلاء الاشرار . . . وا أسفاه ارانا في خطر الموت اذا لم يدركنا منفذ نتنفس منهُ الهواء . . . »

فقال عبدالرحمن « دعنا نموت يا عماه يا ما احلى الموت فانهُ يقربنا من حجر وابنتهِ . . . لا تاسف على الحياة بعدها . . ولكنني احب قبل الممات ان اعلم كيف قتلوها وما الذي اوصلها اليهم وكيف وقعت في الفخ »

فقص عليهِ عامر كل ماوقع لهُ مع سلمى من بعد ذهابهِ وعبد الرحمن يتعجب بشهامتها ويتنهد ويحرق اسنانهُ حتى أتى على آخر الحديث

وفيما هما في تلك الحال سمعا خبطًا على سطح السرداب فوقهما كانهُ نبش بالمعاول .

فقال « عامر اني اسمع نبشاً فعسى ان يكون لله قد فتح علينا » فاصاخا بسمعيهما واذا بصوت النبش يتعاظم و بعد قليل رأيا التراب يتساقط عليهما فتنهقرا الى الوراء. ثم انفتحت كوة في السقف دخل منها نور ضئيل كانه نور الفجر وجرى النسيم فانتعشا . فقال عامر « لقد فتح الله علينا بابًا للفرج » وهمّا بالمسير فسمعا جلبة وفيها صوت رجل يقول لرفيقه « انهم اولى ان يدفنوها الاّ في هذا الفجر وما ضرهم لو صبروا الى الصباح »

فاجابه الآخر « يظهر انك لم تفهم السرّ يا احمق الا تعرف عادة الخليفة في مثل هذه الحال ؟ »

قال « وما هي عادته يا فصيح »

قال « ان هذه المسكينة لم تمت موتًا اعتياديًا ولكنهم اماتوها بالسم واظهروا انها ماتت بالمرض وكم من مرة جئتُ بمثل هذه المهمة في ايام معاوية فقد كان اكثر ارتكابًا لهذا المنكر وكلما اراد قتل رجل سقاه قدحًا من العسل وامر بدفنه والناس يحسبونه مات بعلة ... ولكننا قلما رأيناه يفعل ذلك في النساء كما فعل ابنه ... »

فقال ذاك « وماذا عسى ان يكون من امر هذه الفتاة وهي عروس الخليفة ولم تأت قصره الاّ في صباح الامس ... »

فقطع الآخر كلامه وقال « ما لنا ولكثرة الكلام دعه يقتل من أراد ونحن نحفر القبور والله يطالب بالذنوب ... »

وكانا يتكلمان و يشتغلان في النبش فما احسا الاّ والمعول وقع في السرداب فصاح احدهما « اني اراني فوق بئر واخاف ان يصعد الينا منها عفريت او جان ... »

الفصل الثامن والستون

النجاة

وكان عامر لما سمع الحديث ادرك انهما صارا تحت المقبرة خارج المدينة وعلم انهم يحتفرون قبر سلمى وعلم عبد الرحمن ذلك ايضًا فاحب ان يتكلم فامسكه عامر بيده واشار اليه ان يسكت ريثما يخرجان من السرداب . فحبس عبد الرحمن نفسه ولكن الرطوبة والهواء غلبا عليه فعطس عطسة دوى لها السرداب فاجفل الرجلان وصاح

احدها « الم اقل لك ان المكان مسكون .. ؟ هيا بنا قبل ان تدركنا العفاريت »
قال ذلك وفرّ وتبعهُ رفيقهُ ولم يمض قليل حتى خلا الجو من الاصوات

فمشى عامر وعبد الرحمن حتى خرجا من السرداب وتلفتا فاذا هما في مقبرة خارج المدينة وقد لاح الفجر فاسرعا في الخروج من المقبرة وعبد الرحمن يود البقاء ليرى سلمى ولو ميتة وعامر يلح عليهِ بالخروج لئلاّ تدركهما الشرطة ويهون المصيبة عليهِ . حتى اذا بعداعن المدينة واوغلا في الغوطة لجأا الى شجرة في مختبأ وقال عامر « ارجع يابني الى رشدك واصبر ان الله مع الصابرين .. اننا شريكان في المصيبة يابني ... هيا بنا الى الشيخ الناسك فانهُ في انتظارنا قرب الدير فوق قبر حجر .... »

فقال عبد الرحمن « وسلمى ؟ .. أأتركها ؟ ... اتركها وحدها بين هذه القبور ؟ ... »
قال ذلك وغلب البكاء عليهِ فبكى وشاركهُ عامر في البكاء . ولكنهُ تجلد وقال لهُ « تعقل يا عبد الرحمن وتدبر الامر بالحكمة . ان بقاءنا هنا او ذهابنا الى المقبرة او رجوعنا الى الشام لا يفيدنا شيئاً . فقد كنتُ والحقُّ يقال في شك من مقتل حبيبتنا سلمى وكنت عازماً على البحث عنها اما وقد تأكدنا وقوع المصيبة فلم يعد لنا فائدة من البحث ... فاذا كنا رجالاً صبرنا صبر الرجال وانتقمنا لقتيلنا بما يشفي غليلنا .. »

فقال عبد الرحمن « نعم ننتقم ولكن بماذا ..... اني لا ارضى الانتقام لسلمى الاّ بقتل قاتلها الذي يسميهِ نفسهُ خليفة .. ان قتلهُ والله عوض قليل عن حبيبة قلبي ... روحي ... ابنة عمي .. سلمى ... آه ... كيف اتركها تدفن وانا حيٌّ وهي انما استقبلت الموت من اجلي . ولولاي لم تدخل قصر يزيد ولا اصابها ما اصابها .. حتى انها لم تتركنا وهي ميتة .... أم يكن قبرها والهني عليها سبباً لنجاتنا من الموت ؟ . لو لم يات هؤلاء لحفر قبرها الم تكن قبرنا قبلها ؟ .... نعم يا ليتني قبرت وكان قبري تحت قبرها ... فنكون متجاورين وبعد قليل تختلط عظامنا وتمتزج بقايانا كما امتزجت روحانا .... »

قال ذلك وخنقتهُ العبرات فاطلق لهُ عامر حريتهُ ولم يلمهُ لما يعلمهُ من خصال سلمى وهو يرى انها اهل لاعظم من ذلك . وبعد قليل عاد الى التخفيف عنهُ فقال « ان سلمى تستحق اكثر من هذا ولو قتلنا انفسنا فداء عنها لما وفيناها حقها . ولكن ذلك القتل يسرّ اعداءنا . واما اذا تدبرنا الامر بالحكمة وسعينا للانتقام بتعقل ودراية وفزنا بثارنا فان عظام حبيبتنا تنتعش من اعماق البئر ... » قال ذلك وتذكر ما اوصتهُ بهِ لما

فارقها في الدير فالتفت الى عبد الرحمن وقال « ارعني سمعك لابلغك وصية سلمى لك يوم سارت الى يزيد »

فقال « قل .. حدثني عن سلمى ماذا قالت ... »

قال « لما ودعتها في ذلك اليوم قالت لي — اذا انا متُّ وبقي عبد الرحمن حياً فحيِّهِ عني وقل له ان سلمى فضلت الموت في سبيل حبك على البقاء بعدك واذا بقيتَ انت حياً فان عظامها تتهالل في اعماق القبر »

فصاح عبد الرحمن « اتموت هي في سبيل حبي وارام يحفرون قبرها فاهرب ؟ »

الفصل التاسع والستون

الحسين وابن الزبير

فابتدره عامر قائلاً « ولكنها قالت ان بقاءك حياً بعدها يفرح قلبها وهي في القبر هياً بنا الى الشيخ الناسك نستشيره انه والله ذو فضل علينا ولولاه لم اتوفق الى انقاذك واني لا اشك في ولاية الرجل وكرامته » قال ذلك وقام . فقام عبد الرحمن ومشيا في اطراف الغوطة بحيث لا يشعر بهما احد حتى اقتربا من الجوزة . فرايا الناسك راقداً فوق قبر حجر . وقبل وصولهما نبح الكلب فجلس الناسك وتطلع فلما رآهما قادمين ارخى شعره على وجهه ونادى عبد الرحمن فلباه وهو يبكي ويقول « ما بالك لم تسالنا عن سلمى »

فوقف الناسك على قدميه وصاح « ماذا فعلوا بها ... لا ... لم يقتلوها »

فقال عبد الرحمن « صدقت انهم لم يقتلوها بالسيف ولكنهم قتلوها بالعسل ... قتلوها يا مولاي .. »

فاطرق الشيخ الناسك ويده على لحيته وهو ينتفض ويرتعد وقال « ومن اخبركم بذلك » فقصَّ عليه عامر الواقعة كما حدثت

فقال « ان الله لا ينصر القوم الظالمين »

فقال « عبد الرحمن ارشدنا يا شيخنا ... اننا لا نرى سبيلاً الى الحياة بغير الانتقام .... الانتقام ... آه ما احلى الانتقام »

فهبت الشيخ هنيهة ثم قعد وهو يقول « اخرجا من هذه البلاد لم يبق لكما فيها مارب »
قال عبد الرحمن « كيف نخرج منها وقد دفنوا سلمى فيها »
قال « اخرجا الى شركائكما في الثار . اخرجا الى مكة فان فيها ابن بنت الرسول وهو المطالب بالخلافة وهي حق له وحده . اذهبا اليه على عجل وانصراه فاذا فاز بها يتم لكما الانتقام . . . ان البقاء هنا لا يجديكما نفعاً والامر اعظم مما تظنان . . . »
فقال عامر « وكيف ذلك يا مولاي . ماذا حدث »
قال « لا ازيدكما علماً ان يزيداً هذا لما مات ابوه وقام يدعو الناس الى بيعته كان الحسين معه في المدينة وغيره من ابناء الصحابة وفي جملتهم عبد الله بن الزبير بن العوام . وكان عامل يزيد على المدينة يومئذ الوليد بن عتبة بن ابي سفيان (ابن عمه) فكتب الى الوليد يخبره بموت معاوية ويطلب اليه ان يأخذ البيعة من الحسين وعبد الله بن الزبير . فوصلة الكتاب وعنده مروان بن الحكم فاستشاره في الامر فقال مروان ارى ان تدعوهما الساعة وتامرهما بالبيعة . فبعث اليهما وكانا في المسجد فلما وصل اليهما الرسول واخبرهما بطلب الوليد قالا انصرف الآن نأتيه . وقال ابن الزبير للحسين ما تراه بعث الينا في هذه الساعة التي لم يكن يجلس فيها . فقال الحسين اظن طاغيتهم قد هلك فبعث الينا . ليأخذنا بالبيعة قبل ان ينشو في الناس الخبر . فقال وانا ما اظن غيره فما تريد ان تصنع . قال الحسين : اجمع فتياني الساعة ثم امشي اليه واجلسهم على الباب وادخل عليه . قال عبد الله اني اخافه عليك اذا دخلت . قال الحسين لا آتيه الا وانا قادر على الامتناع ثم قام وجمع اليه اصحابه واهل بيته حتى اقبل على باب الوليد وقال لاصحابه اني داخل فاذا دعوتكم او سمعتم صوتي قد علا فادخلوا عليّ باجمعكم والا فلا تبرحوا حتى اخرج اليكم . ثم دخل الحسين على الوليد فسلم ومروان عنده . فقال الحسين الصلة خير من القطيعة والصلح خير من الفساد وقد آن لكما ان تجتمعا اصلح الله ذات بينكما . وجلس . فاقرأه الوليد الكتاب ونعى له معاوية ودعاه الى بيعة يزيد فاسترجع الحسين وترحم على معاوية وقال — اما البيعة فان مثلي لا يبايع سراً فاذا خرجت الى الناس ودعوتهم للبيعة ودعوتنا معهم كان الامر واحداً . فقال له الوليد (وكان يحب المسالمة) انصرف . فقال مروان للوليد : اذا فارقك الساعة ولم يبايع ماقدرت منه على مثلها ابداً حتى تكثر القتلى بينكم وبينه احبسه فان بايع والا ضربت عنقه . فوثب عند ذلك الحسين وقال يا بن الزرقاء أأنت تقتلني ام هو كذبت والله ولؤمت . ثم خرج حتى اتى

منزله . فقال مروان للوليد . عصيتني لا والله لا يمكنك من نفسه بمثلها ابدًا . فقال الوليد والله يا مروان ما احب ان لي ما طلعت عنه الشمس وغربت عنه من مال الدنيا وملكها واني قتلت حسينًا ان قال لا ابايع والله اني لا اظن امرءًا يحاسب بدم الحسين خفيف الميزان عند الله يوم القيامة . قال مروان قد اصبت — قال هذا وهو غير حامد له على رايه

« واما ابن الزبير فلما اتاه رسول الوليد قال الآن آتيكم . ثم اتى داره فتمكن فيها ثم بعث اليه الوليد فوجده قد جمع اصحابه واحترز فانحاز عليه الوليد وهو يقول امهلوني . فبعث اليه الوليد موالية فشتموه وقالوا له يا ابن الكاهلية لتاتين الامير أو ليقتلنك . فقال لهم والله لقد استربت لكثرة الارسال فلا تعجلوني حتى أبعث الى الامير من ياتيني برأيه . فبعث اليه اخاه جعفر بن الزبير فقال جعفر للوليد رحمك الله كف عن عبدالله فانك قد افزعته وذعرته وهو ياتيك غدًا ان شاء الله تعالى فمر رسلك فلينصرفوا عنه . فبعث الوليد اليهم فانصرفوا وخرج ابن الزبير من ليلته فاخذ طريق الفرع هو واخوه جعفر ليس معهما ثالث وسارا نحو مكة . فسرح الوليد الرجال في طلبه فلم يدركوه فرجعوا وتشاغلوا به عن الحسين ليلتهم . ثم ارسل الرجال الى الحسين . فقال لهم الحسين اصبحوا ثم تروا ونرى فكفوا عنه فسار من ليلته . وكان مخرج ابن الزبير قبله بليلة واخذ معه بنيه واخوته وبني اخيه وجل اهل بيته »

قال الشيخ « وقبل ان يخرج الحسين من المدينة اشار عليه اخوه محمد بن الحنفية ان يدعو الناس الى بيعته ويصبر على ذلك . فلما اتى مكة تقاطر اليه الناس ليبايعوه ولكن بعض الناس اشار عليه ان يقدم الكوفة وينتصر اهلها . واشار عليه آخرون بالبقاء في مكة يستظل بالحرم لان اهل الكوفة لم يفلحوا في نصرة ابيه من قبله . واظنه بعث ابن عمه مسلم ابن عقيل الى الكوفة ليرى رايهم في قدومه اليهم . فاذا تمت له بيعتهم وجاء الكوفة فيبايعه العراق والحجاز فيتم له الامر ويفشل يزيد وفي فشله انتقام كاف لكما . فاذهبا الى مكة وانصرا الحسين انه اولى الناس بهذا الامر وحثا الناس على نصرته وعلى خلع يزيد والله ينصركم اجمعين »

فلما سمعا قوله استحسناه ونهضا للحال فودعاه فبكى لوداعهما وقبّل راسيهما وهما لم يريا وجهه فاوصاهما بسرعة الخروج من الشام لئلا يعلم بهما يزيد او احد رجاله

الفصل السبعون

تجرع السم

فلنتركها في طريقها الى مكة ولنعد الى دمشق لنرى ما تمّ لسلمى بعد ان امر يزيد بتجريعها العسل . وذلك ان الخليفة لما افترق عن عبيد الله والطبيب وسار بلتمس فراشهُ مرّ بالحجرة التي كانت سلمى فيها وكانت العجوز واقفة بالباب تنتظر امرهُ فاشار اليها ان تنقلها الى المقصورة وتحتفظ بها هناك

وكانت سلمى بعد خروج عبيد الله بن زياد من عندها قد أيقنت بفشلها وتحققت وقوعها في الشراك ولكنها اصبحت لا تبالي بالحياة بعد ماسمعتهُ عن مقتل عبدالرحمن . على انها كانت تود ان تنتقم لهُ قبل موتها . وراجعت ما مرّ بها من الاهوال في تلك الليلة فرأت انها لو استطاعت الكظم واطاعت يزيدًا وسايرتهُ في ما التمسهُ منها من لعن علي لتمكنت من الفتك بهِ ولكنها رأت تلك المداهنة فوق طاقتها وعلى غير السجايا التي فطرت عليها فلم تندم على كلمة قالتها

وفيما هي تردد تلك التصورات في ذهنها دخلت عليها العجوز واستأذنتها في اصطحابها الى المقصورة فاطاعتها وهي لا تبالي بما هنالك من الموت او الحياة . فمشت في اثرها حتى صعدتا الى المقصورة فدخلت سلمى وظلت العجوز بالباب

وقعدت سلمى على ذلك الفراش ونظرت الى ما بين يديها من آنية الخمر والشموع والفاكهة وتذكرت جلوس يزيد الى جانبها وما دار بينهُ وبينها من الحديث وكيف انها بعد ان كادت تصيب مرامها منهُ عادت العائلة عليها . ثم تذكرت حبيبها وتصورتهُ مقتولاً يختبط بدمهِ فاقشعر بدنها . واستغرقت في التأملات وهي لا تدري ما سيصير اليهِ امرها

وفيما هي في ذلك سمعت وقع اقدام على السلم فخفق قلبها خفوقًا سريعًا ولبثت تتوقع ما يكون واذا برجل دخل المقصورة وعليهِ العباءة والعمامة وفي يدهِ قدح . فلما رأتهُ اطرقت وظلت صامتة . فدنا الحكيم منها وقدم لها القدح وهو يقول « اشربي هذا العسل بامر امير المؤمنين فانهُ قد ينعشك »

فادركت انهُ مسموم فتناولتهُ ويدها ترتعش وقالت « سأشربهُ وانا اعلم انهُ سمٌّ قاتل فلا تطمئني بل قل لي اشربي هذا السم »

قال « وكيف عرفت انهُ سمٌ وانا اقول لك انهُ عسل »

قالت « انا اعلم انهُ سمٌ ... وارجو ان يكون كذلك . لانهُ اذا اماتني اراحني من هذه الحياة .. فقل انهُ سمٌ ليطمئن بالي واعلم اني لاحقة بحبيبي على عجل » قالت ذلك وخنقتها العبرات

فتأثر الحكيم لكلامها ولكنهُ تعود ان لا يكون حساساً فتظاهر بالاستخفاف وقال « اشربيهِ مهما يكن من امرهِ اذ لا بد من شربهِ »

فرفعت يدها وهي قابضة على القدح وقالت « اني اشرب هذا السم باسم الله وارجو ان يلحقني بالامام علي وان يقربني من ابي وابن عمي » ثم نظرت الى القدح وقالت « بورك فيك من دواء قاتل وسمٍ محي ... اني اشربك باسم الحق والعدل واطلب الى الله ان ينتقم لي ولابي وابن عمي من هذا الرجل الظالم » وادنت القدح من فمها ثم ارجعتهُ وقد غلب الضعف عليها ونظرت الى ما حولها كانها تودع الدنيا ومن عليها . ثم قالت « ألا تريونني عبد الرحمن ولو مقتولاً ؟ ... بالله اروني اياه قبل موتي لابكيهِ واندبهُ ... ايموت عبد الرحمن على قيد اذرع مني ولا اراه ؟ .... اهذا عهدي بك يا عبد الرحمن ... ابن انت .. وكيف قتلوك ... هل قتلوك بالعسل ام بالسيف ام باذا ؟ ... تعال وانظر خطيبتك وهي تجرع السم بلذة وشوق لانهُ سيجمعها بك ... هل علمت قبل موتك انك ستلاقيني عاجلاً ؟ .. هل انبأوك قبلما قتلوك بانهم سيقتلونني الآن ؟ ... يا ليتهم اخبروك بذلك فتتأسى بقرب لقائي ... والاَّ فانك تموت وانت مشتاق للقياي ....»

ثم وقفت وقد هاجت عواطفها وتبدلت حالها وظهر الهياج في عينيها وقالت « هل قتلوك حقيقة ... لا .. لا .. لم يقتلوك ... اظنهم شفقوا على شبابك ! .. ولكنهم قوم طغام لا يعرفون الشفقة ولولا ذلك ما استهانوا بالنبي وقتلوا نخبة الصالحين من اهل البيت . فلا غرو اذا قتلونا .. نعم انهم قتلوك ... قتلوك ... ابن انت يا عامر .. يا عماه ابن انت هل تعلم بمصيري . وهل انت حافظ وصيتي ؟ ... ماذا يكون من امرك اذا سمعت بمقتلي ومقتل حبيبي ؟ .. هل انت ذاكر وعدك ؟ ... امض الى تربة ابي وابكِ عني واسكب عليهِ الدموع ومزق الضلوع بل ابكِ الاسلام واندب حال المسلمين لما اصابهم من الحيف بخروج الخلافة الى هؤلاء الظالمين ....»

وكانت تتكلم والحكيم واقف لا يبدي حراكاً وقد ظل صامتاً وهو يعذر الفتاة

ويعجب بشهامتها وقوة عارضتها

اما هي فادنت القدح من فمها ثانية ونظرت الى ما فيهِ ثم التفتت الى الحكيم وقالت « اخشى ان يكون السم قليلاً لا يكفي لقتلي فاتعذب . فاذا كان قليلاً أضف اليهِ سماً آخر . . . »

فقال الحكيم بهدوء « اشربي يا بنية ولا تطيلي الكلام فقد نفد الوقت وفات الاجل الذي ضربهُ الخليفة لي »

قالت وهي تهز راسها وتحرق اسنانها « أتخاف هذا الرجل الظالم ولاتخاف الله . . اتركب العفاقير القتالة لقتل الابرياء ثم تخاف من لوم يزيد اذا تأخرت في قتلهم ؟ . . . ولكنكم تضافرتم على الظلم وتحالفتم على الخيانة . . . وبل لكم من مشهد يوم عظيم . . . في مكان لاينفعكم فيهِ سلطانكم ولا جنودكم . . يوم تأتي الساعة وينفخ في الصور فتقعون بين يدي الديان العظيم . . . . »

فقطع الحكيم كلامها وقال « لاتكثري الكلام واشربي القدح عاجلاً »

فقالت « اني اشربها ولا اخاف منها . . . لانها ترياق لمصابي . . . ولكن اريد ان ارى عبدالرحمن . . . . اين هو . . . آه . . . قتلتموهُ . . . نعم قتلتموهُ ولكن ماذا فعلتم بذلك الجسد الطاهر هل مثلتم بهِ . . . هل دفنتموهُ ام بقي مطروحاً . . . آه اني ارى اعضاءهُ تختلج ودمهُ يجري وكأني اسمع شخيرهُ في اذني . . . هل ذكرتني ياعبد الرحمن قبل موتك . . . هل ذكرت سلمى . . . هل تمنيت ان تراها قبل موتك . . . يا ليتهم قتلونا معاً ودفنونا في قبر واحد فتمتزج دماؤنا وتختلط عظامنا . ويا ليتهم يدفنوننا بجانب حجر بن عدي فنشكو لهُ ما لاقيناهُ وما يقاسيهِ المسلمون وما يتوقعهُ الاسلام من الفوضى . ولكننا سنلتقي بهِ عما قليل في مكان لا وشاية فيهِ ولا ظلم ولا رياء ونبثهُ لهُ الشكوى . . . لقد ازفت الساعة وآن لي ان الاقيكما . استودعك الله ايها العالم الفاني استودعكَ الله ايتها الحياة الزائلة . . . انك مملوءة بالشرور ولا عدل فيك ولا حق . . . . » ثم ادنت القدح من فمها وهي تقول « اشرب هذه الكاس باسم الله » وشربها جرعة واحدة وبدها ترتجف واستلقت على الفراش وهي تتلو الفاتحة وتردد اسم عبد الرحمن

الفصل الحادي والسبعون

لم تمت ولكنها نائمة

ولم تمض برهة حتى غابت عن الدنيا وشفتاها تحركان كانها تخاطب عالم الارواح وقد امتقع لونها وبردت اطرافها فخرج الحكيم واغلق الباب ونزل . وكانت العجوز قد نزلت ساعة دخوله

اما هو فظل سائرًا الى غرفة عبيد الله بن زياد وكان في انتظاره على مثل الجمر فدخل عليه واغلق الباب وراءه . فقال له ابن زياد « وما ذا فعلت ايها الحكيم »

قال « لقد سقيتها العسل »

قال « وهل فعلت ما وعدتني به »

فضحك وقال « وما الذي وعدتك به »

قال « ألم اطلب اليك ان تبدل السم بالبنج وجعلت لك جعلاً على هذا الجميل ؟ »

قال وهو يضع يده على كتف عبيد الله « نعم اني وعدتك بذلك وهكذا فعلت فالفتاة لم تمت ولكنها نائمة » ومد يده الى جيبه واستخرج قارورة وقال « واليك هذا العقار في هذه القارورة فاذا سقيتها اياه افاقت . ولكن احذر ان تبقيها بعد استفاقتها هنا فيعلم امير المؤمنين بها وتعود العائدة عليّ »

قال « لاتخف من ذلك لاني سأُخبر الخليفة بموتها وابعث من يحفر قبرها ثم ابعثها الى مكان خارج المدينة وهي نائمة كانها محمولة الى القبر ومتى استفاقت ابقيها خارج دمشق حتى اسافر فاحملها معي ولا يعلم بها احد سواي . وانا لم ارد استبقاءها الاَّ لأملي بارجاعها عن عزمها . فاذا فعلت ذلك رضي امير المؤمنين عني وعنك وشكرنا على هذا الصنيع لانه قد اعجب بجمالها ولولا غضبه الليلة لم يأمر بقتلها . ولا شك انه اذا اصبح ندم على فعلته اما انت فابقَ على كتمان ذلك ولك مني ما تشاء فوق ما اعطيتك »

فشكره الحكيم وانصرف

وكان عبيد الله بعد ان امر بزيد بقتل سلمى قد خلا بالحكيم واسترضاه بالمال الكثير على ان يبدل السم بالبنج حتى اذا احتال في اخراجها من القصر الى التربة

ذهب بها الى مكان منفرد اقامها فيها واسترضاها لعلها تقبل به زوجاً لها . وكان لا يزال عالقاً بها وامله كبير في استرضائها . فلما اخبره الحكيم بما فعلته سار توًّا الى يزيد وانبأه بموتها فقال له « ابعث من يدفنها قبل طلوع النهار » فامر اثنين من رجاله ان يكتناها و بعث اثنين آخرين لحفر القبر . واوصى الاولين ان يحملاها الى مكان منفرد خارج المدينة حالاً وتظاهر انه ارسلها الى المقبرة

وعاد اللذان حفرا القبر قبل الفجر مذعورين لما رأياه من خروج عامر وعبدالرحمن وها يحسبانهما عفريتين فقصّا الخبر على عبيد الله فامرهما ان يقصاه على الخليفة لعله يستطيع الاستعانة بذلك اذا علم الخليفة ببقائها حية فيما بعد . ففعلا

الفصل الثاني والسبعون

المسلمون في الكوفة

وفي صباح اليوم التالي ابطأ يزيد في الخروج الى المجلس لانه قضى ليلة الماضي ساهرًا فنام في الصباح ولم يستفق الى الظهر فجاء الى المجلس وعبيد الله غائب . ولم يكد يستتب به الجلوس حتى دخل عليه الحاجب وهو يقول « ان بالباب رسولاً من الكوفة »

قال « فليدخل »

فدخل رجل عليه علامات السفر وبيده كتاب فسلم ودفع الكتاب الى يزيد . فتناوله وفضّه فاذا هو من عبدالله بن مسلم احد اشياع بني امية في الكوفة فقرأه واذا فيه بعد البسملة :

« الى امير المؤمنين يزيد بن معاوية من عبد الله بن مسلم اما بعد : اعلم يا امير المؤمنين ان الناس في الكوفة والبصرة قد ضعف امرهم بضعف امرهم النعمان بن بشير فقد ولينه الكوفة وهو رجل ضعيف او هو يتضعف حتى كاد الامر ان يفضي الى اعدائنا فاذا كان لك حاجة في الكوفة فارسل اليها رجلاً قوياً ينفذ امرك و يعمل مثل عملك في عدوك . وتفصيل الخبر ان اهل الكوفة لما بلغتهم وفاة معاوية رحمه الله وامتناع الحسين وعبد الله بن الزبير عن البيعة ارجفوا بامير المؤمنين واجتمعت شيعة علي في منزل احد كبارهم فذكروا مسير الحسين الى مكة وكتبوا اليه كتاباً قالوا فيه « بسم الله الرحمن الرحيم سلام

عليك فاننا نحمد اليك الله الذي لا اله الاّ هو اما بعد فالحمد لله الذي قصم عدوك الجبار العنيد الذي انتزى على هذه الامة فابتزها امرها وغصبها فيأها وتأمر عليها بغير رضا منها ثم قتل خيارها واستبقى شرارها وانه بلغنا ان ابن عليا امام فأقبل لعل الله ان يجمعنا بك على الحق . والنعمان بن بشير في قصر الامارة لسنا نجتمع معه في جمعة ولا عيد ولو بلغنا اقبالك الينا اخرجناه حتى نلحقه بالشام ان شاء الله تعالى والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » ويبعثوا هذا الكتاب الى الحسين في مكة ويبعثوا اليه كتباً اخرى في مثل ذلك . وكان جملة ما أرسل من هذه الكتب نحواً من مئة وخمسين صحيفة . وارسلوا اليه رسلاً عديدة فجاءهم من الحسين كتاب قال فيه « اما بعد فقد فهمت كل الذي اقتصصتم وقد بعثت اليكم باخي وابن عمي وثقتي من اهل بيتي مسلم بن عقيل وامرته ان يكتب اليّ بحالكم وامركم ورأيكم فان كتب اليّ انه قد اجتمع رأي ملئكم وذوي الحجى منكم على مثل ما قدمت به رسلكم اقدم اليكم وشيكاً ان شاء الله . فلعمري ما الامام الاّ العامل بالكتاب والقائم بالقسط والدائن بدين الحق والسلام » وقد حدث مثل ذلك يا امير المؤمنين في البصرة ايضاً . اما الحسين فانه ارسل الى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل وامره اذا رأى الناس مجتمعين على يعته ان يعجل اليه ويخبره بذلك . وقد جاء مسلم الى الكوفة بعد ان قاسى في طريقه عذاباً عظيماً من العطش ونحوه ونزل في دار من دور اشياع الحسين وصارت الناس تختلف اليه وهو يقرأ عليهم كتب الحسين فيبكون ويعدونه بالقتال والنصرة . فلما بلغ ذلك عاملكم النعمان بن بشير صعد المنبر وقال « اما بعد فلا تسارعوا الى الفتنة والفرقة فان فيها تهلك الرجال وتسفك الدماء وتغصب الاموال واني لا اقاتل من لم يقاتلني ولا اثب على من لا يثب عليّ ولا انبه نائمكم ولا اتحرش بكم ولا اخذ بالقرف ولا الظنة ولا التهمة ولكنكم ان ابديتم صفحتكم ونكثتم بيعتكم وخالفتم امامكم فوالله الذي لا اله غيره لاضربنكم بسيفي ما ثبت قائمة بيدي ولا يكن لي منكم ناصر ولا معين اما اني ارجو ان يكون من يعرف الحق منكم اكثر ممن يريد به الباطل » فلما رأينا كلامه لا يفيد القطع ولا يدل على الحزم قام اليه واحد منا وقال له « ان هذا لا يصلح الاّ الغش وانه راي المستضعفين » فلم يكن جوابه الاّ قوله « اكون من المستضعفين في طاعة الله احب اليّ من ان اكون من الاعزين في معصيته » فزادنا قوله خوفاً منه فكتبنا هذا ليكون امير المؤمنين على بصيرة ويعلم ان ابن بشير لا يصلح لهذا الامر فارسل الينا من يعمل مثل عملك [1] والسلام »

(١) ابن الاثير ج ٤

الفصل الثالث والسبعون

عبيد الله على الكوفة

فلما قرأ يزيد الكتاب تغيرت حالهُ وتشاءم بما ارتكبهُ بالامس وخيّل لهُ انهُ اذنب بقتل سلمى وهي فتاة . وندم على فعلهِ واراد صرف مجلسهِ ليخلو ببعض خاصتهِ فقال « على بركة الله » فعلم ارباب المجلس انهُ يريد صرفهم وتلك كانت عادتهُ كلما اراد ذلك [1] فانصرفوا . ثم بعث الى سرجون وهو رجل رومي ذو دهاء وحكمةٍ كان معاوية يعتمد عليهِ في شؤونهِ ويستشيره في اموره حتى جعلهُ كاتبهُ [2] فلما مات معاوية ظل يزيد على ثقتهِ في سرجون فلما اشكل عليهِ امر هذا الكتاب استقدمهُ اليهِ وخلا بهِ واطلعهُ على الكتاب فأطرق هنيهة ثم قال « ارأيت اذا نُشر معاوية هل كنت تأخذ برأيهِ ؟ »

قال « نعم »

فمد سرجون يده الى جيبهِ واخرج كتابًا وقال « خذ هذا »

فأخذهُ يزيد وقرأهُ فاذا هو عهد لعبيد الله بن زياد بولايهِ بهِ الكوفة

فقال يزيد « وما هذا »

قال « هذا رأي معاوية فانهُ مات وقد امر بهذا الكتاب »

فاستحسن يزيد الرأي وعوّل على ان يولي ابن زياد الكوفة والبصرة فنادى الحاجب فسألهُ عن عبيد الله فافتقدهُ في القصر فلم يجدهُ فصبر حتى جاء ودخل وسلم [3] فدفع يزيد كتاب عبد الله بن مسلم اليهِ ولم يقل شيئًا

فتناول ابن زياد الكتاب وقرأهُ حتى اتى على آخرهِ وسكت وهو مطرق

ثم دفع يزيد اليهِ كتاب العهد لهُ على الكوفة والبصرة فلما قرأهُ قبّلهُ ووضعهُ على رأسهِ وقال « اني صنيعة امير المؤمنين ويده التي يحارب بها وسهمهُ الذي يرمي بهِ اعداءهُ »

فقال لهُ « سر الى الكوفة واصلح امورها وامنع اولئك الناس منها وكن لي كما كان ابوك لابي »

---

(١) العقد الفريد ج ١ (٢) ابن الاثير ج ٤ (٣) وفي التاريخ ان هذا الخبر لما جاء الى المعاونة كان ابن زياد في الكوفة وكان يزيد متغيرًا عليهِ

فقال « سمعاً وطاعة » وقد سره ذلك بنوع خاص لخروجه من دمشق سريعاً فيخلو له الجو ولا رقيب له على سلمى

وكان قد بعث سلمى سرًّا قبل الفجر الى بيت منفرد في اطراف الغوطة كما تقدم ثم سار هو في الصباح اليها وسقاها العقار الذي اعطاه اياه الحكيم وانزوى في بعض اطراف الحجرة . فلما افاقت ورأت النور وهي لا تزال في طور السكر ظلت برهة مبهوتة لا تدري ما تقول وعبيدالله لا يخاطبها وفي اعتقاده انها اذا افاقت ورأت نفسها حية تعترف له بذلك الجميل . فلما افاقت تبادر الى ذهنها لاول وهلة انها بُعثت من الموت وانها في العالم الثاني فصاحت « ابن عبد الرحمن .... ابن هو .. اروني اياه ... هل انا في النعيم ؟ .. عبد الرحمن ! ... عبد الرحمن ! .. »

فضحك عبيد الله

فلما سمعت ضحكته التفتت اليه وهي تفرك عينيها بانامليها وحالما رأته صاحت « انت هنا يا لئيم !! . اني اذاً في الجحيم ... اذهب من امام عيني .. »

فدنا عبيد الله منها وامسك يدها وقال « انت في هذه الدنيا يا حبيبتي وقد استبقيتك شفقة عليك »

فجذبت يدها من يده وصاحت « اخساً يا نذل ... اني لا اريد الحياة الاّ اذا كان عبد الرحمن فيها ... اقتلني ... اقتلني .. قتلك الله .. اشفق عليّ واقتلني ... »

فعذرها لتهيجها وقال لها « اني لا اعاملك بما تستحقينه لانك جاهلة وساصبر عليك ريثما تماكين روعك وانت اسيرة بين يدي لا ينجيك من غضبي غير الرضا والاذعان . فامكثي هنا حتى ترجعي الى رشدك او تموتي » قال ذلك وتركها وحدها وامر الرجلين ان يخفراها ريثما يعود

فلما رجع الى دمشق ولقي يزيداً وقد ولاه الكوفة والبصرة كما قدمنا استبشر بنيل مرامه على مهل وعلل نفسه باسترضائها في اثناء الطريق الى الكوفة

الفصل الرابع والسبعون

خرائب تدمر

قضى عبيد الله بضعة ايام وهو ينأ هب للمسير واعوانه يهيئون الاحمال خارج دمشق وفي جملتها هودج حمل سلمى فيهِ على جملين واقام عليها خادمين خبيرين يقدمان لها الطعام والماء . وكانت في بادىء الراي لا تقبل طعاماً ولا شراباً التماساً للموت جوعاً وعطشاً حتى نحل جسمها وامتقع لونها وضعفت عزائمها . ولكن الحياة عزيزة لا يتعمد المرء خسرانها عن روية وصبر وانما هو اذا اصيب بضنك شديد فضل الموت على الحياة في حال حدتهِ وغضبهِ فاذا طال اصطباره حنَّ الى البقاء والنفس لحبيبها عذراً يحبب الحياة اليهِ . فلما مضى على سلمى يومان بلا اكل ولا شرب ورأت الموت لا ياتيها في هذا السبيل الاَّ بعد العذاب الطويل عادت الى الفطرة البشرية فالتمست البقاء وعذرها في التماسهِ ان تعمل على الانتقام في سبيل آخر لا خطر فيهِ على حياتها . ثم علمت من قرائن الاحوال انهم سائرون بها الى الكوفة وان الحسين سائر اليها ايضاً وان الناس في الكوفة على دعوتهِ . فتوسمت في البقاء خيراً واملت ان تحيا حتى تنتقم لوالدها وخطيبها . فجعلت تتناول من الطعام والشراب ما تسدُّ بهِ رمقها

وكان عبيد الله في اثناء مسير الركب يتردد الى سلمى . تارة يستعطفها وطوراً يهددها وآونة يؤملها واخرى يخوفها وهي ترفضهُ رفضاً باناً . وكثيراً ما كانت تسمعهُ كلاماً مؤلماً وهي تعلم ان الجفاء لا يجديها نفعاً وانها لو عاملتهُ بالحسنى واستخدمت اللين والدهاء نالت بغيتها . ولكنها لم تكن تستطيع التغلب على انفتها . وكانت من الجهة الاخرى تخاف اذا سايرتهُ في الكلام ان تطمعهُ في ما تخافهُ وتنفر منهُ

قضت في مثل ذلك خمسة ايام والركب سائرون في الصحراء نحو الشرق والشمال في ارض لا عمارة فيها ولا مياه الاَّ بعض الآبار . وسلمى تشغل نفسها في اثناء الطريق بالاشراف من الهودج على ما يحيط بهِ من السهول الفاحلة والرمال الحمراء التي تنتهي بالافق وحولهُ هالة من لامع الآل . على انها كثيراً ما كانت تتحاشى شق الستور فراراً من الرياح الحارة وما تحملهُ من الرمال . واشرفوا في صباح اليوم الخامس على بقعة منبسطة

ادهشها منظرها حتى نسيت ما هي فيهِ من الامور العظام . رأت بقعة من الارض مساحتها بضعة اميال قد غطتها أبنية خربة وفيها الجدران العالية والاساطين الشامخة والاسوار الغليظة بين متهدم ومتداع وقد استولى عليها السكوت وتمكن منها الخراب كانها جثث بالية او عظام اكلها الدود — على ان حجارتها كانت تنطق باجلى بيان عما كان هنالك من العظمة وشدة البطش في قديم الزمان

تلك هي خرائب تدمر الطائرة الصيت . تدمر العظيمة التي زهت في اوائل النصرانية وسارت بذكرها الركبان وقد كانت واسطة عقد التجارة بين العراق والشام حتى اذا تداعت الى الخراب جعلوها موقفاً للقوافل في اثناء الطريق بين هذين البلدين

عمرّت تدمر في اوائل القرن الثاني للميلاد على اثر سقوط دولة الانباط في شمالي جزيرة العرب وغربيها فاستولى عليها الرومان سنة ١٣٠ م فازهرت واتسعت تجارتها وكانت مع ذلك مستقلة بشرائعها واحكامها يتولى النظر في شؤونها مشيخة من اهلها . ومدّ الرومان بينها وبين دمشق طريقاً تسير فيهِ المركبات وعليها اصناف التجارة من الانسجة والآنية والمؤونة . وبنى التدمريون في مدينتهم ابنية على طرز يعرف بالطرز التدمري اقاموها على الاساطين المخوتة وفوقها التماثيل من الحجر الابيض المحمرّ . ويقطع المدينة من الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي طريق واسع في اولهِ قوس نصر بجانب هيكل هائل يعرف بهيكل الشمس اشبه شيء بهيكل بعلبك — وطول الطريق الف وثلثمائة متر تحف بهِ الاعمدة من الجانبين في رواقين عدد اساطينها الف وخمسمائة اسطوانة لونها ابيض مائل الى الحمرة . وفي الاروقة دكك او مساطب مستطيلة كانوا يسندون اليها الاحمال الواردة الى تدمر من اقاصي المعمور وفيها طرود (بالات) الحرير والديباج الدمشقية وصناديق الآنية اليونانية وجلود الماشية المحمولة من جزيرة العرب على جمال يسوقها بدو من اهل الحجاز . واحمال من جرار الزيت من فلسطين — يوم كانت اسواق تدمر تعج بالمارة عجيجاً وهم اخلاط من الامم المتمدنة في ذلك العهد وفيهم التجاسون من مصر واسيا الصغرى والتجار من الفرس والشام والارمن . والمرابون والصيارف من اليهود . ناهيك بباعة السلع الضعيفة يحملون سلعهم على اكتافهم ينادون عليها في الدروب والحارات فتختلط اصواتهم بنداء الدلالين على الملح . لان الملح كان من اعظم تجارات هذه المدينة

الفصل الخامس والسبعون

العبرة والموعظة

ولو اتيح للقاري ان يزور تلك المدينة في ايام مجدها على عهد الملكة زينوبا في القرن الثالث للميلاد لبهره ما كان فيها من دلائل الترف والبذخ وعلم من الفرق البعيدين قصورها واكواخها ان الثروة كانت مخصرة في فئة من اهلها وان تمدنها كان شرقياً لا رومانياً ولا يونانياً . وكأن التدمريين تشبهوا بقدماء المصريين في استبقاء مجدهم بعد موتهم فبنوا لانفسهم قبوراً كالقصور شادوها بالاحجار الهائلة في اكناف المدينة فكانت قبورهم مدينة اخرى سكانها من الاموات . ولو بُعث التدمريون بعد ذلك ببضعة قرون لرأوا قصورهم اشد وحشة من قبورهم

اشتهرت تدمر في اواسط القرن الثالث للميلاد بالملكة زينوبا فطمع بها الرومان في الغرب والفرس في الشرق وقامت الحرب بينهما سجالاً حتى تغلب الرومان فملكوها ولكنها لم تدم لهم ولا لغيرهم فلم يمر بها اجيال حتى اصبحت في زوايا الاهمال وتحولت قصورها الى خرائب وصارت هياكلها حجوراً للضب والحية واوكاراً للطير . ونعق على منابرها اليوم بدل خطابة الخطباء ووعظ الوعاظ

ولو عقل ابن زياد يوم اشرف على تلك الخرائب وعرف تاريخ تلك الآثار لعلم مصير الانسان وانهُ لا يبقى لهُ من مجدهِ الاَّ ما كسبت يداهُ من خير او احسان وقال مع الامام علي « ان الدنيا دار اولها عناء وآخرها فناء في حلالها حساب وفي حرامها عقاب من استغنى فيها فتن ومن افتقر فيها حزن » وتخجل لما ارتكبهُ هو وولي امرهِ من ضروب الاعتساف وهان عليهِ ان يطلق سراح اسيرتهِ شفقة على صباها ورحمة بما في قلبها من لوعة الحزن على حبيبها عبد الرحمن

ولكنهُ جهل ذلك او تجاهلهُ واندفع بتيار الشهوات ولم يزدد في تلك الخلوة الاَّ قسوة ولم يعد يصبر عن نيل بغيتهِ حتى يصل الكوفة فامر بحط الرحال ونصب الخيام فنصبوها على مرتفع يشرف على تلك الخرائب الناطقة وفيها بقايا الاسواق والمياكل والقصور والقبور . وامر ان يقيموا هناك يوماً كاملاً يستريحون فيهِ ثم يرحلون . وناخ

هودج سلمى في مكان منفرد عن معسكره بقرب هيكل الشمس . وشغل اعوانه بانزال الاحمال ومشى الى سلمى وكانت جالسة كئيبة تتأمل في حالها وتصبّر نفسها الى بلوغ الكوفة ولم يخطر ببالها ما نواه ابن زياد . فلما وصل خيمتها امر الخفر ان يبتعدوا فتعلوا فدخل واذا هي جالسة على بساط وقد اثر السفر والتعب والحزن في جسمها فهزلت وامتقع لونها ورقت وجنتاها وذبلت عيناها واصبحت العبوسة طبيعة فيها

الفصل السادس والسبعون

الفتك

فلما رأته داخلاً قرأت الشرّ في وجهه فاستعاذت بالله . وكأنه ادرك خوفها فتلطف في سؤالها عن حالها . فلم تجب . فقال لها « قومي يا سلمى واتركي الخيمة وادخلي هذا القصر وتأملي في صنعته »

فادركت انها اذا امتنعت ساقها بالعنف فسايرته ومشت حتى دخلت الهيكل فاعجبت بما رأته من سعته وارتفاع جدرانه وكثرة اساطينه . فان مساحته كانت نحو مئتي متر مربع وجدرانه من حجارة هائلة علوّها سبعون قدماً لا يزال معظمها قائماً . وفي صحن الهيكل اساطين ضخمة متشاخمة متراصة في صفوف متداخلة يزيد عدد الاساطين على مئة وخمسين اسطوانة ما عدا المتساقط والمنهدم

فلما رأت نفسها في تلك الخربة الهائلة مع ابن زياد وليس معهما ثالث ارتعدت فرائصها وتحققت وقوع المحظور . وكان الضعف قد تمكن منها ولم تعد تقوى على الدفاع فاصطكت ركبتاها وعجزت عن المشي فاسندت نفسها الى اسطوانة بجانبها حجر كبير جلست عليه وهي ترتعش . فادرك عبيدالله حالها فعمد الى الرفق بها فجلس الى جانبها وهو يحاذر ان يلمسها لئلاً تجفل وقال لها « اتعلمين يا سلمى انك وحيدة في هذا المكان وان حياتك بيدي ... ؟ واني نائل منك ما اريد ولو بلغ صراخك عنان السماء اذ ليس هنا من يسمع صوتك غير هذه الاحجار . وقد طالما تصحنكِ وانت تدافعينني وانا اعاملك باللين واللطف حتى طمحت الكأس وآن لك ان ترعوي . فما ضرّك لو اقلعت عن جهالتك واصغيت لنصيحتي واطعتني فتكونين زوجتي وانت تعلمين اني يد امير المؤمنين وسيفه الذي

يناضل بو وقد ولاني الكوفة والبصرة فاذا عقلت واطعتني كنت سيدة نساء الكوفة واذا شق عليك لعن ابي تراب فلا اكلفك لعنه . وانما اطلب اليك ان تصرحي بقبولك بي فاعطيك ما تريدين وتعيشي معي في نعيم يتمناه كثيرات من امثالك »

فظلت سلمى ساكتة

فقال لها « اراكِ ساكتة فهل سكوتك هذه المرة مثل سكوتك بالامس في دار الخليفة ام هو دليل على رجوعك الى الصواب . و يكفيني برهانًا على ذلك ان تعطيني يدك فاقبلها » قال ذلك ومد يده اليها

فلما سمعت كلامهُ ورأته يمد يده وقفت وتباعدت ولكنها شعرت بالضعف وتحققت انها اذا جافتهُ فعل بها ما يشاء ولا تقوى على دفعهِ . على ان نفسها لم تضعف مثلما ضعف جسمها فلم تتمالك عن المجافاة فلما دنت يدُ منها دفعتهُ وصاحت باعلى صوتها « اتغتنم ضعفي يا عبيد الله وتستبدُّ بي .. وتزعم اننا في خلوة لا يرانا فيها احد .. ؟ ألا تعلم ان الله يراك وهو قادر على اذلالك كما اذل بناة هذه القصور وكانوا ملوكًا فاصبحوا ترابًا ... ؟ خف من الله يا ابن زياد واشفق على ضعفي »

فقال لها « لقد اطلت بالي عليك كثيرًا واكثرت من الرفق بكِ حتى لم يبق مكان للصبر عندي .. فاعلمي انك واقفة بين الحياة والموت . فاذا رجعت عن غيك واطعتني حييتِ سعيدة مكرمة معززة والاَّ فاني اصليك الى هذه الاسطوانة ثم اطعنك بهذا الخنجر واتركك طعامًا لطيور السماء » قال ذلك واشار الى خنجرهِ

فعظم الامر على سلمى وغلب عليها اليأس وايقنت بدنو اجلها فبسطت كفيها الى السماء وصاحت باعلى صوتها « اني استجير بك يارب العالمين يا نصير المظلومين استجير بك من ظلم هذا الباغي الاثيم . فابعث عليهِ من لدنك من يأخذ بناصري وينقذني ... اشفق اللهم على فتاة لا ذنب لها الاَّ الانتصار لنبيك والغيرة على اهل بيتك الطاهرين ... »

الفصل السابع والسبعون

كلب الناسك

وكانت سلمى تكلم والصدى يدوي في تلك الخرائب وهمّ ابن زياد ان ينتهرها فاذا بكلب ينبح بين الاساطين ونبحهُ يقترب نحوهما . ولم تمضِ برهة حتى دنا الكلب واذا وهو اسود كبير فلما رأته سلمى علمت انهُ شيبوب كلب الناسك فاستغربت وجوده في تلك الخرائب ولم يكن عبيدالله اقل استغرابًا منها . اما الكلب فوثب على عبيدالله وهو ينبح نباحًا شديدًا دوى لهُ المكان دويًا عظيماً . فاستأنست بهِ وخيل لها انهُ جاءها بالفرج القريب

اما عبيدالله فلما رأى الكلب واثبًا عليهِ استلّ خنجرهُ وطعنهُ في ظهرهِ طعنة غاص بها النصل الى نصفهِ فعوى الكلب عواءً شديدًا من شدة الالم وانثنى مسرعًا حتى خرج من الهيكل

والتفت عبيدالله الى سلمى وقال « كأني بكِ قد استأنست بهذا الكلب وحسبتهِ فرجًا جاءك من ربك فهاقد قتلناه واذا بقيت على غيك الحقناك بهِ ومزجنا دمهُ بدمك » قال ذلك والخنجر بيدهِ والدم يقطر منهُ

فقالت « اغمد خنجرك في صدري وارحني من رؤيتك »

قال « سافعل ذلك بعد ان اتركك ساعة وحدك تستخيرين اجلك » قال ذلك وحلّ عمامتهُ وربط بها اكتافها من الوراء وشدها الى الاسطوانة وتناول نقابها وقيد بهِ رجليها وتركها مصلوبة مكشوفة الوجه وخرج وهو يقول « استخيري الله في نفسك وسأعود اليك بعد ساعة فاذا بقيت على وقاحتك اغمدت خنجري هذا في صدرك وتركتك بين هذه الخرائب طعامًا للغربان . واذا رجعتِ عن غيك سرتُ بك مكرمة الى الكوفة »

خرج عبيدالله وغادرها مصلوبة ثم من ضغط الوثاق فصغرت نفسها وعلمت ان العفة لا تصان الاّ اذا فديت بالروح ورضيت بالموت على خيانة ضميرها . ولكنها استثقلت ان يطول عذابها على غير طائل وودت لو انهُ اسرع في قتلها لتنجو من ذلك العذاب . ثم تذكرت شيبوبًا وشق عليها موتهُ في سبيلها على غير فائدة لها وعادت الى الافتكار في سبب مجيئهِ الى تلك الديار فلم تجد سببًا سوى انهُ رأى الركب مارًّا بالغوطة فلحق بهِ التماسًا للطعام

وظلت سلمى مصلوبة على تلك الاسطوانة وافكارها تائهة في عالم الخيال لا يحلو لها غير الافتكار بعبد الرحمن فلما تصورت موته هان عليها اللحاق به ولكنها استبطأت اجلها واستنكفت ان تموت على تلك الصورة وهي لم تنتقم له

الفصل الثامن والسبعون

الفرج القريب

وفيما هي غارقة في لجج الهواجس سمعت خربشة واتينًا ثم رأت شيبوبًا مسرعًا اليها وقد جمد الدم على جرحه وانسكب على كتفيه الى قوائمه . وقد فتح فاه واندلع لسانه وهو يلهث من التعب . فنادته سلمى فدنا منها وذيله لاصق بساقيه ثم القى نفسه بين رجلها وقد اخذ منه التعب مأخذًا عظيمًا واغمض عينيه ومدد رجليه وهو بين انين التزع

ولم تكد سلمى تتأملهُ وتأسف لحالهِ حتى رأت الشيخ الناسك بين يديها وهو يحل وثاقها باسرع ما يستطيعهُ الشاب فى عنفوان شبابهِ . فبغتت لرؤيتهِ ولم تنه بكلمة . وكانت حركاتهُ واشاراتهُ تشير اليها ان تسكت . فلما حلَّ الوثاق اومأ اليها ان تسرع امامهُ فاسرعت ثم حمل كلبهُ على ذراعيهِ وسار حتى سبقها فسارت في اثرهِ لا تنطق ببنت شفة . ولكنها استغربت ذلك الاتفاق وعدَّتهُ من قبيل المعجزات وكان الشيخ وهو سائر ينثر التراب على اثار الدم في الطريق حتى لا يستدل بها احد الى مكانهِ

وبعد مسير نصف ساعة بين الاحجار والعمدان وصلا الى باب ضيق انحدرا فيهِ على درجات غير منتظمة والكلب على ذراعي الشيخ وقبل الدخول عمد الشيخ الى حجر سدَّ بهِ الباب حتى لا يشك الذي يراه انهُ خالٍ مهجورٌ . ثم دخلا حتى اختفيا عن العيون ووصلا الى مصطبة تحت الارض لا ينفذ اليها النور الاَّ من خلال الباب . فجلس الناسك واجلسها و وضع الكلب بين يديهِ على المصطبة واخذ في البكاء والنحيب وهو يخاطبهُ وسلمى ساكتة تنظر الى ما يبدو منهُ فاذا هو يقول « أسفي عليك يا رفيقي وصديقي ... واحسرتاه عليك ايها الخادم الامين ... لقد خدمت حياتك بشهامة يعجز البشر عن مثلها ... انك حيوان اعجم ولكنك خير من الناطقين لانهم ينطقون بالباطل ويستخدمون تلك الهبة السامية لارتكاب المنكرات واتيان المعاصي وانت

لا تعرف غير الخير . صحبتك منذ بضعة عشر عاماً وانت رفيقي وانيسي ... صحبتك بعد ان مللت صحبة الآدميين وعرفت شرور بني الانسان ... ما ابلغ عجمتك وما اقبح نطقهم ! ... نعم انك حيوان عجم ولكنك انقذت نفساً ناطقة ... انقذت هذه النفس الطاهرة من منكر او شك ان يرتكبه فيها انسان يزعم انه ارقى منك خلقة واسمى عاطفة وهو لا يفضلك الاّ باقتداره على بث الدسائس ونصب المكائد ... قُتل الانسان ما اكبر دعواه واقلّ خيره ! . وهو يفتخر مع ذلك انه سيد المخلوقات ... ما صحبتك الاّ وانا عارف فضلك وناظرٌ خيرك ... ولكنني لم احزر سوء مصيرك . وما حسبت انك صائر الى الموت قبلي .....» قال ذلك وهو ينظر الى كلبه والكلب يتمطى ويختلج ويجول عينيه ويعاني عذاب النزع . وسلمى تنظر اليهما ولا تتمالك عن البكاء . وكان اكثر بكائها على ما اصابها من فقد حبيبها وقالت في نفسها « اذا كان هذا الشيخ يبكي كلبه لامانته وصدق مودته فكيف لا ابكي حبيبي وابن عمي وقد ذهب ضحية امانته في خدمة الحق »

الفصل التاسع والسبعون

فلسفة

وكان الشيخ يبكي ودموعه تنحدر على لحيته وتتدحرج حتى تنسكب على الكلب وتختلط بدمائه . ثم رفع الشيخ بصره الى سلمى وقال لها « لا تعجبي يا بنية لما ترينه من بكائي على حيوان اعجم فانه خير عندي من اولئك الآدميين ... ألا ترينه ذكر صحبته ومات في سبيل انقاذك؟ . ولكنه لم يمت رخيصاً ... انه ذكر صحبة يوم او يومين فلما اشتم رائحتك بين هذه الخرائب وكان نائماً الى جانبي نهض كالليث الكاسر واسرع اليك ثم عاد ودمه ينور من جرحه لشدة الطعنة وكأنه أشار اليّ ان الحقه فتبعته . وفيما انا مارٌ بين هذه الاساطين بصرت بذلك الرجل اللئيم خارجاً من الهيكل ولا عمامة على رأسه والخنجر بيده وهو يهم باغمادهِ . فلما اتيت اليك ورأيتك مصلوبة ادركت انه صلبك تهديداً فانقذتك والفضل لهذا الحيوان . الذي ترينه يقاسي غمرات الموت بين أيدينا ... فمن يفعل ذلك من الآدميين ... كم من رجل ترينه في حجرك وتطعمينه من

طعامك ثم يكون وبالاً عليك ؟ ....»

فتصورت سلمى احوال الشر ومظالم بني الانسان ومطامع اهل الشرور وكيف انهم يقربون الفضيلة على مذابح الاغراض فقالت «صدقت يا مولاي ان صحبة هذا الكلب خير من صحبة كثيرين ولكن القضاء نفذ فيه ولا عجب فتلك عاقبة اهل الفضل من المخلوقات الناطقة ايضاً ....»

فتنهد الشيخ وتغيرت سحنته وكانه افاق من غفلته والتفت الى الفتاة وعيناه تقدحان شرراً وقال «ويدلك ذلك على صدق ما وعد به ربك من العقاب والثواب ... والاّ فان الحياة ضرب من العبث لان العدل في هذه الدنيا غريب تأثه لا يعرف مأوى .. ولا ترى في اعمال الناس غير المظالم الفادحة . ترى الاشرار في رغد وهناء وسعادة والابرار يقاسون مر العذاب . وما كان ربك ليثيب الظالمين ... ستأتي ساعة تلقى فيها كل نفس ما كسبت ان خيراً وان شراً ... وويل للذين ظلموا من مشهد يوم عظيم ! ...»

فشعرت سلمى والشيخ يتكلم كأنه ينطق بلسان اهل السماء ولم تتمالك ان قالت «نعم ولا بد من ذلك .... كيف لا وقد رأينا خيرة الصالحين يقتلون باسياف الظلام وهؤلاء يعيشون في سعة وسلطان ... والله عادل ... فلا بد من يوم ينال فيه كل امرء ما كسبت يداه ...»

ثم سكتت كلاهما والشيخ يمسح دموعه ثم قال «هلم بنا ندفن هذا الصديق الامين فقد بكيناه وسنبكيه كلما لقينا شروراً» قال ذلك ونهض فحفر حفرة وكان الكلب قد مات فدفناه فيها وسلمى تتوقع ان تسمع من الشيخ خبراً . وتذكرت ما شاهدته من كراماته في دير خالد فقالت لعله ينبئني بشيء ينفعني . فلما عاد الى المصطبة همت بخطابه فاذا هو يفرك انامله بانامله وقد اطرق كأنه يفكر في امر هام ... فامسكت هي عن الكلام تهيباً واجلالاً . اما هو فقال لها «وما الذي جاء بك ياسلمى الى هذه الديار وقد كنت سمعت بمقتلك ...»

فلما سمعت قوله استغربت اطلاعه على سر قتلها ثم تذكرت ما تعلمه من كراماته فزال استغرابها وقالت «قتلوني يا سيدي ثم احيوني .. وياليتهم ابقوني ميتة لالقى حبيبي ..» قالت ذلك وخنقتها العبرات

فتهم الشيخ انها تحسب عبد الرحمن مقتولاً وهو يعلم انه حيّ . فاراد ان يستطلع فكرها

فقال « وهل قتلوا عبد الرحمن ؟ ... »

قالت « اتسألني عن قتله وانت اعلم مني بذلك وقد اوتيت الكرامة وعلم الغيب ؟ ... »

الفصل الثمانون

الكوفة

فصمت الشيخ واطرق وقد ادرك ان سلمى تظن عبد الرحمن قد قُتل . وحدثته نفسه ان يخبرها ببقائهِ حياً ولكنه رأى بقاءها على اعتقادها اقرب لنيل ما يتمناه وما قد عقد النية عليهِ منذ نذر النسك فظلَّ صامتاً وهو يتردد بين ان يطلعها على بقاء حبيبها حياً او ان يسكت عن ذلك

اما هي فسحت دموعها وقالت « ولكنني لا اعلم ما جرى لعامر ... هل علم يا ترى بما اصاب عبد الرحمن وما اصابني ... واين هو الآن ؟ ... »

فتجاهل الشيخ برهة ثم قال « لاشك انه علم بمقتلهِ وهو يعتقد انك قتلت ايضاً ولا ادري اين هو فلعلهُ سار الى المدينة او الى الكوفة ولا يبعد انهُ قتك بنفسهِ يأساً واسفاً »

فلطمت وجهها وقالت « وا أسفاه عليك يا عماه واحسرتاه على آمالك ويا لخسارة ما قضيتهُ من سني الشقاء في خدمتنا ... اني لا الومه اذا قتل نفسه ... »

فاراد الشيخ ان يشغلها عن البحث في مسألة عبد الرحمن فسألها عن كيفية نجاتها فقصت عليهِ الحديث من اولهِ الى آخره ثم قالت « وها اني نجوت من الموت وانا اشتهيهِ الاَّ اذا كان في بقائي خدمة للمسلمين . فالآن اما ان تقتلني وتدفني في هذه الخرائب او ترشدني الى سبيل للانتقام ... الانتقام ... الانتقام ... »

فقال لها « أتريدين الانتقام ؟ .. »

قالت « كيف لا اريدهُ وهو وحده يحبب اليَّ البقاء والاَّ فاللحاق بحبيبي عاجلاً اشهى لدي »

قال « اذا كنت تطلبين الانتقام فانك تلقينه في الكوفة »

قالت « لا ابالي ابن هو ولا كيف هو وانما انا اريد الحياة من اجلهِ فاذا قتلتُ يزيدًا وابن زياد اورأيتهما مقتولين ثم متُّ فان في ذلك الموت حياة لي »

قال « اعلمي يا بنية ان الحسين ارسل ابن عمهِ مسلم بن عقيل الى الكوفة ليدعو الناس الى بيعتهِ هناك فبايعهُ منهم نحو ثمانية عشر الفًا [1] فاذا جاء الحسين الى الكوفة تمت البيعة لهُ فيقتل ابن زياد فيقتلونهُ ثم يسيرون الى الشام فيحاربون يزيدًا ويقتلونهُ ايضًا »

ولم يتم الشيخ كلامهُ حتى اشرق وجه سلمى من الفرح وقالت « آه .. ياحبذا ذلك ... هل اراه ولو في المنام ؟ .. هل اقتل يزيدًا ؟ .. هل اقتل ابن زياد ؟ .. اني اريد ان اقتلها بيدي ... ولكن قل لي ياعماه هل عرفت ذلك يقينًا ؟ .. »

قال « اني أقول الصحيح الذي لا ريب فيهِ فامكثي معي هنا بضعة ايام ريثما ينصرف هؤلاء القوم الى الكوفة ثم نلحق بهم ومتى وصلنا الكوفة انبئك بما سيكون »

اما ابن زياد فانهُ ترك سلمى مصلوبة وهو لا يشك انها لا تلبث ان تذعن لهُ وتخاف بطشهُ . فلما عاد الى الهيكل ورأى بقايا الوثاق ولم يرَها غاب رشدهُ . واخذ يبحث عنها بين الاساطين في الهيكل وخارجهُ وارسل رجالهُ ينتشون في كل مكان فلم يقفوا لها على اثر . وما زال في البحث يومين حتى ملَّ ولامهُ رفاقهُ على التأخير والحالة تقضي بسرعة المسير لتدارك ما ألَّم باهل الكوفة من الخوف على البيعة هناك . فحمل احمالهُ وسار يلتمس الكوفة وهو يلتفت وراءهُ ولا يصدق ان سلمى خرجت من يدهِ على تلك الصورة . ولو أطاعهُ رفاقهُ لما خرج من تدمر قبل الوقوف على مكان سلمى ولو ادى بهِ ذلك الى نقد احجار تلك الخرائب حجرًا حجرًا

وكان اهل الكوفة قبل وصولهِ قد لقوا مسلم بن عقيل وبايعهُ منهم جمعٌ غفير وضعف امر الامويين . وكان عبيد الله بن زياد اولاً في البصرة [1] فحرض اهلها على الطاعة . ثم جاء الكوفة واهلها قد تشيع معظمهم الى الحسين واصبحوا ينتظرون قدومهُ ليبايعوهُ ويولوهُ امرهم . فلما سمعوا بان يزيدًا ولى عبيدالله رجوا ان يصل الحسين قبلهُ لتكون الولاية لهُ . اما عبيد الله فبالقدر المحتوم وصل الكوفة قبل الحسين فدخلها وحدهُ وعليهِ لباس الامراء . فكان لا يمر بمجلس اوجماعة الاَّ ظنوه الحسين فيقولون « مرحبًا بك يا ابن رسول الله » وهو لا يكلمهم . وخرج اليهِ الناس من دورهم . فساءهُ ما رآهُ من

(١) ابن الاثير ج ٤

ترحابهم بالحسين . حتى وصل دار الامارة (القصر) وفيها النعمان بن بشير اميرها السابق والنعمان يحسبهُ الحسين فاغلق الباب في وجهو وقال لهُ « انشدك الله ألا تنحيت عني .. فوالله ما انا بمسلّم اليك امانتي . ومالي في قتالك حاجة » فدنا منهُ وقال لهُ « افتح لا فتحت » فلما سمع النعمان صوتهُ عرفهُ وفتح لهُ وصعد عبيد الله المنبر وخطب في الناس فقال « اما بعد فان امير المؤمنين ولاّني ثغركم ومصركم وفيئكم وامرني بانصاف مظلومكم واعطاء محرومكم وبالاحسان الى سامعكم ومطيعكم و بالشدة على مريبكم وعاصيكم . وانا متبعٌ فيكم امره ومنفذٌ فيكم عهده . فانا لمحسنكم كالوالد ولمطيعكم كالاخ الشقيق . وسيفي وسوطي على من ترك امري وخالف عهدي فليبق على نفسو » [1] ثم نزل وجعل يهتم في ارهاب اهل الكوفة وردهم الى الطاعة بما عرف بو من الدهاء . واهل الكوفة ضعفاء سريعو الانقلاب [2]

الفصل الحادي والثمانون

كربلاء

اما ما كان من سلمى والشيخ فانهما بعد ان تحققا مسير ابن زياد من تدمر خرجا وسارا يلتمسان الكوفة من طريق غير الذي سار هو فيو وكان سيرهما بطيئاً لانهما ماشيان والطريق وعر وفيو خطر

وبعد ايام اشرفا على الكوفة من تل وقد تعبا تعباً عظيماً . فاستراحا يوماً وسلمى لا تصبر عن النزول الى الكوفة فلما عزما على ذلك قال الشيخ « اعلمي يابنية اني عاهدت الله ان لا اقيم في المدن ولا اسكن العمارة فانزلي الكوفة وحدك »

فبغتت سلمى وقالت « وكيف العمل يا مولاي وابن نقيم ؟ »

قال « اما انتِ فاذهبي الى ذلك البيت في طرف الكوفة ... هل ترينهُ ؟ »

قالت « نعم »

قال « انهُ بيت امرأة كندية مثلك اسمها طوعة وكانت جارية للاشعث واعتقها ثم

(١) ابن الاثير ج ٤ (٢) نهج البلاغة

تزوجها رجل آخر وولدت منه اولاداً اسم احدهم بلال .. هل تعرفينها ..؟ »[1]

قالت « نعم أذكر اني رأيتها في اثناء اقامتي بالكوفة واظنها تعرفني »

قال « اذهبي اليها واقيمي عندها وانا اتردد اليكِ في منزلها ونرى ما سيكون من الامر ... »

فقالت « وانت اين تقيم ... »

قال « اما انا فاني ذاهب الى سهل صغير في طرف البرية وراء الكوفة من جانب الفرات اسمه كربلاء.[2] فاذا احتجتِ اليَّ فانك تجدينني هناك »

قالت « لا تنسني من دعائك وانِي داخلة الكوفة وقلبي متنعش بالآمال وعسى ان يفتح الله علينا ونفرج كربنا ونرى الحق سائداً »

قال « وانا ارجو ذلك » ثم ودعها ومضى وفي خاطره ان يزيدها اطمئناناً فيطلعها على حقيقة حال عبد الرحمن . لكنه اجلّ ذلك الى فرصة اخرى مخافة ان تشتغل به فتسير الى عبد الرحمن بمكة وهو يرى الكوفة اوسع مجالاً للانتقام

فمشت سلمى حتى دخلت الكوفة كأنها فتاة من فتياتها عائدة من الاحتطاب او الاستقاء . ومرت في الازقة فرأت الناس في هرج وسمعت بعضهم ينادون « يا منصوراً مت » وآخرين يلعنون ابن زياد[3] فاستبشرت بنغمة الناس عليه ولكنها أحبت استطلاع الواقع فعوّلت على الاستفهام من طوعة

وبعد قليل وصلت الى دار طوعة فرأت المرأة جالسة في الباب وحدها فحيتها فلما عرفتها رحبت بها واستقبلتها . وكانت قد عرفتها قبل سفرها الى دمشق فسألتها عن عامر وعبد الرحمن فاجابتها جواباً مبهماً وكظمت ما في نفسها وادخلتها طوعة الى البيت وقدمت لها الطعام فاكلت منه شيئاً واستراحت ولم يبق لها صبر عن استطلاع الخبر فقالت « ما بالي اري اهل الكوفة في هرج ومرج ؟ ما الذي اصابهم ؟ وما معنى ما سمعته من اقوالهم يا منصوراً مت »

فاشارت طوعة اليها ان تخفض صوتها ثم قالت « العلك كنت غائبة عن الكوفة »

قالت « كنت في البصرة ولم اعد الاّ في هذا النهار »

قالت « واهل البصرة لا يجهلون ما اصابنا لانهم شركاؤنا في الامر .. »

قالت « سمعت بانتفاض اهل الكوفة على الخليفة الجديد ومبايعتهم للحسين بن علي

(١) ابن الاثير ج ٤ (٢) مراصد الاطلاع ج ٤ (٣) ابن الاثير ج ٤

على يد ابن عمو مسلم بن عقيل . ولكنني سمعت الناس يلعنون ابن زياد لانهُ تولى الامارة على ان يقاوم المبايعين ولم افهم شيئاً غير ذلك . . »

الفصل الثاني والثمانون

هانيء بن عروة

قالت « اعلمي يابنية ان مسلم بن عقيل لما جاء الكوفة نزل في دار المختار بن ابي عبيد وامير الكوفة يومئذٍ النعمان بن بشير وهو رجل ضعيف . فجعل مسلم يدعو الناس الى بيعة الحسين فبايعهُ جمع كبير حتى خاف الامويون ان يخرج الامر من ايديهم . وانت تعلمين ان الحسين لو جاء الكوفة لا يبقى احدٌ لا يبايعهُ . فلما رأى الامويون ذلك بعثوا الى يزيد في دمشق فولى عليهم عبيد الله بن زياد وهو داهية مثل ابيهِ كما لايخفى عليك . . »

فتنهدت سلمى وقالت « كيف لا اعرفهُ وهو الذي قتل والدي رحمهُ الله . . . »

قالت طوعة « فلما جاء ابن زياد الكوفة دخلها وحده فلم يشك الناس انهُ الحسين . ثم ما لبثوا ان عرفوهُ فدخل دار الامارة وخطب في الناس وحرضهم على مقاومة شيعة الحسين ولكي يتم لهُ ذلك مع قلة اشياعهِ بعث الى العرفاء (مشايخ الحارات) فجمعهم وامرهم ان يكتبوا اليهِ اسماء من في ارباعهم من شيعة الحسين وشدد في ذلك حتى تهددهم بالصلب والقتل . فلما سمع مسلم بما نواه ابن زياد خرج من دار المختار ونزل في بيت هانيء بن عروة المرادي وهو رجل ذو وجاهة . . »

فقطعت سلمى كلامها وقالت « اني اعرفه »

فقالت طوعة « فلما جاء مسلم الى هانيء خاف هذا ان يقبلهُ في داره لما سمعهُ من تشديد ابن زياد في طلبهِ . فقال لهُ مسلم اتيتك لتجيرني وتضيفني . فلم يعد هانيء يستطيع ردّهُ فقبلهُ بالرغم عنهُ . فصارت الشيعة تختلف اليهِ في دار هانيء . فبلغ ذلك ابن زياد من بعض الجواسيس فاراد ان يحتال في الدخول على هانيء ليحقق الامر . ثم مرض هانيء بن عروة فبعث ابن زياد اليهِ انهُ قادم لعيادتهِ . فقال بعض

الحضور من الشيعة ها ان هذا الطاغية قادم بين ايديكم فاقتلوه وانقذوا المسلمين من شره ... »

فبهتت سلمى عند ذلك وصارت تتوقع ان يقتلوه لانها فرصة ثمينة لو اغتنموها — ولكنهم اضاعوها فضاعت بضياعها كل مساعيهم .. وكم من غلطة صغيرة يتوقف عليها خراب كبير ....

فاستطردت طوعة كلامها وقالت « فلما اقترح ذلك الرجل قتل ابن زياد اعترض هانئ بانهُ لا يريد ان يُقتل امير الكوفة في داره . فجاء ابن زياد فعاده وخرج سالمًا »

فصاحت سلمى « يالله الخسارة ويالله الضعف ... آه ما اضعفهم ... »

فقالت طوعة « انهم ضعفاء يابنية ولكن ذلك امر الله ... فاصبح هم ابن زياد ان يقبض على هانئ ويستنطقهُ . فبعث اليهِ ان يأتيهُ في قصره فاعتذر هانئ بالمرض فأنح عليهِ وبعث اليهِ رجلاً استقدمهُ بالحيلة . فلما وصل هانئ الى دار الامارة احس بالشر . ولكنهُ دخل ووقف بين يدي ابن زياد فقال لهُ هذا « يا هانئ . ما هذه الامور التي تربص في دارك لامير المؤمنين ؟ ... جئت بمسلم بن عقيل فادخلتهُ دارك وجمعت لهُ السلاح والرجال وظننت ان ذلك يخفى علينا ؟ ... » فانكر هانئ في بادىء الرأي وهو لا يظن امرهُ معلومًا عند ابن زياد . فاراه ابن زياد الرجل الذي كان جعلهُ عينًا عليهِ . فحنق هانئ انهُ مطلع على جلية الامر فقال « اسمع مني وصدقني فوالله لا اكذبك . والله ما دعوت ابن عقيل ولا علمت بشيء من امره حتى رأيتهُ جالسًا على بابي يسألني النزول عليَّ فاستحييت من رده ولزمني من ذلك زمام فادخلتهُ داري وضفتهُ وقد كان من امره الذي بلغك . فان شئت اعطيتك الآن موثقًا تطمئن بهِ ورهينة تكون في يدك حتى انطلق واخرجهُ من داري واعود اليك » فلم يقنع ابن زياد باخراج مسلم من دار هانئ بل طلب اليهِ ان يأتيهُ بهِ الى القصر . فقال هانئ « لا آتيك بضيفي لتقتلهُ ابدًا ولهُ عليَّ حق الضيافة وهو في ذماتي » فتوسط بعض الحضور في اقناع هانئ ان يأتي بمسلم ولا خوف عليهِ فلم يقنع حتى قال « لا ادفع ضيفي وانا صحيح شديد الساعد كثير الاعوان . والله لو كنت واحدًا ليس لي ناصر لم ادفعهُ حتى اموت دونهُ »

فصاحت سلمى عند سماعها ذلك « لا فضَّ فوك يا ابن عروة هذه هي رعاية الذمام »

فقطعت طوعة كلام سلمى وقالت « اسمعي يا حبيبتي ما كان من عاقبة تلك الرعاية فان ابن زياد لما سمع كلام هانئ قال ادنوهُ مني . فادنوهُ . فاعاد التهديد عليهِ . فلما لم

بطعهُ تناول عبيد الله عكازًا كان في يد بعض رجالهِ وامر واحدًا فامسك هانئًا بضفيرتيهِ وهوى عبيد الله عليهِ بالقضيب ولم يزل يضرب انفه وجبينه وخدهُ حتى كسر انفه وسيل الدماء على ثيابهِ وتثر لحم خديهِ وجبينهِ على لحيتهِ حتى انكسر القضيب. واراد هانئ ان يدافع عن نفسهِ فمد يدهُ الى قائم سيف شرطي كان واقفًا بجانبهِ فمنعه منه. وامر عبيد الله بهِ فأُلقي هانئ في حجرة وأُغلق عليهِ ...»

فلطمت سلمى كفًا بكف وقالت «وماذا فعل رجالهُ واهلهُ وعشيرتهُ؟»

قالت طوعة «بلغ عشيرتهُ انه قُتل فجاؤا واحاطوا بالقصر وفيهِ ابن زياد ورجاله فخاف ابن زياد منهم وسالهم عما يريدونه فقالوا انك قتلت هانئًا. فهان عليهِ التخلص لان هانئًا لا يزال حيًا. فاستشهد شريحًا القاضي وكانوا يعتمدون بصدقهِ. فقال له عبيدالله ادخل على هانئ واخبرهم انه حي. فدخل وعاد فاخبرهم انه حي فانصرفوا»

فصاحت سلمى «يا للفشل ماذا اصاب الناس ...»

فقالت «تمهلي يا سلمى انك ستسمعين مايسرك وفيهِ الفوز والنجاة ان شاء الله وذلك انكِ سالتني عن معنى قولهم «يا منصورًا مت» فاعلمي يا بنية ان هذه العبارة هي شعار انصار الحسين ينادون بها بعضهم بعضًا[1]. واما سبب الهرج الذي رايتهِ فان مسلمًا لما علم بما اصاب هانئًا نهض ونادى رجالهُ بذلك الشعار حتى اجتمع حوله ثمانية عشر الفًا من كندة ومذحج واسد وتميم وهمدان واهل المدينة ولكل عشيرة من هؤلاء ربع. فعقد على كل ربع لقائد وساروا في هذا الصباح حتى احاطوا بالقصر. وليس مع ابن زياد في القصر الآ ثلاثون رجلاً. وهو الآن في ضنك شديد ولا اظن مسلمًا الآ فائزًا»

فتهلل وجه سلمى وابرقت اسرتها وبان الاهتمام على وجهها وقالت «يارب يا كريم ... انصر قومك ...» قالت ذلك ونهضت تريد الخروج

فامسكتها طوعة وقالت «الى اين تذهبين»

قالت «دعيني امضي وارى ما سيكون من امرهم»

فقالت «تمهلي واقعدي فانك فتاة ولا آمن عليكِ الضوضاء»

(١) ابن الاثير ج ٤

الفصل الثالث والثمانون

الفشل الجديد

وفيما كانت سلمى تحاول الخروج سمعتا وقع اقدام بباب الدار . فتغير وجه المرأة وخفق قلبها وليس في بيتها رجال . فاشارت الى سلمى ان تمكث وخرجت هي الى الباب فرأت رجلاً واقفاً والبغتة والكآبة ظاهرتان على وجهه . فسالته عما يريد

فقال « اسقني الماء »

فقدمت له كوبة شربها وجلس . فقالت له « يا عبد الله ألم تشرب ؟ »

قال « بلى »

قالت « فاذهب الى اهلك »

فمكث

فقالت له ثلاثًا ان يذهب . فلم يبرح المكان

فقالت « يا سبحان الله ؟ .. اني لا احلُّ لك الجلوس على بابي »

فقال لها « اني غريب وليس لي في هذا المصر منزل ولا عشيرة فهل لك الى أجرٍ معروف ولعلي اكافئكِ به بعد هذا اليوم »

قالت « وما ذاك ومن انت »

قال « انا مسلم بن عقيل كذبني هؤلاء الاقوام وغروني »

وكانت سلمى واقفة تنصت فلما سمعت قولهُ اختلج قلبها في صدرها واسرعت الى الباب . فلما وقع بصرها عليهِ عرفتهُ وكانت قد رأتهُ قبل ذلك الحين في المدينة . فارادت ان تستعطف طوعة في قبولهِ فاذا هي قد دعتهُ من تلقاء نفسها ان يدخل

فدخل مسلم وسيفهُ تحت عباءتهِ والبغتة والتعب قد أثرا في سحنتهِ . فعرضت عليهِ العشاء فلم يتعشَ

فوقفت سلمى بين يديهِ وقد ارسلت نقابها على رأسها ونرقرقت الدموع في عينيها وقالت « ما الذي اصاب قومك يا مولاي ؟ .. »

فتنهد مسلم وكادت العبرات تسبق كلامهُ وقال « دعيني يا اخية ولا تسألي عن قومي فقد قلت لكما ان لا قوم لي ولا عشيرة في هذه المدينة »

فقالت طوعة « ولكنني سمعت في هذا الصباح انك جمعت ثمانية عشر الفاً واحطتم بقصر ابن زياد وهو ليس عنده الاّ ثلاثون رجلاً فما الذي جرى بقومك ؟ .. »

قال وهو يحرق اسنانه « لقد تفرقوا عني »

قالت سلمى « وكيف تفرقوا وما الذي حملهم على هذا التفرق وهم كثار »

قال « لا تسأليني عن القضاء اذا وقع . ولكن اهل الكوفة قومٌ لا يركن اليهم وقد اخطأنا بالاعتماد عليهم بعد ان سمعنا عمي الامام علياً كرم الله وجهه يخاطب اهل العراق بقوله « اخلاقكم دقاق وعهدكم شقاق ودينكم نفاق وماؤكم زعاق . المقيم بين اظهركم مرتهن بذنبه والشاخص عنكم متدارك برحمة من ربه »[1] فقد غرني من هؤلاء الاقوام ما رأيت من اقبالهم على بيعة الحسين حتى تكاثر عددهم . فلما دعوتهم في هذا الصباح اجتمعوا وتجندوا حتى قلت « تولينها يا ابن بنت الرسول » ولكن ابن مرجانة (ابن زياد) داهية مثل ابيه فلما رأى رجالنا محيطين بقصره وقد امتلأ المسجد والسوق بالناس وسمع جلبة يسبونه ويسبون اباهُ دعا بعض رجاله وفيهم من اشراف القبائل وامرهم ان يخرجوا الى الاسواق ويخذلوا الناس بالتهديد والوعيد او بالوعد والتمني . واطمعهم بالمال ونحوه . فخرجوا يخذلون الناس . وامر آخرين ان يشرفوا من نوافذ قصره علينا ويؤمنوا اهل الطاعة ويخوفوا اهل المعصية فاشرفوا علينا وجعلوا ينادون بالامان لمن اطاع وبالشر لمن عصا . فما شعرت الاّ والناس يتفرقون عني حتى لم يبقَ معي منهم الاّ ثلاثون رجلاً فدخلنا المسجد . ثم رأيت في البقاء هناك خطراً على حياتي فخرجت متوجهاً لا ادري الى اين اصير حتى وصلت هذه الدار . وانا لا ابالي الآن اموت او احيا ولكني اخاف على ابن عمي الحسين لاني كتبت اليه بالحضور واظنهُ قادماً وهو بحسب اهل الكوفة جميعهم على دعوته وهم على ما رأيتم فيه من الضعف . » ثم تنهد وقال « والله ان عبد الله بن مطيع قد نصح لنا ان لا نقرب الكوفة وقد قال للحسين لما خرج من المدينة « جعلت فداءك اين تريد » قال « اما الآن فمكة واما بعد فاني استخير الله » قال « خار الله لك وجعلنا فداءك فاذا اتيت مكة فاياك ان تقرب الكوفة فانها بلدة مشؤمة بها قتل ابوك وخذل اخوك واغتيل بطعنة كادت تأتي على نفسه . الزم الحرم فانك سيد العرب لا تعدل بك اهل الحجاز احداً ويتداعى اليك الناس من كل جانب . لا تفارق الحرم فداك عمي وخالي فوالله لئن هلكت لنفترقن بعدك » فما كان اجدرنا ان نصغي لقوله ولكن قد ينفد السهم ولا خيرة في الواقع »

---

(١) نهج البلاغة ج ١

وفيما هو يتكلم دخل شابٌ في مقتبل العمر لم تعرفهُ سلمى ولا مسلم اما طوعة فاسرعت الى استقباله وهي تريد ان تخفي امر مسلم عنه . وكان ذلك الشاب ابنها بلالاً فلم يسكت عنها حتى اخبرته بخبر مسلم وطلبت اليهِ ان يكتم امره واخذت عليهِ الايمان بذلك . فسكت ولكنهُ اضمر السوء . وبات تلك الليلة ومسلم هناك . واما سلمى فانها باتت منقبضة النفس وقد اسقط في يدها وتحققت الفشل فتكررت في ما ينبغي لها ان تفعله فعوّلت على ان تسعى اولاً في سلامة الحسين بان تسير بالاقاتهِ في الطريق وتقص عليهِ الخبر وترجعه عن الكوفة حتى يقضي الله بما يشاء

الفصل الرابع والثمانون

الدفاع

ولما اصبح الصباح افاقت طوعة ولم تجد ابنها فظنته خرج لعملهِ . وافاق مسلم فجاءته سلمى وعرضت عليهِ ان تسير هي بنفسها لابلاغ الحسين الخبر . فاعجب بحميتها وغيرتها وقال لها « والله لو ان في رجالنا عشرة مثلك ما اصابنا ما اصابنا بورك فيك يا بنية اننا اذا احتجنا الى ارسالك ارسلناك . ولكنني لا ارى فائدة من بقائي هنا فاذهب بنفسي »

فتنهدت سلمى وتذكرت مصائبها وما ألم بحبيبها في سبيل ذلك الامر فغلب عليها الحزن ولكنها تجلدت وعادت الى تشجيع مسلم وهو يعجب بشهامتها وغيرتها على الاسلام

ولم تمض برهة حتى سمعوا وقع حوافر حول الدار وعلت الضوضاء فاجفل مسلم وامتقع لونه . فلما رأت سلمى ذلك فيهِ خرجت تنظر ما الخبر . فرأت فرساناً ورجالة يزيد عددهم على السبعين وفي مقدمتهم فارس شاكي السلاح وعليهِ الدرع فعلمت انهُ زعيم القوم فلما استقبلتهم صاح فيها الفارس قائلاً « ابن مسلم فليخرج الينا الساعة »

فقالت « وما ذا تريدون منه »

قالوا « مالك ولهذا التطفل .. ابن مسلم بن عقيل »

فلما سمع مسلم صوت الرجل الذي يناديهِ جرد حسامهُ وهجم عليهِ وقال « ما بالكم ماذا تريدون ؟ .. »

فصاح فيهِ الفارس « تعال معنا الى الامير »

فقال « خسئتم انتم وامركم » وهجم عليهم بسيفه حتى اخرجهم من الدار وقتل واحداً منهم . فتناولت سلمى سيف الرجل المقتول وشدت وسطها وهجمت وهي تفضل الموت بعد ذلك الفشل لكي تلحق بحبيبها وكان ابن عقيل ينظر اليها ويعجب بجهدها ويقول لها ارجعي يا سلمى ارجعي ما لك ولهذا الخطر »

اما هي فلم تصغ له فضربت ضربتين ثم سمعت ابن عقيل يصيح « قتلوني قتلهم الله » فالتفتت واذا بسيف اصاب فمهُ فقطع ثنيتهُ العليا وسقطت ثنياه لكنهُ لم يقتل . فهجم هو على الضارب فضربهُ على رأسهِ وثنى باخرى على العاتق كادت تطلع على جوفهُ وسلمى تناضل معهُ . فلما رأى القوم ذلك اشرفوا على سطح البيت وجعلوا يرمونهُ بالحجارة ويلهبون النار في القصب ويلقونها عليهِ . فلما رأى مسلم ذلك خرج من الدار بسيفهِ وهو يقول

افسمت لا اقتل الاّ حرا * وان رأيت الموت شيئاً نكرا
او يخلط البارد سخناً مرا * رد شعاع الشمس فاستقر
كل امرئ يوماً يلاقي شرا * اخاف ان اكذب او اغرا[1]

وخرجت سلمى وقاتلاهم في السكة فصاح رئيس القوم بابن عقيل « لا تكذب ولا تخدع ان القوم بنو عمك وليسو بقاتليك ولا ضاربيك » وكان مسلم قد اثخن بالحجارة وعجز عن القتال فاسند ظهرهُ الى حائط تلك الدار وقد ضعف ولم يعد يستطيع قتالاً فجاءهُ سيد القوم وهو محمد بن الاشعث فحملهُ على بغلة وأمّنهُ على حياتهِ فالتفت مسلم الى سلمى فاذا هي لا تزال تكافح والنار قد لعبت في ثيابها فاراد ان يخاطبها فحملوهُ وساروا بهِ وهو يفكر في تلك الفتاة لانهُ لم ير مثلها في حياتهِ

الفصل الخامس والستون

مقتل ابن عقيل

وما زالوا سائرين بهِ حتى جاؤا القصر واوقفوهُ عند بابهِ فرأى هناك جرة ماء بارد فقال اسقوني من هذا الماء

---

١ ابن الاثير ج ٤

فقال له واحد منهم « اتراها ما أبردها والله لاتذوق منها قطرة حتى تذوق الحميم في نار جهنم »

فقال له « ومن انت »

قال « انا من عرف الحق اذ تركتهُ ونصح الامة والامام اذ غششتهُ وسمع واطاع اذ عصيتهُ انا مسلم بن عمرو »

فقال لهُ مسلم بن عقيل « لأمك الثكل ما اجفاك واقظك واقسى قلبك واغلظك انت يا ابن باهلة اولى بالحميم والخلود في نار جهنم مني »

ثم جاء رجل فصب ماء واعطى مسلم فشرب ثم نظر في القدح فاذا هو قد امتلأ بالدم

وامر ابن زياد بمسلم فاصعدوه الى اعلى القصر فضربت عنقهُ ثم اخرجوا هانئًا وقتلوهُ ولم يبال ابن زياد بعهده الذي اعطاه لهانئ ولا لمسلم باستبقائهما

لا شك ان عملهُ هذا يدلُّ على قسوة وغدر ولكنهُ باعتبار الغرض المراد منهُ يعدُّ حزمًا ودهاء لان الدول في اول نشأتها لا يتأيد استقلالها وتنجو من الدعاة والمطالبين الاَّ اذا صمَّ اصحابها آذانهم عن نداء الضمير وحصروا نظرهم في مصالحهم الخصوصية . وفي التاريخ حوادث كثيرة تشهد بصحة ذلك :

فلو لم يغدر ابو جعفر المنصور ثاني الخلفاء العباسيين بابي مسلم الخراساني ويقتلهُ غيلة لم تثبت الدولة العباسية وابو مسلم هو الذي اقام دعائم تلك الدولة وسلمها الى العباسيين . ويقال نحو ذلك في نكبة البرامكة فان الفتك بهم يقتضي قسوة وغدرًا ولكنهُ نجى الدولة العباسية من خطر عظيم . والسلطان سليم الفاتح العثماني لو لم يقتل طومان باي آخر سلاطين المماليك لم يخلص لهُ الملك وكان قبل ان قتلهُ قد اكرمهُ وقربهُ حتى اذا استطلع كل ما يحتاج الى معرفتهِ من احوال البلاد وخراجها وادارتها امر بهِ فشنقوهُ على باب زويله

ولو لم يفتك محمد علي باشا بالمماليك في قلعة القاهرة كما هو مشهور لم يأمن غائلتهم مع انهم كانوا قد سلموا لهُ واخلدوا الى السكينة . ولكن بقاءهم في اعتباره كان يدعو الى الخطر على استقلالهِ فقتلهم بالمكيدة . ولا خلاف في انهُ غدر بهم وقد لامهُ كثيرون . واما عذره عند نفسهِ فهو انهُ امن الفتنة وايد استقلالهُ . وقد روى بعض معاصريهِ انهُ لما امر بقتلهم كان جالسًا في شرفة قصرهِ بالقلعة فلما بدأت المذبحة

تحول الى الداخل وقد امتقع لونهُ كأنهُ شعر بعظم الامر ولكنهُ مضطرّ الى ارتكابهِ بحكم الضرورة والاّ فانهُ يعرض دولتهُ للسقوط

على ان مثل هذه الاعمال لا يستطيعها الاّ رجال يسمونهم بلغة السياسة « عظماء » وفي الواقع ان الصبر على قتل الابرياء لا يتوى عليهِ الاّ ذوو الارادة القوية والمطامع الكبيرة وهؤلاء هم مؤسسو الدول في الغالب

لا يزال المؤرخون يؤاخذون بونابرت لما ارتكبهُ في قتل حامية يافا وهم اربعة آلاف رجل اشداء سلموا انفسهم الى احد قوادهِ على ان يستبقيهم . فلم ير بونابرت راحة في استبقائهم . فامر بقتلهم رميًا بالرصاص مخافة ان يكونوا عثرة في سبيل فتوحه . وعلى هذا المبدا كان سلاطين آل عثمان يقتلون اخوتهم فرارًا من الفتنة . وعندنا ان اسماعيل باشا الخديوي الاسبق كان من اولئك العظماء . وكذلك كان معاوية ابن ابي سفيان وكان عندهُ « جند من العسل » . ولم يحبط مسعى الامام علي في امر الخلافة الاّ لمراعاتهِ واجبات التقوى وسلامة الضمير

واخيرًا لو تمثل هاني بن عروة باولئك الرجال العظام وخرق حرمة الجوار واذن بقتل ابن زياد يوم عاده في منزلهِ لتبدل وجهُ المسألة وتحولت مجاري التاريخ حتى آلت الخلافة الى اهل البيت . ولكن لله حكمة لا تدركها العقول

فلنرجع الآن الى سياق الرواية — فان سلمى لما تحققت فشل مسلم ورأت الدم في وجههِ تذكرت مقتل حبيبها فهاجت عواطفها واستهلكت وصارت تحارب بينها وتناضل مناضلة الابطال كما تقدم ولولا النار التي اتصلت بها ولحقت بشعرها لم تكف عن الضرب

فلما انصرفوا بمسلم اسرعت طوعة الى سلمى فاطفأت شعرها ونقابها وحملتها الى الفراش وهي غائبة عن الدنيا . فرشتها بالماء حتى افاقت ولم تصب بسوء

فلما افاقت صاحت « ابن مسلم ابن ابن عم الحسين »

فقالت طوعة « قد حملوهُ الى القصر »

قالت « وماذا يفعلون بهِ هناك ؟ ... اظنهم قاتليهِ لا محالة قبحهم الله ما أقسى قلوبهم »

فجعلت طوعة تخفف عنها ولم يمض النهار حتى سمعت بمقتل مسلم فانصدع قلبها عليهِ وفكرت في امرها فرأت البقاء لا يجديها نفعًا وتذكرت الشيخ فهمت بالمسير اليهِ

الفصل السادس والثمانون

سلمى والناسك

واصبحت سلمى في اليوم التالي وخرجت من بيت طوعة وسارت تلتمس كربلاء . فجعلت طريقها من خارج الكوفة لئلاّ ترى ما تكرهه من فوز الامويين . فيممت شاطىء الفرات حتى اطلت على سهل مقفر لاشجر فيه ولا عشب ولا ماء فعلمت انه سهل كربلاء . ورأت في بعض اطرافه شجرة قد تقادم عهدها وتحتها شيخ نائم فعلمت انه الشيخ الناسك ولم تصل اليه حتى جلس وقد شعر بقدومها عن بعد كأنه اشتم رائحتها . اما هي فلما رأته لم تتمالك عن البكاء لفرط ما هاج في خاطرها من مصير مسلم وحزبه

فلما رآها الشيخ صاح فيها وناداها اليه قائلاً « اراكِ باكية كأني بهم قتلوا بابن عقيل ؟ . . . »

فاجابته وقد خنقتها العبرات « نعم انهم قتلوه يا مولاي شر قتلة . . . قتلوه ومثلوا به وقد فازوا بالامر من دونه وخابت مساعينا . كأن الله قد كتب الشقاء لنا . . . »

فابتدرها قائلاً « قتلوا ابن عم الحسين ؟ . . وكيف قتلوه ولم يحاقوا غضب الله وملائكته . . اعوذ بالله من ظلم الانسان . . . »

قالت « نعم قتلوه يا سيدي بعد ان سامُوه مر العذاب . . وكنت احسب الملائكة تدافع عنه لانه انما جاء للدفاع عن الحق !! . . . اهذا جزاء نصراء الحق عند الله ؟ . . . »

فقطع الشيخ كلامها وقال « لا تكفري يا سلمى ولا تعترضي احكام الله . . . فاننا لا ندرك مقاصده سبحانه وتعالى . . . وما نحن الاّ تراب صنعنا يده وهو يفعل بنا ما يشاء لحكمة لا ندركها . . فاخبريني كيف قتلوه . »

فجلست على حجر بالقرب منه وقصت الحديث وهي تقطع الكلام وتناوه . حتى اذا اتت على اخر كلامها اوغلت في البكاء وجعلت تندب حال المسلمين . وجرّها ذلك الى ندب حبيبها عبد الرحمن فقالت « لا اعترض على حكم الله . ولكني لا ادري كيف اؤول الحكمة في ذلك . . . ان الحسين قام يدعو الناس الى الحق وارسل ابن عمه لنصرته افيقتل هذا و ينشل ابن بنت الرسول ويظلم كل من قام بنصرته ؟ الم يقتلوا ابن عمي عبد الرحمن لانه طالب بدم والدي وانتصر لاهل البيت . . . الم يقتلوه شر قتلة . . . . آه

منهم كيف يقتلونه ... » قالت ذلك وعادت الى البكاء . ثم قالت وقد خنقتها العبرات « كيف ينصر الله قوماً يحاربون ابن الرسول و يقتلون كل من قام بنصرته — وخليفتهم يشتغل عن امور الخلافة بشرب الخمور وضرب الطنابير ومجالسة النساء ؟ ... انه لامر غريب ! ... »

فلما سمعها تندب ابن عمها وهو يعلم ببقائه حياً اشفق على عواطفها وعلم من سياق حديثها انها راغبة في الذهاب الى الحسين لاطلاعه على جلية الخبر لعلها ترجعه عن عزمه . والشيخ يرجح ان عبد الرحمن وعامراً مع الحسين فاراد ان يطمئنها . فعول ان يطلعها على الواقع فمسح لحيته بيده ثم مسح عينيه بانامله من اثار دموع كادت تبللها في اثناء سماعه مقتل ابن عقيل ثم قال « وما الذي انتِ عازمة عليه يا سلمى ؟ »

قالت وقد رجع اليها رشدها وبان الاهتمام في وجهها « انسألني عما عزمت عليه وانت لا تجهله ؟ ... اتجهل يا سيدي اني فقدت كل شيء في سبيل نصرة بيت الرسول ولم يبق لي ما ابذله الا نفسي — وما هي بالامر العظيم عندي فانا باذلة روحي في هذا السبيل ... اريد ان اذهب لالاقي الحسين قبل وصوله الكوفة واخبره بما وقع وانصح له ان يتربص حيث هو ريثما يتم له التأهب للمطالبة بحقه واتمكث في خدمته حتى يتأتى له ذلك فاحارب معه حتى اموت بين قدميه فاذهب الى حيث ألاقي عبد الرحمن ووالدي وارجو ان يكون ذلك في النعيم . لانني اعتقد صدق الدعوة التي نحن قائمون بها واذا قدر الله لنا النصر وفزنا على اولئك الطغاة وقتلناهم فاعيش سعيدة لاني انتقمت لابي وابن عمي وللامام علي ... »

الفصل السابع والثمانون

البغلة

فضحك الشيخ حتى اغرب في الضحك وسلمى تنظر اليه وتعجب من ضحكه بعد ان قصت عليه خبر الفشل الذي اصابها . فلبثت صامتة وهي تسمع قهقهته وترى اهتزاز لحيته حتى خيل لها انه أصيب بجنون ولكن اعتقادها بكرامته غلب عليها فحملت ضحكته على شيء يضمره وفيه خير لها . فلما فرغ من الضحك تنرست في وجهه فاذا هو قد عاد الى

الانقباض بغتة ولمعت عيناه بما غشاها من الدمع . ورأت سلمى ذلك من خلال حاجبيه المسترسلين على عينيه فقالت له « اباذن لي مولاي بسؤال »

قال وقد عاد الى الابتسام « انك سئماً لينني عن سبب ضحكي وانا اقول لك السبب وارجو ان يضحكك ايضاً »

فقطعت كلامه وقالت « لااظن شيئاً في العالم يضحكني وما انا ضاحكة الاّ ضحكة الظفر او ضحكة الموت »

قال « وما قولك اذا اضحكتك الساعة »

قالت وهي تستخف بقوله « قل ما شئت واضحك ما شئت وستري اني لا ابتسم لشيء قط . كيف اضحك او ابتسم وانا اليتيمة الاسيفة وقد قتل ابي وابن عمي ظلماً ولم اقتل معهما »

قال « واذا اخبرتك خبراً مليحاً ؟ »

فقالت « اذا كان خبرك من قبيل الاطلاع على الغيب فللاولياء كرامات .. وقد تتنبأ بخير ترجوه لي في المستقبل . ولكنني رأيت من الفشل في الايام الاخيرة ماسود في عيني كل خير . فلا اضحك الاّ لخير اراه لا لخير اتوقعه . واي خير ارجوه بعد هذه المصائب ؟

قال « واذا اطلعتك على خبر عبد الرحمن ؟ »

فلما سمعت اسم حبيبها اختلج قلبها واصطكت ركبتاها وبغتت وقالت « وما هو خبره يا مولاي ... العلي لم اسمعه بعد .. دعني ... » واختنق صوتها وبكت

قال « وما ذا سمعت عنه »

قالت « لم اندبه بين يديك مراراً ؟ .. آه يا مولاي دعني من هذه الذكري ولا تهيج اشجاني ... دعني اشتغل عن الحزن بالانتقام .. دعني امضي لسبيلي فالاقي الحسين واهل بيته وانبئهم بالخطر الذي ينتظرهم هنا »

قال « سيري يا بنية سيري بحراسة الله ولكنني ارجو ان تلاقي عبد الرحمن هناك »

فصاحت « ألاقي عبد الرحمن !! وكيف ألاقيه وانا حية ؟ ... الاّ اذا بُعث في هذه الحياة الدنيا ... ولم نسمع بالبعث الاّ في الآخرة ... لا اراك يا مولاي الاّ ضاحكاً مني هازئاً بعواطفي . او انك تتنبأ بقرب اجلي لالقى حبيبي في الآخرة . فاذا كان ذلك فمرحباً بالموت انه حلو شهي » قالت ذلك وهي لا يخطر في حلمها ان يكون عبد الرحمن حياً . ولكن قلب المحب سريع الاطمئنان قريب التصديق فحدثها حبها ان الله قادر

على احيائهِ بعد موتهِ وان الشيخ الناسك لا يقول قولاً عبثاً ... على ان عقلها ما زال يقول باستحالة ذلك . فلبثت تتردد بين الامرين وهي تتوقع ان تحقق ذلك بوجه الشيخ اما هو فلما شاهد اضطرابها نظر اليها بعين يتجلى فيها الجد وقال « اني لا اقول جذافاً يا سلمى .. ان عبد الرحمن حيٌّ باقٍ لم ينلهُ سيف اولئك الاشرار »

فوثبت سلمى من مجلسها بغتة على غير انتباه واحست كأن شعر راسها انتصب واقشعر بدنها وكاد الدم يجمد في عروقها . وصاحت في الشيخ وامسكتهُ بيدهِ وهي تقول « بالله اصدقني الخبر يامولاي ولا تهزأ بي فاني اكاد اقتل نفسي .. قل لي ... هل عبد الرحمن حيٌّ ... عبد الرحمن ... عبد الرحمن ! هل هو حيٌّ ؟ حيٌّ مثلي ومثلك ؟ .. » قالت ذلك وهي تضحك والدمع ملءُ عينيها لا تدري اتضحك ام تبكي

فخاف الشيخ ان تضر عواطفها بها فتظاهر بالسكينة وقال بصوت خافت « نعم يا سلمى انهُ حيٌّ باذن الله »

قالت « قل لي ... كيف عاش ... كيف هو حيٌّ وقد تحققتُ مقتلهُ من قبل ؟ .. يارب ما ذا اسمع هل انا في حلم ... هل عبد الرحمن حيٌّ يمشي ويتكلم ... هل احاكيهِ فيسمعني والاقيهِ فيراني ... عبد الرحمن ؟ . حبيبي .. انت حيٌّ وانا اندبك ... ولكن لا .. لا اظنني الاَّ في حلم .. » ثم التفتت الى ما يحدق بها من السهل الفاحل كأنها تحقق وجدانها ثم ترامت على يدي الشيخ وجعلت تقبلها والدمع يتساقط عليها وهي تشهق من شدة البكاء وتقول « بالله يا سيدي قل لي الصدق ... هل عبد الرحمن حيٌّ حقيقة ؟ وهل اراه بعد وابن هو ... قل لي يا مولاي .. قل لي .. أشفق على حياتي ... عبد الرحمن ... حبيبي ... ابن هو ؟ »

فامسكها الشيخ وبدهِ ترتعش واوقفها وهو يتأمل في حركاتها ويقرأ عواطفها فدمعت عيناهُ وقال « احمدي الله يا سلمى ان عبد الرحمن وعامرًا في قيد الحياة وهما مع الحسين واظنهما آتيين معهُ في طريقهِ هذه »

فبهتت سلمى واستجمعت رشدها ولبثت مطرقة تنظر الى الارض وهي تراجع في ذاكرتها ما سمعتهُ عن مقتلهِ في دمشق فلم تجد دليلاً على انهُ قُتل غير ما سمعتهُ من ابن زياد والحكيم فهان عليها التصديق ببقائهِ حياً . فاحست للحال أن غمامة انقشعت عن عينيها . وكأن جبلاً نزل عن قلبها فانبسط وجهها وابتسمت . فابتدرها الشيخ قائلاً « أراك تضحكين .. وانتِ تقولين انهُ لا شيء يضحكك .... »

قالت « لم يدر في خلدي ان اسمع هذا الخبر ... أيكون عبد الرحمن حياً ولا اضحك ... » ثم انقبضت نفسها بغتة وقالت ولكن ما النائحة ؟ ابن هو ... ما الذي يجمعني به فقد اصبحتُ بعد ما لاقيته من الفشل المتواتر لا اصدق شيئاً حتى يقع .. وقد يقع ولا اصدقه »

قال الناسك « لا تيأسي من نعم الله فان معسكر الحسين يجمعك بعبد الرحمن فقد سار اليه وانت في دمشق مع عامر وهو يحسبك ميتة كما كنت تحسبينه ميتاً » وقص عليها خبره من اوله الى آخره فاطمأن بالها وسكن روعها واستوثقت من بقائه في قيد الحياة

الفصل الثامن والثمانون

الحسين وابن الزبير

اما الحسين فكان قد انتقل من المدينة الى مكة وارسل ابن عمه مسلماً الى الكوفة كما تقدم . وجاءته كتبه ان معظم اهل الكوفة على بيعته . فعزم على الخروج الى الكوفة وهو يحسب انه اذا جاءها استتب الامر له . وكان يستشير اصحابه فمنهم من يخوفه من الذهاب ومنهم من يحرضه عليه . وكان في جملة المحرضين عبيد الله بن الزبير . وكان هذا طامعاً بالخلافة لنفسه لانه من كبار ابناء الصحابة . وكان ابوه الزبير بن العوام طامعاً فيها قبله على عهد الامام علي (والد الحسين) وقد حاربه عليها في واقعة الجمل بجوار البصرة . ولكنه قتل هناك هو وطلحة وفاز عليٌّ بالامر . فلما قتل عليٌّ وتولى الخلافة معاوية بن ابي سفيان لم يجسر ابن الزبير على مناجزته . فلما مات معاوية كان ابن الزبير والحسين في الكوفة فطلبوا منهما البيعة ليزيد كما تقدم . فابيا ثم خرجا الى مكة وفي نفس كل منهما ان يطلب البيعة لنفسه . فرأى ابن الزبير انه لا يستطيع ذلك والحسين معه في مكة لان الناس يفضلون الحسين عليه . فرغبه في طلب بيعة اهل الكوفة وحبب اليه المسير اليها . وكان الحسين مخلص الطوية صادق اللهجة مثل ابيه والمخلص سليم النية سريع التصديق . وما اضاع الخلافة عليٌّ الاّ لطيب عنصره وحلمه ورغبته عن الدهاء والمكر

وكان ابن الزبير لا يظهر للحسين عزمه وربما اظهر رغبته في بقائه بمكة وهو يريد خروجه منها . وفي جملة ما دار بينهما من الحديث في هذا الشأن ان الزبير قال له مرة « ما ادري ما ترك لنا هؤلاء وقد كففنا عنهم ونحن ابناء المهاجرين وولاة هذا الامر دونهم . فخبّرني ما تريد ان تصنع ؟ »

فقال الحسين « لقد حدثتُ نفسي باتياني الكوفة ولقد كتبت الى شيعتي فيها واشراف الناس واستخير الله »

فقال ابن الزبير « اما والله لو كان لي بها مثل شيعتك لما عدلت عنها » ثم خشي ان يتهمه فقال له « اما انك لو اقمت في الحجاز واردت هذا الامر ههنا لما خالفنا عليك . بل ساعدناك وبايعناك ونصحنا لك . فاقم ان شئت وتولني الامر فتطاع ولا تعصى »

فلما خرج الزبير قال الحسين لمن عنده « ان هذا الرجل ليس شيء في الدنيا احب اليه من ان اخرج من الحجاز . وقد علم ان الناس لا يعدلونه بي فودّ اني خرجت حتى يخلو له الجوّ » ويظهر من ذلك ان الحسين لم يكن يجهل طمع ابن الزبير ولكنه ظل راغباً في الخروج . ولعله خاف مناوأته اذا بقي هناك

وممن نصح للحسين ان لا يخرج من مكة ابن عم ابيه عبد الله بن عباس وكان قد ادرك غرض ابن الزبير فنصح للحسين مرارًا ان يبقى فلم يطعه . فجاءه في مساء اليوم الذي خاطب فيه ابن الزبير فقال له « يا ابن عم اني اتصبر ولا اصبر . اني اتخوف عليك من الذهاب الى اهل العراق فلو انهم قتلوا اميرهم وضبطوا بلادهم ونفوا عدوهم ثم دعوك فسر اليهم . وان كانوا قد دعوك واميرهم عليهم قاهرٌ لهم وعماله تجبي بلادهم فانما دعوك الى الحرب . فاكتب اليهم فلينفوا عاملهم ثم اقدم عليهم . اما اذا ابيت الاّ ان تخرج من مكة فسر الى اليمن فان بها حصونًا وشعابًا وهي ارض عريضة طويلة ولابيك فيها شيعة وانت عن الناس في عزلة . فتكتب الى الناس وتبث دعاتك حتى يقوى شأنك وتنظر ما يكون »

فقال الحسين « يا ابن عم اني والله لأعلم انك ناصح مشفق . ولكنني قد ازمعت على المسير الى الكوفة »

فقال ابن عباس « فان كنت سائرًا فلا تسر بنسائك وصبيانك فاني لخائف ان تقتل كما قتل عثمان ونساؤه وولده ينظرون اليه » ثم قال « لقد اقررت عين ابن

الزبير بخروجك . والله الذي لا اله الاّ هو لو اعلم اني اذا اخذت بشعرك وناصيتك حتى يجتمع علينا الناس وانك تطيعني وتقيم لفعلت » ثم خرج (١)

الفصل التاسع والثمانون

الخروج الى الكوفة

فخرج الحسين من مكة ومعهُ نساؤهُ واولادهُ وابناء عمهِ . وما زال ينتقل من مكان الى آخر والناس ينضمون اليهِ حتى اتى مكانًا اسمهُ الثعلبية كان قرية ثم خرب (٢) وهناك جاءه الخبر بمقتل مسلم بن عقيل وبما حلّ بشيعتهِ وخوفوهُ من المسير الى الكوفة . وكأنهُ خاف الذهاب اليها فقام بنو عقيل اخوة مسلم فحرضوهُ على المسير وقالوا « والله لانبرح حتى ندرك ثارنا ونذوق كما ذاق مسلم »

فتحمس الحسين وقال « صدقتم لاخير في العيش بعد هؤلاء »

وما زال سائرًا حتى دنا من ضواحي الكوفة والناس باتونهُ في الطريق ويخوفونهُ فاصرّ على المسير ولكنهُ اطلق الحرية للذين معهُ فقال لهم « قد خذلنا شيعتنا فمن احب ان ينصرف فلينصرف ليس عليهِ منا ذمام »

فتفرقوا عنهُ يمينًا وشمالاً حتى بقي في اصحابهِ الذين جاؤا معهُ من مكة (٣) وفي جملتهم عبد الرحمن وعامر . وكانا في جملة من حرضهُ على المسير التماسًا للانتقام . وكان عبد الرحمن لا يستصعب شيئًا في ذلك السبيل بعد ما كان يعتقدهُ من مقتل سلمى

اما سلمى فانها كانت قد صممت على النهوض لملاقاة الحسين لكي تطلعهُ على جلية الخبر وهي تحسبهُ لم يعلمهُ . وباتت ليلتها تحت تلك الشجرة على ان تصبح في الغد وتسير . ولما اصبحت ودّعت الشيخ وخرجت . ولم تمشِ قليلاً حتى رأت الغبار يتصاعد من جهة الكوفة ثم ظهر من تحتهِ خيول ورجالة فعلمت ان ابن زياد ارسلهم لملاقاة الحسين . فتظاهرت بالاستسقاء من بعضهم وسألت عنهم . فعلمت ان قائدهم عمر بن سعد وقد بعثهُ ابن زياد في بضعة آلاف لملاقاة الحسين وجندهُ . فنزل هذا الجند في النادسية ونظم الخيول

(١) ابن الاثير ج ٤ (٢) مراصد الاطلاع ج ١ (٣) ابن الاثير ج ٣

بين القادسية الى ضفان ومن القادسية الى القطقطانة والى جبل لعلع . فخفق قلب سلمى خوفاً على الحسين ورجاله ولكنها ظلت سائرة وقلبها طائر امامها التماساً لملاقاة حبيبها . حتى وصلت جبلاً اسمهُ ذو جشم فوقفت لتطل منهُ على الطريق واذا بغبار يتعالى فنظرت فرأت نحو ثلاثين فارساً واربعين راجلاً [1] ماعدا النساء والاطفال فعلمت ان القادمين هم الحسين ورجالهُ ولكنها استقلَّت عددهم واستغربت مجيئهم بهذه القلة بعد ان رأت جند الكوفة وكثرتهم . ثم تبادر الى ذهنها انها ترى طليعة الجيش وان البقية آتية . فوقفت جانباً وقلبها يخفق وعيناها شاخصتان الى الرجال تتفرس في وجوههم لعلها ترى عامراً او عبد الرحمن . فلم تر احداً . فترجح عندها ان الذين تراهم ليسوا كل الجند فسألت عبداً كان منفرداً عن الركب . فقال لها انهم الحسين ورجالهُ جميعاً . فاستغربت ذلك وانقبضت نفسها لما علمتهُ من كثرة جند الامويين في القادسية . وانشغل خاطرها على عبد الرحمن وعامر ثم رأت جماعة اسرعوا فنصبوا فسطاطاً كبيراً في سفح الجبل . وبعد قليل اقبل فارس حسن اللباس والقيافة جليل القدر يحيط بهِ الرجالة وعليهِ جبة من خز وعلى راسهِ عمامة وقد اختضب بالوسمة [2] (وهي ورق النيل او نبات يخضب بورقهِ) [3] وهو في نحو السابعة والخمسين من عمرهِ ولا يزال الجمال ظاهراً في وجههِ مع ما فيهِ من آثار الانقباض . فعلمت انهُ الحسين فاشتغلت لحظة في التطلع اليهِ فاذا هو قد ترجل ودخل الفسطاط وهو صامت كانهُ يفكر في امر ذي بال واشار الى رجالهِ ان يرشنوا الخيل ترشيفاً وسلمى بالباب في جملة الواقفين وعيناها تتنقل في الناس ثم تحولت الى سائر المعسكر وتفحصت الرجال ببصرها فلم تجد عامراً ولا عبد الرحمن فاضطرب قلبها وارتابت في كلام الناسك . ثم عادت الى الخيمة لعلها تجد احداً منهما فيها . فرأت فارساً قادماً من جهة الصحراء وعليهِ لباس الامراء فتنحَّ لهُ الناس طريقاً حتى اقبل على الخيمة وترجل ودخل على الحسين . فلم تعرفهُ سلمى ولكنها سمعت بعض الناس يتحدثون عنهُ ويتذمرون من قدومهِ . ثم علمت انهُ الحر بن يزيد التميمي قدم من القادسية في الف فارس لرد الحسين عن الكوفة . فالتفتت سلمى الى الناحية الثانية من الجبل فرأت الخيل قد ملأت السهل

ثم دخل الحر على الحسين وقال لهُ « ما الذي جاء بك الى هذه البلاد »

فقال الحسين « اني لم آتكم حتى اتتني كتبكم ان اقدم اليكم »

فقال الحر « انا والله ما ندري ما هذه الكتب »

---

(١) ابو الفدا ج ٢ (٢) ابن الاثير ج ٤ (٣) القاموس

فقال الحسين « اتكتبون ثم تنكرون »

قال « اننا لسنا من هؤلاء الذين كتبوا اليك وانما نحن أُمرنا اذا لقيناك ان لا نفارقك حتى نقدمك الكوفة على عبيد الله بن زياد »

فقال الحسن « لَلموت ادنى اليكم من ذلك » ثم صاح في اصحابه « قوموا فاركبوا وانصرفوا »

فاعترضه الحر قائلاً « انهم لا ينصرفون »

فصاح الحسين فيه « ثكلتك امك . ماذا تريد ... ؟ »

قال له الحر « اما لو غيرك من العرب يقولها لي وهو على مثل الحال التي انت عليها ما تركت ذكر امه بالثكل كائناً من كان . ولكن والله ما لي الى ذكر امك من سبيل الاّ باحسن ما نقدر عليه »

فقال الحسن « فما تريد »

قال « اريد ان انطلق بك الى الامير عبيد الله »

قال « اذاً والله لا اتبعك »

فنظر الحر اليه وعيناه تعتذران عن جسارته وقال « اني لم اؤمر بقتالك وانما امرت ان لا افارقك حتى اقدمك الكوفة فاذا ابيت فخذ طريقاً لا يدخلك الكوفة ولا يردك الى المدينة ريثما اكتب الى عبيدالله فاستشيره في امرك »

الفصل التسعون

زينب بنت علي

فرضي الحسين بذلك وامر الناس بالركوب . فلما سمعت سلمى ما دار بينهما تحققت عجز الحسين عن قتال هؤلاء واستعاذت بالله من عاقبة ما تراه . ثم عادت الى شأنها وآن لها ان تبحث عن عبد الرحمن وعامر بحثاً دقيقاً فلم تر خيراً من ان تدخل خباء النساء وكانت تعرف اكثرهن وهن يعرفنها معرفة سطحية لانها لم تقم بينهن طويلاً . فتحولت الى فسطاط آخر دخلت فيه فرأت امرأة لم يقع نظرها عليها حتى عرفت انها زينب اخت الحسين وكانت شديدة الشبه به لانهما من ام واحدة (فاطمة بنت الرسول) ولكنها رأتها في

انهماك وبغتة وقد علت جبينها دلائل الاهتمام وعيناها تتوقدان ذكاء وتعقلاً وكانت زينب منشغلة بطفل بين ذراعيها لا يزيد عمره على سنة وبعض السنة تربّته وتشدو له وعيناهُ ذابلتان للرقاد وقد اشرق وجههُ كأنهُ يتدفق نوراً وحياة . والطفل في غفلة عما حاق بأهلهِ من الامر العظيم فعلمت سلمى انهُ علي الاصغر بن الحسين وهو اصغر اولاده . وكان للحسين ثلاثة أبناء اسم كل واحد منهم علي . وانما يفرقون بعضهم من بعض بلقب السن فالاكبر اسمهُ علي الاكبر والثاني علي الاوسط (زين العابدين) والثالث علي الاصغر وهو هذا

اما زينب فحالما وقع نظرها على سلمى عرفتها واستغربت حضورها في تلك اللحظة بغتة . ولكنها لعظم ما عاينتهُ من الاهوال لم تعد تستبعد شيئاً . فابتسمت لها ابتسامة الترحاب بالرغم عن شواغلها واستأنست بها واجّلت الاستفهام عن حالها الى فرصة اخرى . فاسرعت سلمى اليها وهي تشاركها بعواطفها وتعرض عليها مساعدتها . فاشارت اليها زينب ان « خذي هذا الغلام على ذراعك ريثما ينام » فتناولتهُ وحنت اليهِ حنو الوالدة على ولدها . فلما خلت يدا زينب تحولت الى فراش في بعض جوانب الخباء عليهِ غلام مضطجع فتبعتها سلمى ببصرها وتفرست في الراقد فاذا هو علي الاوسط وقد توردت وجنتاه وتصبب العرق عن جبينهِ وذبلت عيناه وهما مفتوحتان حمراوان كالدم ودلائل الحمى بادية فيهما . ورأت صبية جميلة الخلقة نجلاء العينين جاثية بجانب المريض وهي مرتبكة والدموع في عينيها مع ما يتجلى في وجهها من البشاشة الغريزية . فعلمت سلمى انها سكينة بنت الحسين اخت ذلك الراقد . وكانت سكينة من اجمل النساء واظرفهن واحسنهن اخلاقاً مع خفة الروح والميل الى المجون

فوقفت سلمى وهي تتشاغل بتربيت الطفل وتنظر الى زينب فاذا هي قد دنت من فراش المريض وجسّت يدهُ ومسحت العرق عن وجههِ . ثم التفتت الى سكينة وقالت « لا بأس عليهِ يا حبيبتي باذن الله ولا تلبث الحمى ان تفارقهُ عما قليل بما ينسكب عنهُ من العرق »

فلم تجبها سكينة الاّ بالبكاء ثم رفعت صوتها وقالت « صبراً على حكم العناية . . . اما كفانا ما احدق بنا من الاخطار حتى اصيب اخي هذا بالمرض . . فماذا عسى ان تكون عاقبة هذه النوازل ؟ » قالت ذلك وشرقت بدموعها

فاومأت زينب اليها وهي تجلد ان « لا تقولي ذلك على مسمع من المريض لئلاّ يشتد

مرضهُ » ثم امسكتها بيدها وانهضتها وقالت لها « قومي يا ابنة اخي هلمي بنا نتأهب للرحيل فان والدك قد امر بالركوب »

فنهضت الفتاة واخذت تهتم بنفسها . فوقع نظرها على سلمى فعرفتها واستأنست بها وهشت لها وابتسمت حالاً لانها لم تكن تطيق الانقباض لانطباعها على السرور وحب المزاح (١)

الفصل الحادي والتسعون

حديث الهودج

وكان الطفل قد نام على ذراعي سلمى وهي تضمهُ الى صدرها وتتيمَّن بقربهِ لانهُ ابن الحسين وفيهِ من دم الرسول . فلما ارادت زينب ان تاخذهُ منها قالت لها « دعيهِ نائمًا على ذراعيَّ فان ذلك ارجح لهُ من الانتقال »

قالت « بورك فيك يا بنية ولكنني ارى ان اضجعهُ في الهودج ونحن على اهبة الرحيل »

قالت « اني ذاهبة في خدمتهِ الى حيث يسير . دعي امر العناية بهِ اليَّ واشتغلي بشؤونك »

فاثنت عليها وتحولت الى فراش علي فانهضتهُ وامرت من معها من النساء والجواري ان يهتممن بشدِّ الرحال

وكان الرجال قد اخذوا في تقويض الخيام وتحميل الاحمال . وركب كل منهم في مركبهِ وركبت سلمى في هودج مع زينب والطفل وهي تشتاق الى الاستفهام عن عبدالرحمن ولكنها استحيت ان تسأل لها وهي في تلك الحال

واقلع الركب وساروا في طريق وسط بحيث تكون الكوفة الى يمينهم . والحرُّ ورجالهُ سائرون بالقرب منهم ليمنعوهم من الرجوع اذا ارادوهُ

وكانت زينب وهي في الهودج تشرف من خلال الستور على اخيها ومن معهُ هنيهة

(١) الاغاني ج

بعد هنيهة وتعود الى مقعدها وهي تئنّ . فعلمت سلمى انها انما تفعل ذلك لعظم قلقها واضطرابها . فارادت ان تسليها وتخفف عنها وهي تتوقع ان تستطرق الى حديث حبيبها فقالت « ما لي اراك في هذا الاضطراب يا مولاتي »

فتنهدت زينب ونظرت الى سلمى نظر المتأمل وقالت « اتسأليني عن سبب اضطرابي وانت ترين ما نحن فيهِ ... ألا تعلمين اننا ذاهبون الى القتل ؟ »

قالت « ولماذا تقولين ذلك ان الله ينصر انصارهُ ويرفع كلمتهم »

قالت « صدقتِ يا بنية ولكنك لو عرفت ما ينتظرنا في الكوفة وفي ضواحيها من الاهوال وما هنالك من الاعداء وفيهم الفرسان والرجالة لعجبت لمسيرنا . ولكن اخي ابى الاَّ المسير وقد نصحوا لهُ ان يرجع فأبى . وها نحن سائرون ومعنا الاطفال والغلمان والنساء وفيهم المرضى والضعناء والرضع . وليس معنا من الرجال الاَّ اخوتي لأبي وهم ستة العباس وجعفر وعبد الله وعثمان وعبيد الله وابو بكر . وما من اولاد اخي الحسين من يستطيع القتال الاَّ علي الاكبر . وهذا علي الاوسط غلامٌ وهو مريض . ومعنا من ابناء اخي الحسن رحمهُ الله اثنان صغيران ابو بكر والقاسم وبضعة آخرون من ابناء عمي عقيل الذين قُتل اخوهم مسلم في الكوفة [1] ... » ثم تنهدت وقالت « آه لو تعلمين كيف قتلوهُ ! ! »

فتذكرت سلمى مقتل مسلم وحان لها ان تظهر نفسها وتستطرق الى حديث حبيبها فقالت « اني اعلم الناس بمقتل ذلك الشهيد يا مولاتي »

فانتبهت زينب لنفسها وادركت انها كان يجب ان تسأَلها عن حالها فقالت « اظنك من اهل الكوفة ... فهل جئت منها قريبًا ؟ »

فقالت « نعم كنت في الكوفة ورأيت مسلمًا يناضل بسيفهِ في بيت طوعة الكندية ثم رأيتهم يسوقونهُ والدم يسيل من شفتيهِ . وعلمت انهم لما بلغوا بهِ الى دار ابن زياد قتلوه قتلة لم نسمع بمثلها من قبل .. اصعدوه الى اعلى القصر فضربوا عنقهُ وقذفوا بجثتهِ الى الاسفل »

فصاحت زينب « قتلهم الله ما اقسى قلوبهم ... اني كلما فكرت في ذلك يقشعر بدني »

فقالت سلمى « من انبأكم بمقتل مسلم ؟ »

قالت « لم نسمعهُ الاَّ بالامس وكان اخي قد ارسل نفرًا من اصحابهِ للبحث عن

(١) ابن الاثير ج ٤

حقيقة الحال وفيهم اثنان كذبان لم ارَ اشد غيرة منهما على الاسلام جاآنا من امد غير بعيد وقد قصّ اخي عليّ من اخبار غيرتهما ما يفرح قلب كل مسلم »

فلما سمعت سلمى ذكر الكذبين خفق قلبها مخافة ان يكونا عامرًا وعبد الرحمن ولكنها تجلدت وسألتها « ومن هما ذانك الرجلان يا سيدتي »

قالت « لم ارهما يا بنية ولكنني سمعت اخي يذكر ان احدهما ابن اخ حجر بن عدي صاحب الغيرة المشهورة في نصرة الحق وهو الذي قتله معاوية بن أبي سفيان ظلمًا ... »

ولم تكد زينب تتم قولها حتى ارتعدت سلمى وكان الطفل لا يزال على حجرها فاجفل من اجفالها وصعد الدم الى وجهها بغتة واخذت الدموع تتجلى في آماقها

الفصل الثاني والتسعون

كشف السر

فاستغربت زينب ذلك منها وكانت تعرفها معرفة بسيطة ولا تدري علاقتها بعبد الرحمن فقالت « ما الذي غيرك يا بنية »

فلم تتمالك سلمى عن ارسال الدمع وهي تقول « وهل سمعتم شيئًا عن ذلك الوفد يا مولاتي ... ؟ »

فتنهدت زينب وقالت « والهفي عليهم لقد بلغنا ان ابن زياد اللعين قبض عليهم وفعل بهم مثل فعلته بابن عمي مسلم ... »

فصاحت سلمى « قتلوهم يا سيدتي ؟ ... قتلوهم جميعًا ... » قالت ذلك وهمت باضجاع الطفل في المهد الى جانبها لئلاّ يعيقها عن الحركة أو اذا تحركت توقظه

فادركت زينب ان في الامر سرًّا فقالت « ... لا ... لم يقتلوهم جميعًا ... لا ادري سوى انهم قتلوا بعضهم ... »

فقالت « هل قتلوا عبد الرحمن ... اواه .. قتلوه ... » قالت ذلك وهي تلطم وجهها

فامسكتها زينب وقد نسيت مصيبتها وانشغلت بما رأته من لهفة الفتاة وبكائها وقالت لها « ومن هو عبد الرحمن يا بنية وهل من قرابة بينك وبينه »

قالت « انهُ ابن عمي ... و ... هل قتلوهُ والحنوه بابي ؟ . »

فلما سمعت قولها تفرست في وجهها فرأت فيهِ شبهاً بحجر بن عدي فقالت « العلك ابنة حجر بن عدي »

قالت « نعم يا مولاتي اني ابنة ذلك المقتول ظلماً انا ابنة حجر الذي ذهب شهيد الحق ... ذهب في سبيل نصرة ابيك صهر النبي وابن عمهِ ووصيهِ وحبيبهِ ... بالله اخبريني افرجي كربي ... اخبريني هل قتلوا عبد الرحمن ؟ »

فصمتت زينب لحظة وقد تنتقت جروحها وتذكرت مقتل ابيها وما يقاسونهُ من العذاب والبلاء بسبب ذلك . ولكن خاطرها انشغل بسلمى لما رأتهُ من غريب امرها اذ تذكرت احاديث سمعتها عن عبد الرحمن وخطبتهِ وموت خطيبتهِ فقالت « العلك خطيبة عبد الرحمن »

قالت وهي مطرقة « نعم يا سيدتي انا هي تلك التعيسة ... انا سلمى الشقية ... كُتب علي أن احيا بعد موت والدي وابن عمي ... آه يا رباه ما هذه المصائب .... ولكن .. هل مات ابن عمي حقيقة ؟ .. »

فارادت زينب ان تخنف عنها فقالت « تجلدي يا سلمى ... تجلدي يا ابنتي .... اني أرى في الامر سرًّا عظيماً وامرًا غريباً لاني سمعت ان عبد الرحمن فقد خطيبتهُ في دار يزيد بن معاوية في دمشق . وانهُ جاء للانتقام لها ولوالدها ووالدي رحمهما الله . وهو انما اراد الذهاب الى الكوفة سعياً في هذا السبيل ... كيف يقولون انك قتلتِ وانتِ حية ؟ »

فقالت « انهم قتلوني ثم احيوني كما قتلوا عبد الرحمن واحياه الله . وقد خرجنا من دمشق وانا احسبهُ مات وهو يحسبني متُّ . ولكني عرفت ببقائهِ حياً بالامس وقيل لي انهُ معكم فجئت لألاقيهُ والاقي عامرًا وصيّنا فاذا انا اسمع ما سمعتهُ منك ..... اشفقي عليَّ يا بنت بنت الرسول وارثي لحالي وابكي معي .. لا ابكي عليَّ ... اعذريني يا مولاتي على ما فرط من عواطفي بالرغم عني . وما انتم في حال نساعدكم على الافتكار بمثلي »

فاستغربت زينب كل كلمة تسمعها ولم تفهم السر في موتها وحياتها فقالت « لا تيأسي من رحمة الله ... نعم ان عبد الرحمن وعامرًا خرجا الى الكوفة مع الوفد ولكننا لم نسمع الاَّ بمقتل واحد منهما . سمعنا بمقتل عامر ولا أظن هذين الاَّ في قيد الحياة

فاخبرني عما كان من موتك وموتو في دار ابن معاوية »

فاخذت سلمى تقص حديثها وزينب تنظر اليها وتشاركها بكل حركة وقد انصرف ذهنها عن مصيبتها برهة

الفصل الثالث والتسعون

جمجع بالحسين

فلما فرغت من حديثها كانت زينب قد آنست فيما سمعته من سلمى عبرة وموعظة واعجبت بغيرتها على الاسلام وخصوصاً على بيت ابيها الامام علي فقالت لها « ان حديثك اثر في خاطري تاثيرًا كبيرًا وهوّن علي ما كنت اتخوفهُ من الموت . وما الموت بالامر الذي يجب ان نخافهُ طالما كنا نعتقد الحق في جانبنا فاتخذي حالنا موعظة لك » ثم فتحت ستار الهودج وقالت « انظري الى هؤلاء وهم خيرة بيت الرسول — انهم ملقون بانفسهم الى القتل لانهم يعتقدون الحق في جانبهم ويرون خيرًا لهم ان يموتوا محقين من ان يعيشوا ضالين . . . »

فشعرت سلمى انها بالغت في شكواها وبيان مصيبتها بالنظر لما تراه من المصيبة التي يتوقعونها عما قليل وهي ضربة شديدة على الاسلام والمسلمين . فابتدرتها قائلة « اني لا اجهل ما نحن فيهِ يا مولاتي . . . ومن هو عبد الرحمن ومن انا او كل المسلمين في جانب ابناء بنت الرسول واولادهم . . . ولكن يسوءني ان يغلب الباطل على الحق . وان أرى الطغام ينتصرون والكرام يُغلبون . . . . . ويفعل الله ما يشاء »

وفيما هما في الحديث شعرتا بالهودج قد وقف بغتة وسمعنا لغطًا . فاطلت سلمى من خلال الستور فرأت الركب قد وقف ووقف الحر ورجالهُ بازاء الحسين ورجالهِ . واذا برجل على ناقة قادم من نحو الكوفة وقد نكب قوسهُ وترجل وتقدم الى الحر ودفع اليهِ كتابًا

فقالت زينب « ماذا عسى ان يكون خبر هذا الساعي وما في كتابهِ ؟ » قالت ذلك وترجلت فترجلت سلمى واسرعنا الى الحسين ووقفنا ننتظران ما يكون من امر ذلك القادم . فاذا بالحر قد تناول الكتاب وقرأهُ ثم تحول الى الحسين وهو يقول « هذا

كتاب من الامير عبيد الله بن زياد هل اتاوه عليك ؟ »

قال الحسين « اتاني »

فقرأه فاذا فيه « اما بعد فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولي . ولا تنزله الاّ بالعراء في غير خضرة وفي غير ماء . وقد امرت رسولي ان يلزمك ولا يفارقك حتى ياتيني بانفاذك امري والسلام »

فلما فرغ الحر من تلاوة الكتاب نظر الى الحسين كأنه يعتذر له بذلك الامر وقال له « لا اقدر ان انزلك الاّ في هذا المكان » واشار الى سهل كربلاء على مقربة منهم والفرات من ورائهم والجند يحول بينه وبين الماء.

فتقدم الحسين اليهم ان ينزلوا في مكان آخر فيه ماء . فابى وسافهم الى كربلاء.

واما سلمى فانها نسيت قلقها على عبد الرحمن وعامر وانشغلت بامر الحسين واهله ولازمت زينب والطفل . اما زينب فانها عهدت بالطفل الى سلمى واشتغلت بتدبير من بقي وخصوصاً الغلام المريض فان الحمى عاودته

واشرفوا في الصباح على كربلاء وسلمى في الهودج فرأت جند الكوفة قد ملأوا السهل وحالوا بينهم وبين الماء . فتطاولت بعنقها لعلها ترى الشيخ الناسك قادماً لكي تستطلع منه حال عبد الرحمن بعد ما سمعته من مسيره الى الكوفة . او تستفيد منه شيئاً يهمّ الحسين في تلك الحال . فلم تر احداً

اما الحسين واهله فلما وصلوا كربلاء ضربوا خيامهم وجعلوا اخبية النساء الى الوراء وخيام الرجال الى الامام

واما زينب فلم تشأ ان تترك اخاها وحده فسارت الى فسطاطه وتبعتها سلمى وهي لا تقلّ قلقاً عنها . فاذا بالحسين جاثٍ بباب خيمته يصلي فصبرتا حتى فرغ من صلاته فرأتا رجلاً من جند الكوفة قادماً عليه فلما وصل الى الحسين حياه . فقال له الحسين « من الرجل »

قال « جئت برسالة من رئيس هذا الجند عمر بن سعد »

قال « وما هي رسالتك »

قال « هو يسألك ما الذي جاء بك وماذا تريد ؟ »

فقال له الحسين « قل له ان اهل مصركم هذا كتبوا اليّ ان اقدم فقدمتُ . فاما اذا كرهتموني فانا انصرف عنكم . او آتي يزيد بن معاوية فاضع يدي في يده »

فلما سمعت سلمى قولهُ تناثر الدمع من عينيها لما توسمت في جوابهِ من دلائل الخوف والضعف

الفصل الرابع والتسعون

علي الاصغر

ولما عاد الرسول بالجواب التفتت الحسين الى اختهِ زينب وقال لها « ما الذي جاء بك يا اختية ؟ »

فالت « انسألني عما جاء بي ؟ ومن لي في هذه الارض بعدك ؟ »

فدمعت عينا الحسين وهو يتجلد و يتظاهر بالصبر . وادركت سلمى ذلك فيهِ فتحولت حياء منهُ الى خباء زينب . وكانت قد تركت الطفل مضطجعاً فيهِ ولم تدخل الخباء حتى رأت الطفل يدرج اليها وخلاخلهُ ترنُّ في رجليهِ وهو يضحك وذوَّابتاه مرسلتان على عنقهِ وقميصهُ مشنوق من اعلى الصدر وحول العنق عند من الجزع الثمين وفي يدهِ عود يلعب بهِ وامارات البشر بادية على وجههِ . فلم تتمالك سلمى عند ذلك عن البكاء. وقالت في نفسها « هنيئاً لهذا الطفل لانهُ في غفلة عما يتهدد والدهُ من الخطر العظيم ... هنيئاً لهُ من نفس زكية طاهرة ساذجة لا تعرف متاعب الحياة . لهُ قلب لا يعرف الانتقام ولا الحقد . وهو اذا لقي الرجل لا يبالي ما اذا كان صديقاً او عدوًّا . واذا سقي السم تجرعهُ وهو يحسبهُ ماء زلالاً . يلقي نفسهُ على كل من يهش لهُ ويحب كل من يلاعبهُ »

ثم دنت منهُ و بسطت لهُ ذراعيها فهرع اليها واخذ يلاعبها — يعبث تارة بشعرها وطوراً يجذب نقابها وهي تضحك لهُ وقلبها يكاد يتطاير دماً لما تتوقعهُ من الامر الكبير . وما عتم ان ضمتهُ حتى سمعتهُ يذكر اباه بلسان الاطفال

فقالت لهُ « ان اباك لا يلبث ان يأتيك على عجل » فصمم الاَّ ان يرى اباه . ولما الحت في منعهِ عمد الى البكاء . فانفطر قلبها عليهِ وحملتهُ حتى اتت بهِ والدهُ وهو لا يزال جالساً بباب خيمتهِ وحدهُ . فلما وقع نظر الحسين على ابنهِ ابتسم لهُ بالرغم عنهُ وبسط لهُ ذراعيهِ فالقى الغلام نفسهُ عليهِ واطمأن في حجر والدهِ فجعل الحسين يقبلهُ ويبكي والغلام يضحك ويقهقهُ وسلمى ترى ذلك وتكظم على ما في نفسها . والحسين لم يكن يعرف

سلمى الاّ انها من بعض توابع نسائهِ . فجعل يلاعب الطفل وهو تارة يدعوله وطوراً يحنُّ اليهِ و يشفع الحنين بالبكاء . وآونة يرنهُ والطفل يضحك و يلعب و يضع يدهُ على لحية ابيهِ او على عارضيهِ او عنقهِ والحسين ينتهد و زفيره يكاد يذيب الحديد . حتى لم يبق لهُ صبر على ذلك . فاشار الى سلمى فمدت يدها وتناولت الغلام وعادت بهِ وهو يود البقاء في حجر والده

الفصل الخامس والتسعون

الشيخ الناسك

وفيما هي عائدة لاحت منها التفاتة الى بعض جوانب البر فرأت شبحاً مسرعاً من ناحية الكوفة . ولم يقع نظرها عليهِ حتى عرفت انهُ الشيخ الناسك فخفق قلبها وهرولت الى الخباء فدفعت الطفل الى سكينة اختهِ وخرجت لملاقاة الناسك . ولما دنت منهُ سمعتهُ يدمدم و يتمتم فاقبلت عليهِ حتى التقيا بقرب فسطاط الحسين فارسل الناسك شعرهُ على وجههِ واشار اليها انهُ يريد ان يكلم الحسين . فاستبشرت باشارتهِ ومشت معهُ الى باب الخيمة فلما رآهُ الحسين استغرب منظرهُ ولكنهُ رحب بهِ وتوسم فيهِ الخير فقال « اهلاً بالشيخ الجليل »

فقال الشيخ « ارجع يا حسين ! .. ارجع الى المدينة انها خير لك ولنا ... ان الناس هنا يريدون بك شرًّا ولا نقوى على قتالهم »

فقال الحسين « اني اراك ذا كرامة فقل ما يبدو لك »

قال « انظر يامولاي الى هذا الجند انهم اربعة آلاف رجل بقيادة عمر بن سعد وقد أُمروا ان يقاتلوكم وانتم فئة قليلة لاتقوون عليهم » قال ذلك وانحدرت عبراتهُ على لحيتهِ

فتأثر الحسين من منظرهِ ولكنهُ تجاهل ما يراهُ وقال « اني ارى رأيك فهل من رجوع ... »

قال « اطلب الرجوع فان قبلوا كان بهِ والاّ فانك ..... » وبكى بصوت عالٍ . فبكت سلمى . واما الحسين فقال « لقد علمت مصيري لاني رأيت جدي (صلعم)

الليلة يدعوني اليه وما عنده خير مما في هذه الدنيا الفانية »

فكفكف الشيخ دمعه وقال « اما وقد رأيتُ رغبتك في الآخرة فاعلم ان ابن زياد لم يجب طلبك وقد كان اوشك ان يجيبه لولا ذلك الحائن . . . . . »

قال « ومن هو »

قال « لما عرضتُ رسالتك على ابن زياد وانت تطلب الرجوع الى المدينة او ان تضع يدك في يد يزيد اشفق ابن زياد ولكن رجل السوء كان حاضرًا وهو شمر بن ذي الجوشن فقام اليه وقال له (اتقبل هذا منه وقد نزل بارضك الى جنبك ؟ والله لان رحل من بلادك ولم يضع يده في يدك ليكونن اولى بالقوة ولتكونن اولى بالضعف والعجز . فلا تعطه هذه المنزلة فانها من الوهن . ولكن لينزل على حكمك هو واصحابه فان عاقبته فأنت اولى بالعقوبة وان عفوت كان ذلك لك) فاستحسن ابن زياد الراي وبعثه مع كتاب الى عمر ابن سعد رئيس هذا الجند يأمره فيه ان يعرض عليكم النزول على حكمه فان فعلتم بعث بكم اليه سلمًا وان ابيتم قاتلكم . وقال ابن زياد لشمر (فان فعل عمر بن سعد فاسمع له واطع وان ابى ان يقاتلهم فانت امير الجيش واضرب عنقه وابعث اليّ برأسه) وهاك فحوى كتاب ابن زياد الى عمر بن سعد (اني لم ابعثك الى الحسين لتكف عنه ولا لتطاوله ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتعتذر عنه ولا لتكون له عندي شافعًا . انظر فان نزل الحسين واصحابه على حكمي واستسلموا فابعث بهم اليّ سلمًا . وان ابوا فازحف اليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم فانهم لذلك مستحقون . وان قتل الحسين فاوطئ الخيل صدرهُ وظهرهُ . . . . فان انت مضيت لامرنا فيه جزيناك جزاء السامع المطيع وان ابيت فاعتزل عملنا وجندنا وخلّ بين شمر بن ذي الجوشن وبين العسكر فانا قد امرناه بامرنا والسلام) وقد جاء يا مولاي شمر اللعين بذلك الكتاب الى عمر . فعنفه عمر وقال له (اني لا اظنك الاّ نهيته ان يقبل مما كتبتُ به اليه وافسدت علينا امرًا كنا قد رجونا ان يصلح . والله ان الحسين لنفس ابيه بن جنبيه) فلم يصغ شمر لقوله وخاف عمر ان يخالفه فيقتل فاتفقا ان يعملا معًا وتولى شمر امارة الرجالة واظنه قادمًا اليك في الغد »

الفصل السادس والتسعون

التردد

فلم يتم الشيخ كلامهُ حتى بالت سلمى شعرها بالدمع وقد زاد شجونها اسم شمر بن ذي الجوشن وقد كانت تحسبهُ قتل في دمشق على ماقصهُ عليها الناسك من حديث عامر عند انقاذه عبد الرحمن من السجن . واما الحسين فلما سمع كلام الناسك اعتبره ولم يكن بالامر الجديد عندهُ ولكنهُ تجلد وقال « اننا صابرون لحكم الله والله مع الصابرين »

ثم تحوّل الناسك فتبعتهُ سلمى وهي ترجو ان تستفهمهُ عن عبد الرحمن . فاذا هو قد اوغل في الصحراء ولم يلتفت اليها فوقفت حائرة وقد استغربت اطوار ذلك الرجل . ثم حدثتها نفسها ان تلحق بهِ وهي اذا فعلت ذلك تنجو من خطر القتل . ولكنها قالت في نفسها « أالعلي خير من كل هؤلاء فاذا قتلوهم فما الفائدة من بقائي . واما عبد الرحمن فاذا كان لايزال حياً الى الآن وقتل الحسين فانهم يقتلونهُ .... ولكن ... اذهب لعلي اراه ثم اعود الى هذا الركب ..... لا لا ... من اين اعود وكيف اعود ... يا ويلاه .. ماذا أعمل أأترك عبد الرحمن وانا لا اعرف مقرهُ ولا ابحث عنهُ . ولكن كيف اخرج من هنا ومن ينبئني بمكانهِ ... لا بل ابقى هنا اناضل مع الحسين واحارب معهُ فاذا انتصرنا كان الحظ كاملاً وهي السعادة في الدارين . واذا قتلنا فلا اسف على الحياة ولا اشرف من موتة اموتها مع الحسين واهل بيتهِ .. هل انا خير من زينب ام سكينة ام الحسين ؟ ام ... ام ... ولكن هب اني اردت الخروج ألا يحمل الحسين خروجي محمل الخوف ... » وبعد التردد مدة عوّلت على ان تبقى مع الحسين . فاما ان تموت معهُ او تحيا معهُ . فعادت وقد صغرت نفسها واباحت بالهلاك الآن يأتيهم الله بفرج من عندهِ

وتحوّلت الى خباء زينب وتحوّل خاطرها الى الطفل فقالت في نفسها « اذا قدّر الله فشل الحسين او قتلهُ ماذا يكون من امر هذا الطفل ؟ .. وشعرت بانعطاف اليهِ فاقبلت الى الخباء فاذا بالطفل يبكي فاسرعت اليهِ وضمتهُ وقبلتهُ وسألتهُ عما يريد فاذا هو يشكو الظمأ وما في المعسكر قطرة ماء فبحثت عن زينب حتى رأتها بجانب فراش ابن اخيها المريض وقد تعاظمت الحمى عليهِ وهو يهذي ويخلط بكلامهِ . فلم تجاسر ان تخاطبها ولا

هي قادرة على اسكات الطفل . فلما سمعت زينب صراخ الطفل نهضت اليه وتناولته وجعلت تقبله والدموع تتساقط من عينيها على خديه وهي تقول له « اشرب من هذا الدمع لعله يرويك ... اشرب انهم منعوا الماء عنا والكلاب تشربه »

فقالت سلمى « او ليس عندنا شربة ماء وارى الفرات امامي ؟ »

فصاحت زينب « انهم منعونا الماء . الا تسمعي اصوات هؤلاء الظالمين الساعة يقولون لاخي « يا حسين الا تنظر الى الماء كانه كبد السماء والله لا تذوقون منه قطرة واحدة حتى تموتوا عطشاً ؟ » (١)

فقالت سلمى « قبحهم الله ما اقسى قلوبهم وما اغلظ طباعهم ايمنعون الماء عن المرضى والاطفال » . واخذت سلمى تعلل الطفل بخرقة وضعتها في فمه وما زال يمضغها ويمصها وهو انما يمص ريقه حتى غلب عليه التعب فنام

وفي عصر ذلك اليوم (الخميس ٩ محرم سنة ٦١ ﻫ) كانت سلمى وزينب وسكينة جالسات في الخباء وهن يتحادثن في ما يحفنه على الحسين ورجاله فسمعن قرقعة اللجم وصهيل الخيل واصوات الرجال فخرجت زينب ثم عادت وهي تقول « لقد اتوا قتلهم الله »

فلما سمعت سلمى ذلك تحمست وثارت الحمية في رأسها وقالت في نفسها « لقد حان وقت الاستشهاد في سبيل الحق .. وهل أرى سبيلاً الى الجنة خيراً من هذا ؟ » وتلثمت بخمارها واسرعت الى قوس معلقة في دعامة الخباء فتناولتها وجعلت تبحث عن السيف . وفيما هي في ذلك رأتها زينب فقالت لها « وما ذا تفعلين ياسلمى »

قالت « لا افعل شيئاً وانما انا طالبة وجه ربي اليوم »

قالت « العلك تريدين النزول الى ساحة الحرب »

قالت « نعم »

قالت « واني لنا ذلك ... ياحبذا لو اننا ننزل جميعاً فنقاتل حتى نقتل مع هؤلاء . ولكن اخي الحسين منعنا واستحلفنا ان ناوي الى الخباء .. الم تري اني خرجت الآن اليه فرأيته جالساً بباب خيمته ومعه سيفه وكانه لم يسمع صهيلاً ولا صليلاً . فدنوت منه فرأيته نائماً ورأسه الى ركبته فناديته فافاق فقلت (اما تسمع الاصوات قد اقتربت ؟) فرفع رأسه اليّ وقال (رأيت رسول الله صلى الله عليه وعلى آله الساعة في المنام فقال لي انك تروح الينا) فلما سمعت قول اخي لطمت وجهي وناديت بالويل فقال لي

(١) كتاب الارشاد

(ليس لك الويل يا اخية اسكتي رحمك الله) واستغلقني ان لا ارفع صوتي وكلامه لا يُردُّ فهل تريدين غضبه ؟ امكثي معنا يا سلمى ويكفيك من التعب ان تلاحظي هذا الغلام وانا اعالج المريض حتى يقضي الله بما يشاء »

فشق ذلك على سلمى واسقط في يدها وقد كانت تود ان تستقل حتى تقتل ولوانها تلقى شمر فتطاعنه بالحربة او ترميه بالسهم . لانها تصورت كل هذا البلاء منه فضلاً عما لاقته بسببه في دمشق . وكانت تحسبه مات فلما تحققت بقاءه حياً تضاعف بلاؤها . ولكنها لم تكن لتعصي اشارة الحسين فوقفت مبهوتة لاتدري ماذا تعمل . على انها تظاهرت بالقبول ثم خرجت ملثمة حتى وقفت بازاء خيمة الحسين فرأت اخاه العباس قادماً على راحلته من معسكر العدو فعلمت انه سار اليهم بهمة فاستقبلهُ الحسين وسأله عما كان من امر هؤلاء

فقال العباس « قد استمهلتهم الى الغد فامهلونا على ان نستسلم فيسرحونا الى اميرهم عبيد الله بن زياد والا فليس عندهم غير الحرب »

الفصل السابع والتسعون

شهامة الرجال

فلما سمع الحسين ذلك قال « خسئوا » ووقف وصاح في اهله فاجتمع حوله كل اخوته وابناء عمه وكل من معهُ من الرجال ووقفوا ينتظرون ما يقولهُ وكلهم طوع اشارته . فلما تكامل جمعهم وقف فيهم موقف الخطيب وقال « اثني على الله احسن الثناء واحمده على السراء والضراء . اللهم اني احمدك على ان أكرمتنا بالنبوة وعلمتنا القرآن وفقهتنا في الدين وجعلت لنا اسماعاً وابصاراً وافئدة فاجعلنا من الشاكرين . اما بعد فاني لا اعلم اصحاباً اوفى ولا خيراً من اصحابي ولا اهل بيت ابر ولا اوصل من اهل بيتي . فجزاكم الله عني خيراً . الا واني لا اظن يوماً لنا من هؤلاء الا واني قد اذنت لكم فانطلقوا جميعاً فانكم في حل ليس عليكم مني ذمام . هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً »

فصاحوا جميعاً بصوت واحد « لم نفعل ذلك لنبقى بعدك لا ارانا الله ذلك ابداً »

فلما سمعت سلمى كلامهم لم تمالك ان قالت مثل قولهم والدمع ملء عينيها . فانتبه لها بعض الوقوف فالتفتوا اليها فاستحيت و بالغت في اخفاء وجهها

اما الحسين فعاد الى الكلام وخاطب ابناء عمهِ فقال « يا بني عقيل حسبكم من القتل بمسلم فاذهبوا انتم فقد اذنت لكم »

فاجابوه « سبحان الله ماذا يقول الناس ؟ يقولون انا تركنا شيخنا وسيدنا و بني عمومتنا خير الاعمام ولم نرمِ معهم بسهم ولم نطعن برمح ولم نضرب معهم بسيف ولا ندري ما صنعوا ؟ . لا والله ما نفعل — ولكن نفديك بانفسنا واموالنا واهلينا ونقاتل معك حتى نرد موردك فقبح الله العيش بعدك »

فارادت سلمى ان تقول قولاً فاذا برجل رفع صوتهُ بين الناس وقال « نحن نخلّي عنك . . ؟ وبماذا نعتذر الى الله في اداء حقك ؟ . . اما والله حتى اطعن في صدورهم برمحي واضربهم بسيفي ما ثبت قائمهُ في يدي . ولو لم يكن معي سلاح اقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة . والله لا نخليك حتى يعلم الله انا قد حفظنا غيبة رسولهِ فيك اما والله لو قد علمت اني اقتل ثم احيا ثم احرق ثم احيا ثم اذرّى — يفعل ذلك بي سبعين مرة ما فارقتك حتى القى حمامي دونك . وكيف لا افعل ذلك ؟ وانما هي قتلة واحدة ثم هي الكرامة التي لا انقضاء لها ابدًا »

فسالت سلمى عن القائل فقيل لها انهُ مسلم بن عوسجة . ثم سمعت غيره قال مثل قولهِ فانتعشت آمالها واعجبها ما رأتهُ من الاتحاد والاستهلاك في سبيل الحق

فاثنى الحسين عليهم وتحول الى خبائهِ وتحول الباقون وسارت سلمى الى خباء زينب لتنتقد الطفل . وكان الليل قد اقبل فاذا هو لا يزال نائمًا فسرت بنومتهِ . ورأت زينب بجانب فراش المريض تمرضهُ فجلست الى جانبها وقد انتعشت بما سمعتهُ في ذلك المساء . وذهب كلٌّ الى فراشهِ وزينب وسلمى ساهرتان تمرضان عليلاً وتحدثان بما يتوقعونهُ

وفيما هما تتكلمان همسًا والليل هادئ وعليٌّ قد نام وهو يئن من شدة المرض سمعتا قائلاً يقول :

يادهر افٍّ لك من خليل * كم لك بالاشراق والاصيل
من صاحب او طالب قتيل * والدهر لا يقنع بالبديل
وانما الامر الى الجليل * وكل حي سالك سبيلي

وكان الصوت خارجًا من فسطاط الحسين فعلمت زينب انهُ صوتهُ فلم تملك نفسها

ان وثبت تجرّ ثوبها وهي حاسرة الرأس فتبعتها سلمى حتى انتهتا الى الحسين فرأته جالساً والى جانبه خادمه يعالج سيفه ويصلحه فصاحت زينب « واثكلاه ليت الموت اعدمني الحياة اليوم . ماتت امي فاطمة وابي علي واخي الحسين . يا خليفة الماضي وثمال الباقي ! . . »

فنظر الحسين اليها وقال « يا اخية لايذهبن حلمك الشيطان » ثم ترقرقت الدموع في عينيه وقال « لو ترك القطا لنام »

فقالت زينب « ياويلتاه افتغتصب نفسك اغتصاباً فذاك افرح لقلبي واشد على نفسي » ثم لطمت وجهها وهوت الى جيبها فشقته وخرت مغشياً عليها . فهمت سلمى بها واجلستها وقام الحسين لها وقال « يا اختاه اتقي الله وتعزي بعزاء الله واعلمي ان اهل الارض يموتون واهل السماء لا يبقون وان كل شيء هالك الاّ وجه الله . . جدي خير مني وابي خير مني وامي خير مني واخي خير مني ولي ولكل مسلم برسول الله اسوة » ثم قال لها « يا اخية اني اقسمت عليك فابرّي قسمي لاتشقي عليّ جيباً ولا تخمشي عليّ وجهاً ولا تدعي عليّ بالويل والثبور اذا انا هلكتُ »

الفصل الثامن والتسعون

صباح القتال

فاطاعته وخرجت وسلمى تتبعها وهي صامتة وقد احبت الموت مع الحسين . اما الحسين فقضى ليلة يصلي ويستغفر ويدعو ويتضرع واصحابه كذلك وقضت سلمى ليلها مثلهم وقد اخذ العطش منهم مأخذاً عظيماً

واصبحوا في اليوم التالي وهو العاشر من المحرم فاشتغل الحسين في ترتيب رجاله فأمرهم ان يدخلوا اطناب الاخبية بعضها في بعض حتى تصير كانها خباء واحد . وان يستقبلوا القوم من وجه واحد والبيوت من وراثهم . ولم يكادوا يفعلون ذلك حتى رأوا الخيل اقبلت عليهم وفي مقدمتهم شمر بن ذي الجوشن . وكانت سلمى واقفة في باب الخباء فلما رأت شمرا ارتعشت اعضاؤها ورفعت يديها الى السماء وطلبت الى الله ان ينتقم منه

ولما رأت شمر حدثتها نفسها ان ترميه بسهم ولكنها تذكرت ان الحسين لا يريد ذلك فصبرت ولم تكتف بالدعاء. وملاطفة الطفل

اما الحسين فركب راحلته وعليه جبته وقلنسوته وتقدم وهو ينادي باعلى صوته « يا اهل العراق » فسمعه اكثرهم واصغوا لما سيقوله فقال « ايها الناس اسمعوا قولي ولا تعجلوا حتى اعظكم بما يحق علي وحتى اعذر اليكم فان اعطيتموني النصف كنتم بذلك اسعد وان لم تعطوني النصف من انفسكم فاجمعوا رأيكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ثم اقضوا الي ولا تنظرون ان ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » . . . . اما بعد فانسبوني فانظروا من انا ثم ارجعوا الى انفسكم وعاتبوها . فانظروا هل يصلح لكم قتلي وانتهاك حرمتي — ألست ابن بنت نبيكم وابن وصيه وابن عمه واول المؤمنين المصدق لرسول الله صلى الله عليه وآله بما جاء به من عند ربه . اوليس حمزة سيد الشهداء عمي . اوليس جعفر الطيار في الجنة بجناحين عمي . اولم يبلغكم ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله لي ولاخي هذان سيدا شباب اهل الجنة . فان صدقتموني بما اقول فهو الحق والله ما تعمدت كذباً منذ علمت ان الله يمقت عليه اهله . وان كذبتموني فان فيكم من ان سألتموه عن ذلك اخبركم » ثم قال « فان كنتم في شك من هذا فتشكون اني ابن بنت نبيكم — فوالله ما بين المشرق والمغرب ابن بنت نبي غيري فيكم ولا في غيركم . ويحكم اتطلبونني بقتيل منكم قتلته ؟ . . او مال لكم استهلكته او بقصاص جراحة ؟ »

فاجابوه « انا لا نفهم ما تقول »[1] وحملوا وحمل رجاله

فلما علت الضوضاء صحا الطفل من نومه فاسرعت سلمى اليه وقلبها يتقطع حزناً عليه واشتغلت في اسكاته وهو يصيح من العطش كأنه ذعر لاصوات الناس فازداد بكاء وعويلاً وزينب مشتغلة بنفسها لا تدري ماذا تعمل وقد اشتد المرض بابن اخيها وظهرت فيه اعراض الذرب فشغلها الاعتناء به عن كل شاغل

وفيما هم في ذلك وقد علت الضوضاء رأت سلمى فارساً مقبلاً من معسكر اهل الكوفة يستحث فرسه نحو الحسين . وكان الحسين واقفاً ينتظر ما يبدو وهو لا يصدق انهم يحاربونه فلما رأى الفارس مقبلاً لبث يتوقع وصوله . ولم يكد يقترب حتى عرف انه الحر بن يزيد الذي كان قد لقيهم قبل وصولهم كربلاء . ورأته سلمى ايضاً من خلال الخباء فعرفته وتعجبت لقدومه فلما وصل الى الحسين رمى قوسه بين يديه وهو يقول « جعلت فداك

(١) كتاب الارشاد

يا ابن بنت رسول الله انا صاحبك حيثما عن الرجوع وسايرتك في الطريق وجمجمت بك في هذا المكان . وما ظننت ان القوم يردون عليك ما عرضته عليهم ولا يبلغون منك هذه المنزلة . والله لو علمت انهم ينتهون بك الى ما ارى ما ركبتُ مثل الذي ركبت . فاني تائب الى الله مما صنعت فهل لي من ذلك توبة ؟ » (١)

فقال له الحسين « نعم يتوب الله عليك فانزل »

قال « فانا لك فارساً خير مني راجلاً — اقاتلهم لك على فرسي ساعة . والى النزول آخر ما يصير امري »

فقال له الحسين « فاصنع يرحمك الله ما بدا لك »

فلما سمعت سلمى كلام الحر دمعت عيناها وقالت في نفسها « هل يشعر مثل هذا الشعور ابن زياد او يزيد ؟ » ثم رأت الحر يسوق فرسه امام الحسين نحو معسكر اهل الكوفة فتبعته ببصرها واذنيها لترى ما يكون منه فاذا هو ينادي اهل الكوفة قائلاً « يا اهل الكوفة لامكم الهبل والعبر ادعوتم هذا العبد الصالح حتى اذا جاءكم اسلمتموه وزعمتم انكم قاتلو انفسكم دونه ؟ ثم عدوتم عليه لتقتلوه وامسكتم بنفسه واخذتم بكظمه واحطتم به من كل جانب لتمنعوه التوجه في بلاد الله العريضة فصار كالاسير في ايديكم لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرًّا ومنعتموه ونساءه وصبيته واهله من ماء الفرات الجاري يشربه اليهود والنصارى والمجوس وتتمرغ فيه خنازير السواد وكلابه ؟ فها هم قد صرعهم العطش — بئس ما خلفتم محمدًا في ذريته لاسقاكم الله يوم الظماء » (٢)

الفصل التاسع والتسعون

صلاة الخوف

ولم يتم كلامه حتى حمل اهل الكوفة وفي مقدمتهم عمر بن سعد وكان عمر هذا اول من رمى سهماً في هذه الواقعة . وتصاول الفريقان وترامو بالسهام حتى وقع بعضها في الخيام

(١) ابن الاثير ج ٤ (٢) كتاب الارشاد

وكان النهار قد اضحى وسلمى تشاغل الطفل وتسكنه وقلبها يميل الى النزال لعلها تلقى أجرًا في الدفاع عن الحق . وشاعت عيناها وهي تنظر الى النوم عن بعد لعلها ترى ابن ذي الجوشن فلم تره بين الرجال . فطلعت على مرتفع والطفل بين ذراعيها تقبله بكفيها و زنديها وقلبها يختلج . فارسلت بصرها في ذلك السهل فرأته مملوءا بالرجالة والفرسان من أهل الكوفة بما يزيد عددهم على اربعة آلاف وليس مع الحسين الاّ ٣٢ فارسًا وبعض الرجالة . ولكنها رأت رجال الحسين لا يحملون على جانب من جوانب العدو الاّ كشفوه . ثم ما لبثت أن رأت الحر بن يزيد وقع قتيلاً ووقع غيره . فحولت بصرها الى الحسين فرأته لم يحمل بعد فما زالت ترجو ان يستبقوه اذا ضعف امره او قُتل رجاله

ولم تستطع سلمى البقاء هناك خوفًا على الطفل من نبل يصيبه فعادت الى الفسطاط . فرأت زينب وسكينة وفاطمة بنتي الحسين يبكين و يلطمن بجانب فراش علي المريض وهو يخفف عنهن و يهون عليهن كأنه شيخ محنك وما به مرض . فلما رأى سلمى مقبلة واخوه بين ذراعيها بكى قال لعمته واختيه « قمن الى هذا الطفل فاستسقين له واتركني فلا بأس عليّ »

فصاحت زينب « ومن اين نستسقي له ومن يسقينا باليته يشرب الدمع فنرويه من اماقنا » قالت ذلك ونهضت الى الطفل فتناولته وجعلت تقبله وهي تبكي وتضمه الى صدرها . فبكت سلمى مثل بكائها . ولكنها رأت من الحكمة ان تتجلد وتصبرها فاسترجعت الطفل الى حجرها وقالت « تصبري يا سيدتي وسكني روعك لعل الله يأتينا بفرج من عنده »

وكانت الشمس قد مالت عن خط الهاجرة فسمعت سلمى في المعسكر اصواتًا متداخلة فهرعت للحال وخرجت من الفسطاط وخرجت زينب في أثرها . فرأتا الحسين يصيح في رجاله يدعوهم الى صلاة الخوف . فتجمع الرجال ووقفوا والنبال تتساقط عليهم وصلى فيهم الحسين صلاة حارة يخشع لها قلب الجماد . فلما فرغوا من الصلاة تجددت آلامهم واطمأنت قلوبهم والصلاة احسن معز للانسان في ضيقه . فتقدم احد رجال الحسين حتى اقبل على أهل الكوفة وفيهم حملة النبال وحملة السيوف بين فارس وراجل وقال لهم « يا قوم اني اخاف عليكم مثل يوم الاحزاب . يا قوم اني اخاف عليكم يوم التناد يا قوم لا تقتلوا حسينًا فيسحتكم الله بعذاب وقد خاب من افترى » قال ذلك وهجم وهو يقاتل حتى قتل . وهجم

غيره في أثره وما زال رجال الحسين يُقتلون حتى لم يبق منهم الاَّ أهل بيته خاصة [1]

الفصل الماية

الاستسقاء للطفل

كل ذلك وسلمى لا تدري ماذا تعمل والطفل بين يديها وقد شغل خاطرها بالغلام المريض فلما رأت رجال الحسين يقتلون طار خوفها ونسيت مصيبتها وغلب عليها اليأس واحبت ان تخالف الحسين وتقاتل معهُ . ولكنها لم تجد سبيلاً الى ذلك والطفل يتوجع وقد تقطع قلبها لبكائهِ . وفيما هي في تلك الحيرة بباب الخباء رأت علياً الاكبر بن الحسين وهو شاب اصبح الوجه جميل الصورة في التاسعة عشرة من العمر تنبعث الهيبة من عينيهِ — رأتهُ هاجماً وسيفهُ مشرعاً بيدهِ وهو ينشد قولاً حماسياً . فخيل لها انهُ فرج مرسل من السماء . ولكنها ما لبثت ان رأتهُ اصيب بطعنة في صدره فخر صريعاً يتخبط بدمهِ . وكان ابوهُ الحسين بالقرب منهُ فصاح « قتل الله قوماً قتلوك يا بني ما اجرأهم على الرحمن وعلى انتهاك حرمة الرسول » قال ذلك وانهملت الدموع من عينيهِ . فلم تتمالك سلمى ان صاحت « قتلوه قتلهم الله »

وما اتمت كلامها حتى رأت زينب تسرع وهي تنادي « يا اخياه وابن اخياه » وجاءت حتى اكبت عليهِ . فاخذ الحسين برأسها فردَّها الى الفسطاط ونادى فتيانهُ فقال « احملوا اخاكم » فحملوهُ حتى وضعوهُ بين يدي الفسطاط . وتكاثرت النبال المتساقطة هناك فاصيب بها غيره وكلما اصيب واحد حملوهُ الى ذلك المكان

وخافت سلمى على الطفل فارادت ان تلجأ بهِ الى الخباء فرآها الحسين والطفل بين يديها فاشار اليها ان تأتي . فأتت اليهِ والطفل يبكي من العطش وقد بحَّ صوتهُ وتعب صدرهُ وهي تحنو عليهِ لتقيهِ من النبال . فتناولهُ الحسين من ذراعهِ واسرع نحو المعركة فاسرعت معهُ وشخصت ببصرها اليهِ وقلبها يختلج خوفاً عليهِ ولم تفهم معنى ذلك ولا نعي ما تعمل . فاذا هي بالحسين يخاطب أهل الكوفة والطفل مرفوعاً بين يديهِ كانهُ يشير بهِ اليهم ويقول « يا اهل الكوفة خافوا من الله واسقوا هذا الطفل . اذا كنت انا

(١) ابن الاثير ج ٤

في اعتباركم كافرًا استوجب الموت عطشًا فما ذنب هذا الطفل الصغير؟ ... يا قوم خافوا من الله واذكروا عذاب يوم اليم »[1]

فتأثرت سلمى من ذلك الكلام وظنته يثمر فيحن اولئك القوم على الطفل فيسقوه لكنها لم تكد تفكر في ذلك حتى رأت رجلاً من نبالة الكوفة اوتر قوسه ورمى الطفل وهو يقول « خذ اسقه » فاصاب السهم احشاءه فصاح الطفل صيحة الالم ثم تحول صياحه الى انين فاحست سلمى كأن السهم اصاب قلبها وركضت الى الحسين فاذا بالطفل يختلج بين يديه وقد تدلى راسه على صدره والدم يقطر من جنبه . فصاحت « وبلاه ما أظلمهم وبلاه ما أقسى قلوبهم ... قتلوا الطفل ... » قالت ذلك وهمت بتناوله فمنعها الحسين من ذلك وقال لها « لا تبكي يا بنية ان له اسوة بجده وعمه وسائر اهله الصالحين » ثم رفع يديه والغلام بينهما وشخص ببصره الى السماء وقال « ان يكن حبستَ عنا النصر من السماء فاجعل ذلك لما هو خير منه وانتقم لنا من القوم الظالمين » ثم حملهُ حتى وضعهُ مع قتلى اهل بيته وفيهم اخوة الحسين واولاده وابناء عمه وابناء اخيه . ثم التفت الى سلمى وقال لها « ارجعي يا فتاة الى الخباء » فتراجعت وقلبها يقطر دمًا وعيناها تسكبان الدمع ولم تجد سبيلاً الى مخالفة الحسين

الفصل الحادي والمائة

خاطف

وفيما هي راجعة وكفاها على عينيها تستقي الدمع وتندب القتلى احست بيد قبضت على يدها وجرتها بعنف شديد . فارادت ان تجذب يدها ونظرت فاذا بالشيخ الناسك وهو كالاسد الكاسر قد اعتنقها من خصرها وحملها بين ذراعيه كأنه من مردة الجان وخرج بها من بين الخيام حتى اتى مضيقًا فوق الخندق مرَّ فوقهُ وهي تظن نفسها في حلم . حتى اذا وصل بها الى كهف وراء الخيام القاها الى الارض وهو يلهث من شدة التعب فصاحت فيه « الى اين تذهب بي يا عماه ؟ دعني اموت مع الحسين فانها احسن موتة يرجوها المؤمن في دنياه »

---

(١) حكاية عاشوراء

فلم يستطع الشيخ ان يجيبها لتسارع تنفسه من التعب . ولكنه اشار اليها ان تصبر فحاولت الافلات منه والرجوع الى المعركة فامسكها واقعدها وهو يقول بصوت متقطع « وما الموت .... مما يسرع .... البو .... كيف تموتين .... وتتركين .... عبد الرحمن ... »

فلما سمعت اسم عبد الرحمن تجددت احزانها وزادت شجونها فبكت بصوت عالٍ وقالت « اين هو عبد الرحمن ألم يسبقني الى العالم الآخر ... ؟ دعني اموت والحق بو »

قال « ومن انبأك بموته ؟ ... »

قالت « نعم انه مات وسبقني ... دعني الحق به دعني اموت مع الحسين واهل بيته ... »

قال « ان عبد الرحمن لم يمت يا بنية ... هداي روعك واعلمي ان الحسين مائت ولا فائدة من الدفاع عنه »

قالت « اتعلم انه مائت وتطلب بقائي ... ؟ وما الفائدة من بقائي وبقاء عبد الرحمن اذا مات سيد شباب المسلمين ؟ .. دعني اموت معه ... » قالت ذلك ونهضت وهي تقول « لا لا لا يموت ... من يجسر على قتله ومن يمد يده اليه ولا تيبس ؟ .. واي ارض تتلقى دمه ولا تجف ... لا .. لا يجرأون على قتله وهو ابن بنت الرسول وسيد شباب المسلمين ... »

فامسكها الشيخ بيدها وقال « ألا تصدقين انه مائت .. ؟ »

قالت « لا »

قال « قومي وانظري موته »

فقامت وهي تهرول في مشيتها حتى وقفت على اكمة تشرف على الواقعة فرأت الحسين يمشي نحو فسطاطه والدم يقطر من حنكه لسهم كان قد اصابه هناك ولم يقتله ولم يصل الى السطاط حتى احاط به جماعة من رجال الكوفة فيهم رجل أبرص حالما رأته سلمى اقشعر بدنها وارتعدت فرائصها لانه شمر بن ذي الجوشن وارادت ان تصيح فامسكها الشيخ وقال لها « اسكتي واذكري اني الشيخ الناسك ... »

فوقفت كأنها على الجمر وعيناها على الموقعة فرأت رجلاً ضرب الحسين على رأسه بالسيف فقطع السيف القلنسوة واصاب رأسه وامتلأت القلنسوة دماً . فرفع الحسين القلنسوة

ودعا بخرقة شدّ بها رأسهُ واستدعى قلنسوة اخرى فلبسها واعتم فرجع عمهُ شمر ومن كان معهُ

الفصل الثاني والمائة

هجوم اليأس

فلما رأتهم سلمى يتراجعون ظنتهم عدلوا عن قتلهِ . ثم رأت الحسين عائدًا اليهم ومعهُ ابن اخيهِ عبدالله بن الحسن وهو غلام لم يراهق . وكان عند النساء فلما رأى عمهُ في ذلك الضيق لم يتمالك ان تبعهُ وزينب تدبر في أثرهِ . فسمعتهُ يقول لها « احبسيهِ يا اختي » فارادت ان ترجعهُ فأبى وامتنع عليها امتناعًا شديدًا وقال « والله لا افارق عمي » ولم يتم كلامهُ حتى رأى رجلاً يهوي بالسيف على الحسين . فصاح الغلام فيهِ « ويلك يا ابن الخبيثة اتقتل عمي »

فضربهُ الرجل بالسيف فاتقاها الغلام بيدهِ فانقطعت يدهُ الى الجلد حتى تدلت وهي معلقة بقطعة من جلد وأُصيب رأسهُ . فنادى الغلام « يا أُماه » فهم بهِ الحسين وضمهُ اليهِ وهو يقول « اصبر يا ابن اخي على ما نزل بك واحتسب في ذلك الخير فان الله يلحقك بابائك الصالحين »[1]

ومات الغلام لساعتهِ والتفت جثتهُ بجثث اهلهِ وسلمى تنظر . فطار صوابها ولم تعد تستطيع صبرًا فاذا بالحسين قد دعا بسراويل يمانية يلمع فيها البصر فقطعها ولبسها فلما رأتهُ سلمى يقطعها استغربت ذلك منهُ فقال لها الشيخ « اتعلمين لماذا فعل ذلك »

قالت « ولماذا »

قال « قطع السراويل لكيلا يسلبوها بعد موتهِ »

قالت « اهو ماثت كما تقول ؟ . . . لا اظنهم يقتلونهُ »

ولم تتم كلامها حتى رأت شمر بن ذي الجوشن هاجمًا عليهِ وليس مع الحسين الاَّ ثلاثة رجال قتلوا بين يديهِ ولم يبق سواهُ . فهجم الحسين عليهم وعليهِ القلنسوة والجبة وتلك

(١) كتاب الارشاد

السراويل المقطعة وسيفه بيده وهي مجمة اليأس . وكانهم ذعروا لهجومه ففروا من بين يديه فرار المعزى من الذئب . فاستبشرت سلمى بذلك وقالت للشيخ « الم اقل لك انهم لن يقتلوه ؟ .. الا تراهم كيف يفرون من امامه »

ولم تقل ذلك حتى رأت السهام تتساقط عليه كالمطر وقد صار كالقنفذ فاحجم الحسين والرجال واقنون بازائه لا يجرأ احدهم ان يبدأ بقتله . وعند ذلك خرجت اخته زينب الى باب الفسطاط وصاحت وجند الكوفة يسمعها « يا عمر بن سعد ايقتل ابو عبد الله وانت تنظر اليه » فلم يجبها

فنادت « ويحكم اما فيكم مسلم » فلم يجبها احد

الفصل الثالث والمائة

مقتل الحسين

فثارت الحمية في رأس سلمى وافلتت من يد الناسك وهجمت نحو الخيام . فاعترضها الخندق والنار لا تزال تتقد فيه ولم تجد المضيق الذي حملها الناسك عليه . فوقفت وهي تتلفت لعلها تجد لها مسلكاً تمر عليه الى المعركة فسمعت ابن ذي الجوشن يقول لرجاله « ويحكم ما تنظرون بالرجل تكلتكم امهاتكم » فالتفتت سلمى فرأت الرجالة حملوا عليه فضربه احدهم على كتفه اليسرى فقطعها وضربه آخر على عاتقه فكبا الحسين على وجهه الى الارض . فصاحت سلمى وهي لا تدري ما تقول « ويلكم قتلتم الحسين .. شلت ايمانكم » وهرولت ونفسها تحدثها ان تثب من فوق الخندق ولو وقعت في النار . وكان الشيخ قد ادركها وامسك بذيل ثوبها وهي لا تبالي به وعيناها شاخصتان الى الحسين وهو طريح بجانب جثة اولاده واخوته وقد اختلطت دماؤه بدمائهم ولكنه لم يمت فرأت شمر وثب عليه وسيفه بيده فوضع السيف في عنق الحسين وحزه حتى انفصل . فسمعت سلمى بعد الحز شخيرًا قوياً . ثم رأت شمر رفع الراس بيده وقد سقطت القلنسوة عنه وبان شعره وقد تخضب بالدماء واغمضت العينان وناوله الى رجل بازائه وقال له « احمله الى الامير عمر بن سعد »

فجّت سلمى وغاب رشدها ولم تعد تعرف ماذا تعمل . وكانت قد انتقلت من موقفها بغير ان تنتبه فرأت على عرض الخندق خشبة فاقتلعت من الشيخ بالرغم عنهُ ووثبت عليها واسرعت نحو المعركة وهي تصيح « ويلك يا شمر يا ظالم يالعين . . . كيف تلقى وجه ربك يوم الدين »

وما وصلت الى فسطاط زينب حتى رأتها راجعة من المعركة ومعها نساء اخريات يعدون وفي اثرهن بعض الرجال يقبض الواحد منهم على ثوب المرأة فتنازعهُ وهي تفرّ من امامهِ حتى ينزع ثوبها عنها . فارادت سلمى ان تدافع فامسكتها زينب بيدها وادخلتها معها الى الفسطاط حيث الغلام المريض

فدخلن الخباء ودخل في اثرهن رجال والسيوف مشرعة في ايديهم وهموا بفراش الغلام يريدون قتلهُ . فصاحت سلمى فيهم « ويلكم اتقتلون الصبيان » وخنقتها العبرات وصاحت النساء مثل صيحتها

وفي تلك اللحظة وصل عمر بن سعد فقال لاصحابهِ « لا تقتلوا احداً من النساء ولا تأخذوا عنهنّ شيئاً وكفوا عن هذا المريض » وامرهم ان يحيطوا بالفسطاط لئلاّ يدخلهُ احد واوصاهم ان يحفروا الاخبية لئلا يخرج منها احد

اما سلمى فانقطعت للبكاء هي وزينب وسائر النساء حتى علت الضوضاء وارتفعت اصوات العويل مما يتفتت لهُ الصخر

ثم سمعت سلمى وقع حوافر وضجة فاطلت من خلال الخباء فرأت عشرة فرسان جاؤا يجولهم الى حيث جثة الحسين ومعهم اميرهم عمر بن سعد وقد امرهم ان يطئوا ظهر الحسين بخيولهم

فرأتهم يطئون جثتهُ بحوافر الخيل حتى رضوهُ وهي تتألم لذلك كأنهم يطأون على حدقة عينها فقالت في نفسها « ما هي عاقبة ذلك يا رباه » ولكنها لم تخبر زينب خوفاً عليها

ثم رأتهم يقطعون رؤوس سائر القتلى فبلغ عدد الرؤوس المقطوعة اثنين وسبعين رأساً حملوها الى ابن زياد في الكوفة مع رأس الحسين



الفصل الرابع والماية

النذب والرثاء

ارسل الكوفيون رؤوس القتلى الى ابن زياد و باتوا تلك الليلة في معسكرهم بقرب كربلاء وقد اقاموا خفرًا يحرس خيام الحسين وفيها نساؤه وجواريه وليس فيهن من الذكور الاَّ ابنهُ عليٌّ الاوسط الملقب بزين العابدين وهو مريض

ومدل الليل نقابهُ وانقضت الموقعة وقد قتل الحسين واهلهُ واصحابهُ جثثًا هامدة لا حراك بها واستكنت عناصر الطبيعة واشرق القمر وهو في ليلتهِ الحادية عشرة فتكبد السماء قبيل العشاء . وارسل أشعتهُ على كربلاء وقد كانت في صباح الامس قاحلة ظامئة فامست وقد ارتوت من دماء الابرياء . ولو ادرك ذلك التراب فظاعة ما جرى فيهِ في ذلك السبت المهول لنضل الظماء على الارتواء . أو لو علم القمر بوقع اشعتهِ تلك الليلة لحجبها ليستر ذلك الجرم الذي لم يتفق مثلهُ في تاريخ العمران

اما سلمى فلما أقبل الليل وهدأت الطبيعة استولى عليها الجمود ولبثت صامتة وطوين السهام لا يزال في اذنيها بما يخللهُ من اصوات الناس وخصوصًا صوت الحسين وهو يزجر الناس ويعظهم ويستعين الله . فتسلط الخيال على سلمى فتمثل لها ما رأتهُ في آخر الواقعة من مقتل الحسين وحز رأسهِ ووطء الخيل على ظهرهِ . فلما تذكرت ذلك اقشعر بدنها وشعرت بانقباض شديد وضاق صدرها وتاقت نفسها للبكاء ولا يحلو البكاء الاَّ بجانب الميت . فاحبت الخروج الى مكان الواقعة لتشاهد تلك الجثة الساكنة وتبكيها لتفرج كربتها . فنهضت وهي تتظاهر بحاجة نفسها حتى خرجت من الخباء والخفر لم يمنعوها لانشغالهم بحديث اليوم وما كان من نصرتهم

فانسلَّت بين الخيام حتى تجاوزت المعسكر واشرفت على الموقعة وقد عرفت المكان بما ينعكس عن مستنقعات الدماء في خلال الجثث من الاشعة الحمراء . فلما رأت ذلك اختلج قلبها في صدرها لما تتوقع ان تراه هناك من الاجساد المضرجة بالدماء ولا رؤوس لها . فمشت الهوينا وركبتاها ترتعشان وتذكرت ما كان من الفوضاء في ذلك الفضاء وما آل اليهِ من السكون المرعب . فازدادت رهبة حتى حدثتها نفسها

بالرجوع ولكنها تجلدت وظلت في سبيلها وهي تلمس الطريق وعيناها شاخصتان الى الجثث فارتعدت فرائصها لما عاينته من الامر الفظيع — رأت جثثاً مطروحة لا حراك بها ولا رؤوس لها . واكثرها عارٍ من الثياب لان القاتلين سلبوها الاثواب الا ما يستر العورات . وفيما هي تخطو خطو الخائف الهائب سمعت صوتاً خارجاً من بين القتلى فاقشعر جسمها وقفّ شعرها وجمد الدم في عروقها . فوقفت واصاخت بسمعها وقد غصّت بريقها وامسكت نفسها وتفرست في مكان الصوت وهو على بضعة عشر ذراعاً منها فرأت شبحاً يتحرك . فجثت في مخاض يكاد يواريها وقد ودت انها لم تجشم القدوم الى ذلك المكان . على انها ما لبثت ان سمعت ذلك الشبح يقول « رحمك الله يا ابن بنت الرسول . . رحم الله بدناً حملة رسول الله على ذراعيه وقبلهُ بشفتيه . . . لعن الله القوم الظالمين . . . كيف تجرأوا على هذه النعلة الشعثاء . . كيف مدوا ايديهم الى هذا الجسم الطاهر وفيه رائحة سيّد المرسلين ؟ . . . »

فلما سمعت سلمى الصوت عرفت انهُ صوت الشيخ الناسك فاطمأن بالها وسكن روعها . ولكنها احبت البقاء في مكانها لتسمع ما يقولهُ حتى اذا ابكاها قولهُ بكت وفرجت كربتها . فسمعتهُ يبكي ويشهق ويقول « قبحهم الله ما أقسى قلوبهم . . . الم يخافوا من موقف اليوم الرهيب ؟ . . . تجرأوا على قتلك وفيك بقية من دم الرسول وانت ابن بنته . وقد قال فيك (انا من حسين وحسين مني احبّ الله من احب حسيناً سبط من الاسباط) كيف يلتون وجه ربهم في يوم لا تغني فيه نفس عن نفس شيئاً . . . ويل لهم قتلوا سيد شباب المسلمين قتلة لم يقتلها كافر ولا منافق . . . ولم يكتفوا بقتلك واسفاه عليك حتى قطعوا رأسك ووطئوا ظهرك بالخيل . . . ولكنني اراك مستقبلاً السماء وقد بسطتَ ذراعيك كأنك تشكو امرك الى ربك وتدعوه للانتقام منهم — وما ربك بغافل عما يعملون . . . . الويل لي انا الشيخ التعيس ويل لشيخوختي . . . كتب عليّ ان أرى خيرة المسلمين يقتلون وقد كنت اتوقع اذا حييتُ ان اراك ياحسين مالكاً رقاب المسلمين فتنتقم لي من ذلك الظالم الغادر قاتل الابرياء . . . فآخذ بثار فلذة الكبد وحشاشة القلب المقتول في سبيل ابيك وسبيل الحق . حتى اذا لفيت اجلي فارقت هذه الحياة مجور القلب وقد عاينت الحق سائداً والباطل مدحوراً . . فقضيت شيخوختي ناسكاً هائماً لا آوي المنازل ولا ابيت الاّ في الخلاء . . . ولكن ابى الله الاّ ان أرى الحسين واولاده وابناء اخيه وابناء عمه جثثاً لا حراك بها . . . ارى الدم يجري من رقابها

وجوانبها وارى ابدانها مكشوفة وقد تلطخت بالدماء المجبولة بالتراب ... أبدانًا بلا رؤوس ... فيا لله ما هذه البلية .. » فلما بلغ الشيخ الى هذا الحد خنقته العبرات فسكت واوغل في البكاء

الفصل الخامس والماية

الفرار

اما سلمى فلم تتمالك عن البكاء وهي تسمع نواح الشيخ ولكنها استغربت ما جاء فيه من التعريض والتلميح ولم تفقه ما وراءه . ولو علم الشيخ انها تسمعه ما صرح بما يكفه ضميره وقد صبر على كتمانه بضع عشرة سنة

ولبث الشيخ صامتًا برهة وسلمى تتوقع ان تسمع منه شيئًا جديدًا لعلها تستطلع حقيقة حالهِ . فاذا هو قد نهض ثم ألقى نفسه على جثة الحسين وجعل يقبلها ويتمرغ بدمائها ويقول « ما اطيب ريحك يا حسين وما ازكى ترابك ... تبًا لهم كيف يقتلونك وانت بقية خاتمة النبيين ... استخلفك الله اذا لقيت جدًا ان تقرئه السلام . وتخبره اني صبرت على قتلهِ صبر الرجال . وسأصبر حتى الحق بهِ .... واراه وقد أخذت بثاره ... وارجو أن لا أموت قبل أن أنال هذه النعمة ... واذا لقيت جدك رسول الله أخبره بما فعل المسلمون بعده . أخبره كيف فعل الطغام بالصالحين ... قل لهُ انهم انقسموا على الخلافة وباعوا الحق بالباطل .... ولا غرو فقد علم (صلعم) بذلك ونبأ بهِ قبل وقوعه ... وقد نزل القضاء ... »

ثم نهض الشيخ عن الجثة وقد تلطخ وجهه بالدم وازدادت لحيته تجعدًا واختلاطًا . فرفع بصره الى السماء وبسط يديهِ وهو يقول « اللهم أنت اعلم بما فعل أولئك الادعياء بابن بنت نبيك وأهلهِ ... اللهم أنت أعلم بما يقاسيهِ انصار الحق من الجور العظيم ... اللهم أقول كما قال الحسين ان متعتهم الى حين فنرقهم فرقًا واجعلهم طرائق قددًا ولا ترض الولاة منهم أبدًا . فانهم دعوا الحسين لينصروه ثم عدوا عليهِ فقتلوه ... »

ولم تعد سلمى تصبر عن اظهار نفسها فتحفزت للوقوف ولم تكد تقف حتى رأت الشيخ ينظر اليها ويتطاول بعنقهِ لينفرس فيها . فلما عرفها ذعر ذعرًا شديدًا كانهُ رأى

ماردًا من مردة الجان وصاح قائلاً «أنت هنا يا سلمى ؟ ... » وتحوّل مثل لمح البصر وعدا عدو الظبي النافر يلتمس الفضاء.

فنادتهُ واستوقفتهُ وهو لا يسمع ولا يصغي . فظلت واقفة حتى توارى عن بصرها. فاستجمعت رشدها ولم تستغرب ذلك التنور من الشيخ لعلمها باطوارهِ من ذي قبل ثم مشت نحو الجثث وهي تتفرس بما بين يديها من أيد مبتورة قد عفرها التراب وسهام منثورة أغفلها الرماة واشتمت رائحة الدماء. وقد انتن بعضها وتصاعدت ريحهُ حتى أقبلت على الجثث وكلها بلا رؤوس — والجثث برؤوسها ترعب قلب الشجاع فكيف وهي على تلك الحال بين يدي فتاة لم تتعود القتال . ولكن سلمى انما أقدمت على ذلك وقد غلب عليها اليأس فتفرست في تلك الجثث فلم تستطع التمييز بينها لانها انما تميز برؤوسها وثيابها وهي عارية بلا رؤوس ولكنها عرفت جثة الطفل المقتول لانها أصغرها جميعًا فهمت بهِ وقبلتهُ واطلقت لنفسها عنان البكاء وتذكرت مصائبها وما يشغلها من أمر عبد الرحمن وهي لا تعلم مصيرهُ ولا أين هو . على انها تذكرت قول الناسك ببقائهِ حياً ولكنها حملت ذلك منهُ على رغبتهِ في اطمئنانها لكي تبقى معهُ . فجعلت تندب حالها وما قاستهُ من العناء والبلاء حتى استنزفت الدمع

الفصل السادس والمائة

رأس الحسين

ثم انتبهت وخافت ان يشعر بها الخفر فطرحت جثة الطفل فوق جثث اهلهِ وقالت الوداع الوداع ايها الساكنون بلا حراك ... الوداع الى يوم الحشر الرهيب .. وعسى ان ان الحق بكم وانا حاملة خبر الانتقام لكم باذن الله » وهي انما ترجو بذلك بما سمعتهُ ساعتئذٍ من كلام الشيخ الناسك من هذا القبيل

ثم عادت الى الخيام حتى دخلت الفسطاط فرأت زينب في قلق عليها فاعتذرت بانشغالها بامر نفسها

وفي ضحى اليوم التالي عاد عمر بن سعد بجندهِ الى الكوفة وساقوا معهم نساء الحسين وجواريهِ وبناتهِ سكينة وفاطمة واختهُ زينب وابنهُ علياً المريض . وتنكرت زينب بثياب

حتيرة حتى لا يعرفها احد وسارت سلمى معها متنكرة ايضاً حتى دخلوا الكوفة فرأوا اهلها يطلون من النوافذ والكوى ليشاهدوا بقية بيت الرسول . وسلمى تتفرس في الناس من خلال النقاب لعلها تجد عبدالرحمن او عامراً بينهم لان قول الناسك ببقاء عبد الرحمن حياً احيا آمالها — فلم ترَ احداً . حتى اذا اقبلوا بهم على قصر الامارة مشت زينب وسلمى ومعهما بعض الجواري وجلسن في ناحية من القصر على مقربة من مجلس ابن زياد . وكان ابن زياد جالساً والناس حوله . ورأت سلمى بين يديهِ رأس الحسين وقد تعفر وتلصقت شفتاه وبانت ثناياه وتلطخ شعر لحيتهِ بالدماء والتراب حتى اصبح الشعر كتلاً متجمدة وابن زياد ينظر الى الراس ويبتسم وفي يدهِ قضيب يضرب بهِ ثنايا الحسين . ورأت بجانب ابن زياد شيخاً جليل القدر عرفت بعد ذلك انهُ زيد بن ارقم صاحب الرسول . فلما رآهُ الشيخ يضرب بالقضيب ثنايا الحسين قال لهُ « ارفع قضيبك عن هاتين الشفتين فوالله الذي لا اله غيره لقد رأيت شفتي رسول الله (صلعم) عليهما ما لا احصيهِ » قال الشيخ ذلك وانتحب باكياً

فقال لهُ ابن زياد « ابكى الله عينيك . . . اتبكي لنتح الله ؟ . . ولولا انك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك »

فنهض الشيخ من بين يديهِ وخرج

ثم انتبه ابن زياد الى النساء الداخلات فالتفت الى زينب وقال « من هذه التي انحازت وجلست ناحية ومعها نساؤها »

فلم تجبهُ زينب

فاعاد ثانية وسأل عنها فقال لهُ بعض امائها « هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله »

فنهض ابن زياد حتى اقبل عليها . فلما رأتهُ سلمى مقبلاً بالغت في التنقع لئلا يعرفها . اما هو فحسبها من جملة جواري زينب او خدمها فلم يلتفت اليها بل خاطب زينب قائلاً « الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم واكذب احدوثتكم »

فقالت زينب « الحمد لله الذي اكرمنا بنبيهِ محمد (صلعم) وطهرنا من الرجس تطهيراً . انما يفضح الفاسق ويكذب الفاجر وهو غيرنا »

فقال ابن زياد « كيف رأيت فعل الله باهل بيتك »

قالت « كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم وليجمع الله بينكَ وبينهم يوم

القيامة فيحاجون اليه و يخصمون عنده »

فغضب ابن زياد واستشاط . فقال له بعض اهل مجلسه « ايها الامير انها امرأة لا تؤخذ بشيء من منطقها ولا تذم على خطائها »

فالتفت ابن زياد اليها وقال « قد شفى الله نفسي من طاغيتك والعصاة من اهل بيتك »

فلما سمعت زينب ذلك الكلام احست بضعفها ورقت وبكت وقالت له « لعمري لقد قتلت كهلي وابدت اهلي وقطعت فرعي واجتثثت اصلي فان يشفك هذا فقد شُفيت »

فقال لها على سبيل التهكم « هذه سجاعة ولعمري كان ابوها سجاعاً شاعراً »

فقالت « مالمرأة والسجاعة ان لي عن السجاعة لشغلاً ولكن صدري ننث لما قلت »

الفصل السابع والماية

تتمة القظاعة

فهزّ ابن زياد رأسه هزة التهديد وتحول الى مكان رأى فيه علياً ابن الحسين وهو لا يزال مريضاً فقال له « من انت ؟ »

فقال « أنا عليّ ابن الحسين »

فالتفت ابن زياد الى من حوله وقال « ألم يقتل الله علي بن الحسين ؟ »

فاجابه علي وقال « قد كان لي أخ يسمى علياً قتله الناس »

فقال ابن زياد « بل الله قتله »

فقال علي « الله يتوفى الانفس حين موتها »

فغضب ابن زياد وقال « ويلك جرأة لجوابي ؟ وفيك بقية للرد عليّ ؟ اذهبوا به فاضربوا عنقه »

فلما سمعت زينب ذلك نهضت نهضة الاسد وتعلقت بالغلام واعتنقته وقالت « والله لا أفارقه فان قتلته فاقتلني معه »

فنظر ابن زياد اليها واليها ساعةً ثم قال « عجباً للرحم ! .. والله اني لأظنها ودّت اني قتلتها معه دعوه فاني أراه لما به » ثم قام من مجلسه حتى خرج من القصر ودخل

المسجد فصعد المنبر فقال « الحمد لله الذي أظهر الحق واهله ونصر أمير المؤمنين يزيداً وحزبه وقتل الكذاب ابن الكذاب وشيعته »

فقام اليه عبد الله بن عفيف الازدي وكان من شيعة علي فقال له « يا عدوّ الله ان الكذاب انت وابوك والذي ولاّك وابوه . يا ابن مرجانة تقتل أولاد النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين »

فقال ابن زياد « عليّ به »

فاخذته الجلاوزة ثم قتلوه . وكان قتله قاضياً على المجاهرة بنصرة اهل البيت

اما سلمى فانها لم تفتر لحظة عن التفرس في وجوه الناس والتسمع لما يتصل اليها من احاديثهم لعلها تسمع شيئاً عن عبد الرحمن او عامر فلم تقف لهما على اثر ولا هي قادرة على الخروج الى المدينة للبحث عنهما لانها معدودة من جملة نساء زينب ولا بد من ارسالها معهنّ مخفورة الى دمشق . ولم يكن لها أمل في بقاء عبد الرحمن لو لم تسمع الناسك يقول ببقائه . على انها حملت قوله على غرض له فلم تصدقه — ولكن الانسان مفطور على التعلق بحبال الآمال ولو كانت اوهى من نسيج العنكبوت

اما ابن زياد فامر برأس الحسين فداروا به في سكك الكوفة على رمح ولم يبق احد الاّ رآه وفيهم من شمت بموته وهم قليلون ولكن اكثرهم ودوا انهم لم يقتلوه

لا شك ان ابن زياد ارتكب بقتل الحسين جريمة كبرى لم يحدث أفظع منها في تاريخ العالم . ولا غرو اذا تظلّم الشيعة لقتل الحسين وبكوه في كل عام ومزقوا جيوبهم وقرعوا صدورهم اسفاً عليه لانه قتل مظلوماً . ولكن القاتلين يعتذرون بانهم قطعوا دابر الفتنة بقتله فلو ابقوا عليه ولو في السجن لما امنوا قيام شيعته وعصيانهم . ولو كان وحده المطالب بالخلافة دون يزيد لكانت مذبحة كربلاء قاضية بخلو الجو لبني أمية ولكنهم حاربوا حروباً هائلة قبل ان يخلص لهم الملك

الفصل الثامن والماية

السفر الى دمشق

وبعد ان طافوا بالرأس في اسواق الكوفة امر يزيد جماعة من رجالو ان يحملوا راس الحسين ورؤوس اصحابو ومن بقي من اهل بيت الحسين الى دمشق ليرى يزيد رأية فيهم [1] . فحملوا الاحمال وقاموا يطلبون الشام وسلمى في جملة الاسرى لاتفارق زينب وسكينة وفاطمة وكانت تعزية كبرى لهن . ولم يكن عالمًا بحالها الا زينب ولكن مصابها شغلها عن الافتكار معها بامر عبد الرحمن وعامر ولم تخبرا سلمى على فتح ذلك الحديث

وكان يزيد بن معاوية بعد ان امر ابن زياد على الكوفة واوصاه بدفع الحسين لم يهدأ لهُ بال وهو يفكر في حال هذه الشيعة وماذا عسى ان يأول اليو امر الخلافة لعلمو ان قلوب المسلمين مع الحسين . ولكنهُ كان شديد الثقة بابن زياد لما يعلمهُ من دهائو وشدتو ودهاء ابيو زياد من قبلو وكان يرجو ان يكون الابن لهُ كما كان الاب لابيو . على انهُ لم يكن يتوقع بلوغ الثقة بابن زياد حتى ينتك بالحسين واولاده واهل بيتو الى هذا الحد

وكان لا ينفك عن استطلاع الاحوال ممن يرد عليو من رسل ابن زياد حينًا بعد حين . فعلم بنهوض الحسين من مكة وقدومو الى الكوفة ثم لم يعد يسمع شيئًا . حتى اذا كان في مجلسو ذات يوم وقد جلس الامراء والاعيان بين يديو واذا بغلامو دخل وانبأهُ ان بالباب رسولاً من الكوفة . فخفق قلب يزيد لما يتوقعهُ من الخبر الجديد فقال « ليدخل »

فدخل رجل عليو امارات السفر وقد تزمل بعباءتو واعتمَّ بكوفيتو فابتدره يزيد قائلاً « من الرجل »

قال « زحر بن قيس رسول عبيد الله بن زياد الى امير المؤمنين »

قال « وما وراءك »

قال « ابشر يا امير المؤمنين بفتح الله ونصره »

فاستبشر يزيد واشرق وجههُ وابتسم وقال « بشرك الله بالخير »

قال « اعلم يا امير المؤمنين ان الحسين بن علي ورد علينا في ثمانية عشر من اهل بيتو وستين من شيعتو فسرنا اليهم فسألناهم ان ينزلوا على حكم الامير عبيدالله بن زياد او

---

(١) كتاب الارشاد

القتال فاختاروا القتال »

فقال يزيد « وهل قاتلتموهم »

قال « نعم يا امير المؤمنين اننا عدونا عليهم مع شروق الشمس فاحطنا بهم من كل ناحية حتى اذا اخذت السيوف مآخذها من هام القوم جعلوا يهربون الى غير وزر ويلوذون بالآكام والحفر كما لاذ الحمائم من صقر »

فصاح يزيد « بورك فيكم وشد ازرنا بكم »

فقال زحر « ثم والله ما كان الا جزر جزور او نومة نائم حتى اتينا على آخرهم . . . »

فاندهش يزيد وقد بغت وقال « وهل قتلتموهم جميعاً »

قال « نعم يا مولاي وهاتيك اجسادهم مجردة وثيابهم مرملة وخدودهم معفرة تقهرهم الشمس وتسفي عليهم الريح . زوارهم العقبان والرخم بقاع سبسب »

فصاح يزيد صيحة قوية وقال « والحسين ؟ . . »

قال زحر « والحسين ايضاً »

فدمعت عينا يزيد واطرق وهو يقول « لعن الله ابن سمية . . . قد كنت ارضى من طاعتكم بدون قتل الحسين . . اما والله لو اني صاحبه لعفوت عنه . . . فرحم الله الحسين »

قال ذلك وانتهر الرسول واخرجه من مجلسه ولم يصله بشيء. (١)

الفصل التاسع والمائة

النـدم

فخرج الرسول ويزيد لا يزال مطرقاً وقد اقطب حاجبيه وبان الحزن في جبهته . وفيما هو في ذلك سمع رجلاً في صحن الدار يقول « جئنا برأس احمق الناس والألمهم »

فصاح يزيد « ومن ينادي هذا النداء »

قالوا « هذا محفر بن ثعلبة ومعه جماعة يقولون انهم جاؤا برأس الحسين »

فقال يزيد « خسئ محفر . . . والله ان ما ولدت ام محفر ألأم واحمق منه » ثم

(١) ابن الاثير ج ٤

قال « ابن الرجل؟ ادخلوا به عليّ »

فادخلوه عليه ورأس الحسين على كمه وقد تصاعدت ريحه . فاقبل الرجل حتى وضع الرأس بين يدي يزيد على البساط ومنظره ينفطر له القلب وقد تكمش جلده وتجمد شعره واختلطت رائحة الطيب برائحة الدم المتعفن وتغير لون الشعر بما خالطه من الدم والتراب . فلما وقع نظر يزيد عليه اقشعر بدنه وتصور هول ذلك العمل الفظيع . وتذكر انه يرى راس ابن بنت الرسول فتخشع وتهيب

وما كاد ينظر الى الراس حتى خرجت اليه من وراء الستار امرأة مقنعة هي احدى نسائه واسمها هند بنت عبد الله . فاستغرب القوم خروجها على تلك الحال وهمّ يزيد ان يسألها عن سبب خروجها فصاحت فيه وهي تشير باصبعها الى الراس قائلة « يا امير المؤمنين أرأس الحسين بن علي بن فاطمة بنت رسول الله ؟ . . »

قال وهو يتلجلج بكلامه « نعم فاعولي عليه وحدّثي على ابن بنت الرسول وصريحة قريش . . . عجل عليه ابن زياد فقتله . . قتله الله ؟ . . . »

فاخذت بالعويل والبكاء ثم ادخلوها الى خدرها . واذن يزيد للناس فدخلوا عليه والراس بين يديه وهو ينظر اليه ومعه قضيب ينكت به ثغره ويقول « ان هذا واياانا كما قال الحصين بن الحمام

ابى قومنا ان ينصفونا فانصلت فواضب في ايماننا تقطر الدما
يفلقن هاما من رجال اعزة علينا وهم كانوا اعق واظلما

وكان في جملة الحضور رجل من اصحاب الرسول اسمه ابو برزة الاسلمي فلما رأى يزيد ينكت ثغر الحسين قال له « انتكت بقضيبك في ثغر الحسين ؟ . . . اما والله لقد اخذ قضيبك في ثغره مأخذاً لربما رأيت رسول الله (صلعم) يرشفه . اما انك يا يزيد تجيء يوم القيامة وابن زياد شفيعك ويجيء هذا ومحمد شفيعه » قال ذلك ثم قام وولى[1]

فلما سمع يزيد قول الرجل نظر الى الراس وعيناه لاتزالان تدمعان وقال « والله ياحسين لو كنت انا صاحبك ما قتلتك » ثم التفت الى الناس وقال « اتدرون من ابن اتى هذا ولماذا قتل — لانه لما علم ان الله اكرم يزيداً بالخلافة قال اني عليٌّ خيرٌ من ابيه وامي فاطمة خير من امه وجدي رسول الله خير من جده وانا خير

(١) ابن الاثير ج ٤

منه واحق بهذا الامر (الخلافة) منه . فاما قوله ابوه خير من ابي فقد تحاجّ ابي وابوه الى الله وعلم الناس ايهما حكم الله له . واما قوله امه خير من امي فلعمري فاطمة بنت الرسول خير من امي . واما قوله جده رسول الله خير من جدي فلعمري ما احد يؤمن بالله وباليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدلاً ولا نداً . ولكنه انما اتى من قبل فقهه ولم يقرأ قبل اللهم مالك الملك »

الفصل العاشر والماية

فاطمة بنت الحسين

فلما فرغ يزيد من كلامه علم الناس انه انما قال ما قاله تخفيفاً لهول فعلته . ولكنهم لم يجسر احد منهم على قولٍ فسكتوا . ثم سمع يزيد جلبة في الدار فقال « ما هذه الجلبة »

فقال غلامه « هؤلاء نساء الحسين في صحن الدار »

قال « ادخلوهن »

فادخلوهن وفيهن زينب اخت الحسين ومعها فاطمة وسكينة بنتا الحسين وبقية النساء وفي جملتهن سلمى . وكانت سلمى مقنعة كسائر النساء فلم تكن تخاف ان يعرفها يزيد وبالغت في التقنع لاخفاء امرها ولكنها ما لبثت ان رأت تلك القاعة حتى تذكرت يومها في دار يزيد وموقف عبد الرحمن هناك فتجددت احزانها على انها صبرت نفسها لترى ما يكون

اما سكينة وفاطمة فتطاولتا من وراء الناس لتريا راس ابيهما و يزيد يسترهُ عنهما فلما رأتا الراس صاحتا وصاح سائر النساء وولولت بنات معاوية . وقالت سكينة وكانت اكبر من فاطمة « أبنات رسول الله سبايا يا يزيد ؟ »

فاثر قولها فيه فقال « يا ابنة اخي اني لهذا كنت اكره »

فقالت « والله ما تركوا لنا خرصاً »

فقال « ما اتى اليكن اعظم مما اخذ منكنّ »

فقام رجل من الحضور وهو من اهل الشام وقال ليزيد « هب لي هذه » يعني فاطمة

فلما سمعت فاطمة قولهُ ارتعدت فرائصها وعلمت انهُ يريد ان يأخذها سبية فخافت وامسكت بثوب زينب . فالتفتت زينب الى الرجل وقالت « كذبتَ ولؤمت ماذلك لك ولا لهُ »

فغضب يزيد وقال لها « كذبتِ والله ان ذلك لي ولو شئت ان افعلهُ لفعلتهُ »

قالت « كلا والله ما جعل الله لك ذلك الاَّ ان تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا »

فغضب يزيد واستطار ثم قال « اياي تستقبلين بهذا ؟ . . . انما خرج من الدين ابوك واخوك »

قالت زينب « بدين الله ودين ابي واخي وجدي اهتديت انت وابوك وجدك »

قال « كذبتِ يا عدوة الله »

فقالت « انت اميرتشتم ظالمًا وتقهر بسلطانك (١) . . . »

فاستحيى وسكت

ثم امر بعلي بن الحسين فادخلوهُ عليهِ والغلُّ في يدهِ ورقبتهِ وهو غلام صغير وقد تعب من حملهِ على الاقتاب في اثناء الطريق وكان المرض قد فارقهُ ولكنهُ ما زال ضعيفًا مهزولاً . فوقف الغلام بين يديهِ وقال « لو رآنا رسول الله (صلعم) مغلولين لفكَّ عنا »

فخجل يزيد وقال « صدقت » وامر بفك غلهِ عنهُ

فقال علي « لو رآنا رسول الله (صلعم) بعداء لأحب ان يقربنا »

فأمر بهِ فقرب منهُ وقال لهُ يزيد « ايه يا علي بن الحسين . . ابوك الذي قطع رحمي وجهل حقي ونازعني سلطاني فصنع الله بي ما رأيت »

فقال علي « ما اصاب من مصيبة في الارض ولا في انفسكم الاَّ في كتاب من قبل ان نبرأها ان ذلك على الله يسير لكيلا تأسوْا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لا يحب كل مختال فخور »

فقال يزيد « وما اصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم » ثم سكت عنهُ

(١) ابن الاثير ج ٤

الفصل الحادى عشر والماية

خروج سلمى

وكانت سلمى في اثناء ذلك تتنفس من شدة الغضب وتوقعت ان يأول الامر الى الفضيحة وتهيأت للدفاع باي وسيلة كانت . فلما رأت يزيداً سكت هدأ روعها ثم رأته يشير بيده ان يخرجوهنّ فخرجوا بهنّ الى دار النساء فخافت ان ينفضح امرها هناك اذ لا تستطيع البقاء مقنعة بين النساء فاحتارت في امرها ولم ترَ خيراً من ان تشكو حالها الى زينب وتستشيرها لانها كانت عالمة بحكايتها مع يزيد

فلما خرجوا بهنّ من مجلس يزيد وادخلوهن دار النساء اقبل عليهنّ نساء معاوية وسائر اهل بيته وبكين معهنّ واقاموا المأتم وسلمى تتظاهر بالانشغال وهي ترى نساء معاوية وبينهنّ تلك العجوز وتستتر منها وتنتظر فرصة لتخاطب زينب بالأمر

وفي ذلك المساء جاءتها على انفراد واستشارتها في امرها

فقالت زينب « لا تظني اني نسيت حالك وقد كنت وانا في بكائي وتحيبي افكر في امرك . فاعلمي يا بنية ان يزيداً خيّرنا في الاقامة حيث نشاء وسنختار الاقامة في المدينة فاذا شئت المضي معنا فاهلاً بك ومرحبًا »

قالت سلمى « اني على ما تشائين يا مولاتي ولكنني ما زلت آملة ... و... » وبكت

فادركت زينب انها تريد املها بعبد الرحمن فقالت « لا قطع الله لك املاً ... » وسكتت لانها لا تدري ما آل اليه حال عبد الرحمن وعامر بعد مسيرها الى الكوفة وان كانت ترجح موتهما . وبعد السكوت برهة قالت زينب « ذلك امر سننظر فيه بعد خروجنا ولكنني لا ارى بقاءك هنا الاّ خطرًا »

قالت « وانا اراه كذلك فهل تأذنين لي بالخروج الى الغوطة فاقيم في دير خالد ريثما تخرجون فاكون معكم ان شاء الله » وهي انما اختارت الدير لكي تزور قبر والدها وتبكيه مرة اخرى

فقالت زينب « لقد رأيت رأياً حسناً . امكثي هناك حتى نخرج »

ثم تظاهرت زينب بامر تريد انفاذ سلمى به الى خارج القصر واخرجتها منه فخرجت وهي كالضائعة الفاقدة الرشد لفرط ما هاج من اشجانها هناك اذ تذكرت كل ما قاسته من الاهوال في ذلك المكان . فلما اصبحت خارج القصر سارت في اسواق المدينة تطلب الغوطة حتى اذا اشتمت رائحة البساتين ووقع بصرها على تلك الغياض تذكرت حالها مع عبد الرحمن وثارت احزانها فسارت نوًّا تلتمس قبر والدها وقد اشتد بها اليأس ولم تعد ترى في الحياة لذة

الفصل الثاني عشر والماية

الندب

وكانت الشمس قد مالت الى الغروب فترددت سلمى بين ان تحول الى الدير او تسير الى قبر والدها والليل قريب . فاشتد بها الشجن وساقتها خطواتها الى تلك الجميزة وهي لا تعلم حتى اطلت على المكان وقد غابت الشمس فاسرعت الى القبر والقت نفسها على التراب واخذت في البكاء والنحيب وهي لا تبالي بما يتهددها من الظلام المقبل . وما زالت تبكي حتى بللت ذلك التراب وجعلت تندب والدها بصوت رخيم قد اضعفه التعب وتقول « ويلاه يا ابتاه قم وانظر الى فتاة خلفتها وخلفت لها الشقاء وحملتها فوق ما تحتمله النساء . شبيتُ وشب معي حب الانتقام . . ولكن واأسفاه لم اجد الى الانتقام سبيلاً . . . قم وانظر ما جرى . . . انظر الى فتاة عاشت يتيمة حزينة لم يكن لها من معدات الحياة الاَّ حبيبٌ يحبك وقد بذل نفسه من اجل الانتقام لك . ولكنه والهفي عليه لا أدري ما آل اليه امره . . . آه من ينبئني ببقائه حياً فاسعى اليه . . . ولكن انى له الحياة وقد كُتب القتل على الصالحين والابرياء . . . . . هل خطر لك يا أبتاه وانت في قيد الحياة ان الناس سينقمون على الحسين ابن بنت الرسول ويقتلونه ويحملون رأسه من الكوفة الى البصرة وقد تعفر وتصاعدت ريحه ويتركون جثته طعامًا لغربان كربلاء ؟ . هل خطر لك ان الشفتين اللتين قبلهما الرسول تصيحان العوبة بين يدي يزيد بن معاوية وعبيد الله بن زياد . . . آه واأسفي على اهل ذلك البيت كيف سفكت دماؤهم وقطعت رؤوسهم وتبددت ابدانهم . . . واحرقة قلباه على الحق كيف داسه الظالمون باقدامهم . . . لا

أظنني اذا استشرتك في البقاء على هذه الحال الاّ ناصحًا لي ان اموت والحق بك ... وهل لي غير اللحاق بك سبيلاً الى الراحة ؟ ... قضي الامر ومات الحسين ومات ابناؤه وابناء اخيه وسائر اهله معه ... سقط عماد بيت الرسول . ذهب الحق ضحية الباطل ..... فهل من اسف على فتاة حقيرة مثلي .... »

قالت ذلك وهي جاثية فوق القبر تلتقي ترابه بين كفيها وتستنشق رائحته ملء خياشيمها . ثم التفتت الى ما حولها فاذا هي منفردة في ذلك البستان وليس حولها غير الاشجار بلا اظلال لتكاثف الظلام . فارتعدت فرائصها واشتغلت بالخوف عن الحزن ومكثت صامتة وهي لا تسمع غير طنين البعوض وحشرشة الخنافس وحفيف الورق اذا هبت الريح . فندمت على مجيئها في ذلك الليل وجعلت تمسح عينيها بكمها وتتفرس بما يحدق بها فلا ترى لنظرها مفرًا لشدة الظلام . وتعاظم بها الخوف حتى لم تعد تستطيع الحركة لئلا تسمع صوت خطواتها فترتعد

وفيما هي في تلك الحيرة تذكرت ليلة زارت ذلك القبر ومعها عامر وعبدالرحمن . وتصورت عبد الرحمن واقفًا امامها وخنجره يده يتعهد بقتل يزيد . فاختلج قلبها في صدرها حتى كادت تسمع صوت خفقانه وعادت الى الحزن وعاد اليها البكاء فقالت « ابن انت يا عبد الرحمن ياحبيبي يا ابن عمي ياخطيبي يا أملي وسعادتي ... كنتُ قانعة من الدنيا ببقائك ... انت املي انت سندي انت منيتي انت حياتي ... ابن انت يا عبد الرحمن ؟ .. هل انت حيٌّ بعد ؟ ... هل تسمعني اذا ناديتك ؟ ... انك تحسبني ميتة وانا حية . هل لك من يخبرك ببقائي اذا كنتَ في عالم الاحياء ؟ .. يجب ان تكون حياً .. لا لا .. انت لم تمت ... كيف تموت ؟ .. كيف يخل ذلك الجسم .. كيف يصير ترابًا .... هل تجسر الديدان على الدنو من ذلك البدن ... ألا ينهب الدود من قامتك ... يا احب الناس اليّ ... عبد الرحمن ..... عبد الرحمن .. قل لي هل انت حيٌّ فاحب الحياة من اجلك .. ام انت ميت فاسرع في اللحاق بك ..... نعم انت حي .. ابن انت ؟ .. »

ثم اجفلت بغتة ومسحت عينيها بطرف كمها وتباعدت وهي تقول « ويلاه ماذا أرى ... أرى عبد الرحمن واقفًا امامي وعيناه شاخصتان اليّ ... ولكنه لا يكلمني .. تكلم .... عبد الرحمن ! ... كلمني تقدم اليّ .. انظر الى دموعي قد بللت الثرى ... عبد الرحمن تعال يا حبيبي .... ويلاه واأسفاه ..... انها اضغاث

احلام .. اني لا أرى احداً .... ام انا أرى روحاً ؟ روح حبيبي عبد الرحمن تجلت لي ..... حدثيني يا روح عبد الرحمن او خذيني اليو .... »

ثم سكتت لحظة ريثما ارتاحت وعادت الى البكاء وهي تقول « كيف لا يقتلونهُ وقد قتلوا الحسين واولاده .... قتلوه ... نعم قتلوه ... لا لم يقتلوه ... » ثم التفتت نحو السماء فتراءت لها النجوم من خلال الاغصان فقالت « لقد تعودت ان اسمع مناجاة الارواح في هذا المكان .... هنا سمعتُ الهاتف يقول وبشر الذين ظلموا بعذاب اليم .... ويلاه اين ذلك العذاب ؟ .. انهُ عذاب ولكنهُ لي انا التعيسة ... الشقية ... » ثم اوغلت في البكاء وهي تتلاعب بذلك التراب وتستنشقهُ فعفرت وجهها ويديها وثيابها وهي لا تدري حتى انهكها البكاء واخذ التعب منها ماخذاً عظيماً فانتبهت لنفسها وودت لو انها اجّلت تلك الزيارة الى النهار ونظرت الى ما يحيط بها من جيوش الظلام فعاد الخوف اليها وصمتت واستكنت فاحست كأن جماعة من الناس وقوف حولها يحدقون فيها بابصار كالنار . فجمد الدم في عروقها وكل شيء حولها ساكن حتى الهواء

الفصل الثالث عشر والماية

الرعب

وفيما هي في تلك الحال وقد امسكت تنفسها لئلاً يكدر ذلك السكون واصبحت كالجماد لفرط خوفها ووحشتها سمعت سعالاً قوياً فوثبت من مكانها بالرغم عنها وصاحت صيحة الرعب ولم تكد تحقق جهة الصوت حتى رأت شبحاً قادماً اليها من وراء شجرة بالقرب من الجميزة فصاحت « ويلاه من انت ... من أنت ... من الجن أم من الانس ... خف من الله وابتعد عني »

ولم تتم كلامها حتى سمعت قائلاً « يقول لا تخافي يا سلمى يا ولدي لا تخافي »

فتبادر الى ذهنها لأول وهلة ان والدها قام من القبر فقفّ شعرها واقشعر بدنها ثم دنا الشبح منها فاذا هو الشيخ الناسك . فلما عرفتهُ وقعت مغشياً عليها فانهضها وجعل يروّح لها بيديه وفمهِ حتى أفاقت فقال لها « سامحيني يا سلمى على هذا السعال

فقد حدث بالرغم عني وما كنت مزعجك الاَّ مكرهًا » فتشددت وجلست وهي تقول « ابن عبد الرحمن ... قل لي أيها الشيخ — ان كانت فيك كرامة .. او ادفني في هذا التراب الآن ... ادفني اقتلني ... »

فلم يجبها الشيخ الاَّ بالبكاء بصوت عال وكانهُ اصيب بجنة . وتركها وجعل يحثو التراب على وجهه ويبكي بكاء الطفل ويقول « يا حبيبي يا حجر ... متَّ في سبيل نصرة الامام علي ... قم وانصر ابنهُ الحسين بل قم وابكِ وابكِ أولاده وسائر اهلهِ ..... فقد ماتوا جميعًا ... هنيئًا لك انك جالس معهم الآن في دار البقاء .... »

فلما سمعتهُ سلمى يقول ذلك ورأت حالهُ نسيت نفسها وتحيرت . في أمره وتذكرت ما سمعتهُ منهُ ليلة مقتل الحسين في كربلاء. فازدادت حيرتها و ودت ان تعرف ما بعثهُ على ذلك فقالت « من انت ايها الشيخ ... قل لي وافرج كربي من انت ؟ »

فلما سمع كلامها تغيرت حالهُ وسكت كانهُ ندم على ما فرط منهُ ثم تجلد وقال لها « انك تسألينني عن امر ليس من شأنك يا سلمى ... اسكتي وابكي ماشئت ... واذا شئت ان تعلمي من هو الشيخ الناسك فلسوف تعلمين ... ستأتي ساعة ينكشف بها امره وارجو ان لا ينكشف الاَّ كما يريد هو »

فسكتت سلمى وخافت ان يبدو منهُ ما لا تريده ثم ارادت ان تغير الموضوع فقالت « اخبرني ابن هو عبد الرحمن ... هل هو حي كما قلت لي ؟ .. »

قال « لا اعلم ... ولو علمت ما كنت لأقول لك لانك لا تصغين الى قولي »

قالت « قل ... بالله قل ... اني مصغية »

قال « اتعملين كما اقول لك ؟ »

قالت « نعم افعل كل ما تريده ولو قلت لي ادفني نفسك حية لفعلت »

قال « لا اقول ذلك ولكنني اطلب اليك ان تتركي هذا العالم وتأتي معي الى دير نقيم فيهِ لا نرى فيهِ الناس ولا نسمع بمظالمهم »

فجاء ذلك الاقتراح صدمة قوية على قلبها فقالت « وعبد الرحمن ؟ »

قال « قلت لك لا تسألينني بل افعلي ما أقولهُ لك »

فسكتت وقد تحيرت بماذا تجيبهُ ولكنها عولت على الاصغاء لقولهِ فقالت « واي دير تريد أن نقيم فيهِ .. أنقيم في هذا الدير . »

قال « كلاَّ لا نقيم في هذا الجوار انما لم نجد فيهِ مغنماً هيأ بنا الى دير بجيراء في

بصرى وان كان يعز عليّ ان افارق هذا القبر » قال ذلك واختنق صوته

قالت « واين هو هذا الدير »

قال « هو على بضعة مراحل من هذا المكان في جهات البلقاء »

الفصل الرابع عشر والماية

الرحيل الى الدير

وكانت سلمى قد استأنست بالناسك وذهب اضطرابها وخوفها ولما آنست انعطافه اليها وبكاءها على والدها زاد استئناسها به وتوسمت فيه شيئاً ترجو ان يفرج كربها ولكنها ما زالت في ريب من أمره ولم تجسر على استفهامه عن حقيقة حاله بعد ان سمعت ما سمعته من تمنعه على انها عوّلت على استطلاع ذلك في فرصة أُخرى

فلما رأت تعويله على السفر الى بصرى والاقامة في الدير شق عليها الانزواء في الديور وهي في ريعان الصبا ولم تذق راحة منذ فتحت عينيها ولم تنل غير الفشل في مقاصدها . واعظم ما اصابها ضياع حبيبها ولولا انفطار الانسان على الامل ولو في المحال لقطعت بموته قطعاً باتاً . ولبثت برهة تفكر في سفرها الى بصرى وتردد في ذهنها امر خطيبها وقد علمت من زينب انه سار الى الكوفة فكيف تطلب الدير وهي لم تستوثق من وجوده هناك او عدمه

فلما رآها الشيخ ساكتة قال « ما الذي يجول في خاطرك يا سلمى .. اظنك تترددين في سفرك الى دير مجيراء ؟ وكأني بك تقولين كيف اسير الى بصرى وقد تركت عبد الرحمن في الكوفة — فاعلمي يا سلمى اني لو لم أيأس من وجوده هناك ما دعوتك الى ذلك الدير . او لو علمت اين هو ولو في الصين لنصدته كما قصدتك حتى لقيتك هنا » قال ذلك وصوته يتلجلج كأن البكاء يعيقه عن الكلام

فلم تردد سلمى من ذلك الا اسفاً لانها كانت لا تزال عالقة الذهن ببقاء عبد الرحمن في الكوفة — فاذا لم يكن هناك فاين يكون ؟ فازداد بلبالها وقلقها فلم تجد بدّاً من تسليم قيادها الى ذلك الشيخ وهي تعتقد حسن قصده وصدق غيرته في سبيل الامر الذي قامت هي لاجله . على انها لولا بقية امل فيها بلقاء عبد الرحمن ما فضلت مكاناً على الدير

او القبر . . ثم قالت للشيخ « وهل اترك بقية بيت الرسول وقد فارقت زينب على ان انتظرها هنا ربما تخرج مع اهل بيتها الى المدينة فاسير معها »

قال « لا ارى ان تسيري معهم فقد كفاك ما لاقيتو من الاهوال في رفقتهم تعالي الى دير بجيراء فانهُ ذو كرامة ولتقم هناك حتى يأتي الله بالفرج »

قالت « اني فاعلة ما تريد والاتكال على الله ولكن اين نبيت الليلة ؟ »

قال « نبيت هنا ولا خوف علينا والبلاد في امانٍ . . نامي انت وانا ساهرٌ لاني قد نمت طول النهار »

وباتا تلك الليلة وسلمى في بحر من الهواجس لا تدري ما يصير اليهِ امرها

فلما اصبحا قال الشيخ « اعلمي يا بنية ان طريقنا من هنا الى بصرى كثير الوعر ولا بد لنا من قطعهِ على اقدامنا »

قالت « لا يهمني ذلك فما انا اولى بالراحة منك وانت شيخ وانا صبية »

قال « اعلمي اننا سنسير بضعة ايام نحو الجنوب حتى نقبل على بصرى مدينة الروم ومركز تجارة بلاد العرب » . فسكتت ولم تجب ومعنى سكوتها انها لا تراجعهُ في امر بريد

فقال لها « امكثي هنا ربما اعود اليك »

فتركها ومضى ثم عاد ومعهُ جراب فيهِ زاد وفاكهة فناولها وقال « هذا طعام يكفينا يوماً كاملاً ورزق الغد الى الغد » فاكلت

الفصل الخامس عشر والمائة

بصرى

وبعد مسير بضعة ايام سيرًا بطيئًا اشرفا على مدينة بصرى (وهي غير البصرة في العراق) نحو العصر وكانت سلمى قد تعبت واستوحشت وتغيرت حالها ولم تذهب صورة عبد الرحمن من ذهنها . ولكنها لا ترى سبيلاً اليهِ لانها لا تعلم مقرهُ . وكانت قد استسلمت الى الشيخ الناسك لاعتقادها انهُ انما يسير بها الخير وانهُ ذو كرامة وما تحسبهُ يخطو خطوة الاَّ لغرض مقدر نفعهُ

فلما اطلاَّ على بصرى وهي اكبر مدن حوران في ذلك العهد انبهرت سلمى لعظمها

وعمرانها وخصبها في تلك البلاد الجرداء التي يندر فيها الشجر ولا اثر فيها للخشب ورأت خارج المدينة من جهة الغرب بحرًا لامعًا بما ينعكس عنهُ من أشعة الشمس فسألت الشيخ الناسك عنهُ فقال « ما هو بحر يا بنية وانما هو حوض كبير يخزن البصريون مياههم فيهِ أيان الشتاء ليستقوا منها في الصيف وهو عبارة عن خزان للمياه طولهُ نحو ١٢٠٠ زراع وعرضهُ ٥٠٠ زراع وكان لبصري أحواض أخرى تهدمت »

ثم قال « اعلمي يا سلمى ان بصرى مدينة قديمة عاصرت دول اليهود فاليونان فالرومان وفيها ابنية رومانية ويونانية وسريانية »

فالتفتت سلمى الى تلك المدينة والشيخ واقف بجانبها فاذا هي بديعة الانتظام يكتنفها سور بزيد محيطهُ على أربعة اميال ويحيط بالمدينة غياض وبساتين وانواع الاشجار والاثمار . ووراء ذلك سلاسل جبال حوران في عرض الافق . ورأت لون ابنية المدينة مغبرًا كانها تلوثت بالدخان فقالت « وما الذي غير لون هذه الابنية »

قال ذلك هو لون احجار هذه البلاد فان فيها حجرًا اسمر يسمونهُ الحجر الحوراني هذا لونهُ وما يزيدك عجبًا ان ابنية حوران لا يدخل في بنائها شيء من الخشب وانما هم يصنعون سقوف بيوتهم واجنحة ابوابها ونوافذها من الحجر الصلد . . . »

فاشتاقت سلمى الى النزول للمدينة لمشاهدة اسواقها فقال لها الشيخ « اذا اردت النزول اليها فما انا نازل معك لاني كما قلت لك لا آوي المدن ولا امرُّ بها . وزد على ذلك اني اعرف هذه المدينة كما اعرف بيتي فقد زرتها غير مرة وانا شاب وكنت على دين النصرانية وزرت كنائسها وحماماتها وشوارعها وقصورها فاذا هي من اعظم المدن [1] وربما سنحت لك الفرصة بعد حين بمشاهدتها واما الآن فتعالي معي الى الدير

الفصل السادس عشر والمائة

دير بحيراء

فلما سمعت قولهُ انهُ كان على دين النصرانية في شبابهِ تفرست في محياهُ فرأتهُ يشبه ان يكون كنديًا من قبيلة ابيها لان كندة كانوا نصارى حتى جاء المسلمون بلادهم فاعتنقوا

(١) اذا شئت الاطلاع على تفصيل وصف بصرى اقرأ الجزء الاول من رواية فتاة غسان صفحة ٢٥

الاسلام و زادها ترجيحًا ما رأته فيه من الغيرة على أبيها والانتصار لبيت علي . ولم يزدها كل ذلك الاَّ حيرة وشكًّا وهي مع ذلك لا تستطيع مخاطبة الشيخ في هذا الموضوع لئلاَّ يغضب فلم تر خيرًا من الصبر حتى يتأتى لها استطلاع الحقيقة

أما هو فقال ما قاله وسار فسارت هي في اثره حتى اشرفا على الدير فاذا هو بناءان احدهما كبير وفيه قبة فوقها صليب علمت سلمى انها كنيسة والآخر صومعة على راية . فمشيا نحو الكنيسة فلما اقبلا عليها تفرست سلمى في بنائها فرأتها مبنية على النمط الروماني واسمها كنيسة بحيراء . فدخلا صحنها حتى جاءا البيعة فرايا المكان ديرًا وفيه كنيسة وشاهدا الرهبان والقسوس وكلهم من الروم يتكلمون اللاتينية وبعضهم اليونانية والسريانية الممزوجة بالعبرانية وهي لغة تلك البلاد بعد السبي

فقالت سلمى « مالي أرى الناس هنا اخلاطًا من لغات شتى »

فقال « لان بصرى يا ابنتي عند النصارى مركز اسقفية بلاد العرب الكبرى وفيها يقيم رئيس الاساقفة ومنها يرسل الاساقفة الى الآفاق »

قالت « واين دير بحيراء »

قال « هذا هو الدير الآن واما المكان الذي كان يقيم فيه الراهب بحيراء فهو صومعة بجانب الدير » . قالت « هلم بنا اليه »

فخرج بها والرهبان لم يلتفتوا اليهما ولا استغربوا حالهما لان الدير ملتقى الغرباء وفيهم النساك والمهاجرون والمسافرون والمرضى واهل النذور وغيرهم

فلما خرجا من الدير التفتت سلمى الى الصومعة فاذا هي لا تشبه الابنية ولا صدقت انها بناء لانها عبارة عن خمسة أحجار ضخمة أربعة منها للجدران وواحد للسقف والباب حجر واحد مرتكز على مصراع يفتح ويغلق بسهولة . فاستغربت شكل تلك الصومعة فقالت « ما هذه الصومعة يا سيدي »

قال « ألم أقل لك أن هذه البلاد عدية الاخشاب واهلها يصنعون ابواب بيوتهم واجفنة نوافذهم ومقاعدهم ومنضاتهم وسائر آنية القعود والرقاد من الحجر . وقد يفعلون ذلك ولو كان المنزل مؤلفًا من عشر غرف او عشرين فانك لا تجدين فيه اثرًا للخشب » قال ذلك ومشى امامها وعكازه بيده وهو على ما وصفناه به من ارسال الشعر وعليه رداؤه القديم وسارت هي على اثره حتى دخلا الصومعة فلم يجدا فيها من الآنية الاَّ مصباحين معلقين امام صورتين احداهما تمثل مريم العذراء والاخرى تمثل السيد المسيح

وهناك صوراً أخرى لم يعرفاها ولم يجدا في الصومعة احداً

فلما دخلت سلمى تخشعت وتذكرت حالها فقالت للناسك « ها اننا الآن في دير بجيراء فكيف ترى ان تكون اقامتنا فيه »

قال « ان في الدير الذي خرجنا منه الآن غرفاً يقيم فيها المسافرون والدير يقدم لهم ما يحتاجون اليه من الاطعمة مجاناً فتقيمين انت في غرفة وانا اقيم في هذا البستان بالقرب منك فنجتمع في اثناء النهار ونفترق في الليل فتبيتين انت في الدير وانا ابيت تحت الشجر لاني عاهدت الله على ذلك كما تعلمين »

فاطرقت سلمى هنيهة ثم قالت « ولكنني لم ار في الدير نساء فكيف اقيم وحدي »

قال « في الدير نساء كثيرات واكثرهن يخدمن في اعداد الطعام وغسل الثياب »

قالت « ارى اذاً ان اجعل نفسي في جملة الخادمات لكي يكون في اقامتي فائدة »

قال « لقد رايت رأياً حسناً وانا اخاطب رئيس الدير بشانك »

الفصل السابع عشر والماية

الأخت مريم

وخرجا من الصومعة وسار الشيخ الناسك الى رئيس الدير وقال له « انني وابنتي هذه نريد أن نقيم بقية حياتنا في هذا الدير نعبد الله ونخدم عباده وانا شيخ ناسك لا آوي البيوت ولكن ابنتي هذه تريد ان تكون في جملة خدمة الدير في اعداد الطعام وتنظيف الغرف فهل تقبلوننا ؟ »

قال « اهلاً بكم ومرحباً »

واتوا سلمى بثوب تلبسه خادمات الدير فلبسته وهو لا يقضي على لابسه بشروط الرهبنة وانما يقضي عليه بخدمة الدير مجاناً. ثم سلموا سلمى الى قيمة الدير فرحبت بها واعجبت بما شاهدته فيها من الجمال والهيبة وما توسمته في عينيها من الذكاء وسمتها اسماً جديداً على العادة الجارية في مثل هذه الحال فصار اسمها مريم ولم يمض قليل حتى أحبها كل نساء

الدير و رجالو وكلهم معجب بما آنسوهُ من تعقلها وصدق خدمتها وقد زادها الانقباض والسكوت هيبة ووقارًا واصبحت بعد حين مرجع مشوراتهم وزهرة جمعياتهم

ولم يكن يمضي يوم لا ياتي الدير فيهِ وفود الاضياف من انحاء جزيرة العرب والعراق والشام وفيهم أهل التجارة واهل السياحة واصحاب النذور ونحوها . واصبحت الاخت مريم مضرب أمثال أهل الدير واضيافهم بالرزانة والتعقل

أما هي فكانت تجد في تلك الخدمة راحة عن مشاغل العالم واحست بسعادة لم تكن تشعر بمثلها من قبل لو لم يكن يعترض سعادتها تذكر عبد الرحمن وما مرَّ بها من الحوادث الغريبة . وتتوالي الايام كادت تنسى كل ذلك الاَّ عبد الرحمن فان صورتهُ لم تكن تذهب من مخيلتها ساعة

وكانت اذا اجتمعت بالراهبات او الرهبان ودار الحديث على الاحوال العمومية سمعت طعنًا قبيحًا بيزيد وسوء تصرفهِ وما يرتكبهُ من شرب الخمور والانشغال باللهو والطرب وضرب الطنابير وتربية الفرود . وكانت اذا سمعت ذلك ينقبض قلبها وتقول في نفسها « لا يصلح الحاكم الاَّ اذا أُتيح لهُ الاطلاع على سرائر رعيته وما يقولونهُ عنهُ في مجالسهم الخصوصية من انتقاد اعمالهِ وما يناجون بهِ ضمائرهم بشأنهِ . وهو اذا أُتيح لهُ ذلك لا يبقى على غيهِ ولو مهما بلغ من حمقهِ وجهلهِ ... كذلك كان يفعل عمر بن الخطاب فكان يتنكر ويخالط الناس فيسمع ما يقولهُ عجائزهم وصبيانهم وشبانهم وكهولهم ويتدبر ما يسمعهُ من الانتقاد فيصلح خطاءهُ فينصف المظلوم ويضرب على ايدي الظالمين فساعده ذلك على تشييد مملكة الاسلام وتقويم دعائمها على العدل والحق ... واما يزيد فانهُ انشغل بنسائهِ وخمورهِ واستبد في ابناء الرسول واضطهد اهل بيتهِ حتى كاد يودي بالاسلام والمسلمين ... كاد يهدم بناء اسسهُ الخلفاء الراشدون على كتاب الله وسنة نبيهِ ولو انهُ مشى بالناس من ارباب شوراه يطلعونهُ على حقيقة حالهِ وما يقولهُ الناس عن حكومتهِ وما يشكونهُ من ضعفهِ واهمالهِ لاضطر الاصلاح جهد طاقتهِ — ولعل الله اراد ذلك استدناء لاجلهِ حتى يخرج هذا الامر من يدهِ والله عليم بصير »

الفصل الثامن عشر والماية

زيارة يزيد

قضت سلمى في دير بجيراء سنتين و بعض السنة وهي على تلك الحال والشيخ الناسك معها حتى الفت الوحدة وكادت تنسى مصائبها لولا ذكرى عبد الرحمن . فانها كانت اذا ذكرته استغرقت في التأملات فيخيل لها احياناً انه لا يزال حياً فيتجدد املها بلقياه ثم لا يلبث ذلك الامل ان يضمحل من مخيلتها فتعود الى البكاء عليه في خلواتها والشيخ الناسك لا يشفي غليلها بخبر صريح او بنباء صحيح

واصبحت ذات يوم فرأت اهل الدير في هرج ومرج وقد اخذوا في تزيين الابواب والنوافذ ومد الابسطة وذبح الذبائح فسألت عما دعاهم الى ذلك فقيل لها ان الخليفة قادم الى حوران ولا بد له من المرور بالدير والاقامة فيه يوماً او يومين . فلما سمعت ذلك اختلج قلبها في صدرها وتذكرت اشجانها فانقبضت نفسها ولم ترَ لها مخرجاً من ذلك الاّ بملاقاة الشيخ الناسك . فلما أقبلت عليه رأته جالساً تحت شجرة وعكازه بيده ينكت الارض بها وقد بالغ في الاطراق كانه يفكر في امر ذي بال . فلما دنت منه رفع بصره اليها وعيناه تتلألآن كانهما شعلتان وابتدرها قائلاً « ان الطريدة اوشكت ان تقع في الفخ فهل تفلت منك هذه المرة ؟ »

فشعرت سلمى للحال بتجدد آمالها بالانتقام ولم تتمالك ان اجابت « ارجو ان لا تفلت والله المستعان »

قال « اعلمي ياسلمى ان يزيداً قادم الى الدير في مساء هذا اليوم وسيقيم هنا ليلة ريثما يستريح ثم يشخص الى حوران . فاذا استطعت امراً ينسينا مصائبنا واحزاننا فانك تفرجين كربنا وترفعين عن عاتق المسلمين ثقلاً كبيراً »

فاطرقت سلمى هنيهة ثم قالت « اني فاعلة ذلك باذن الله ... ولكن هل يسعدني الحظ بعد ذلك بلقيا عبد الرحمن ؟ »

قال « اذا نجحت في قتل هذا الرجل فانك تحيين عبد الرحمن وتقيمينه من بين الاموات »

فاقشعر بدنها وقالت « اذاً انت واثق بموته .. ؟ »

قال « كلاً وانما ارجو ان تتعلمي العمل بالواجب عليك والله نصير المظلومين . واذا كُتب لك لقاء عبد الرحمن في هذه الدنيا فانك تلقينهُ ظافرة وتعيشان سعيدين والاَّ فانك تلاقينهُ في الآخرة وقد انتقمت لابيك ولاهل البيت وذلك يكفيك »

وارادت ان تجيبهُ فسمعت الناقوس يدعو الرهبان وسائر اهل الدير الى العمل فهمَّت بالرجوع . فناداها الناسك قائلاً « تمهلي ياسلمى » وتناول طرف ثوبهِ وفيهِ عقدة حلها واستخرج منها ورقة ومد يدهُ وقال « خذي هذه الورقة فان فيها دواء الظلم اذا شربهُ يزيد شفي الاسلام من دائهِ »

فعلمت انهُ سمٌّ فتناولت الورقة وفتحتها فرأت فيها مسحوقاً ناعماً فعادت وطوتها وخبأتها في جيبها وهرولت الى الدير حتى اتت المطبخ واشتغلت مع سائر النساء في اعداد الطعام

ولما مالت الشمس الى الاصيل ظهر غبارٌ في عرض الافق ولم يكد يرى الرهبان ذلك حتى خرجوا بالمباخر والقماقم واصطفوا في ساحة الدير وعليهم الملابس الرسمية تتلالأ بالوانها الزاهية وفيهم المرتلون وضاربو الصنوج والرئيس في مقدمة القوم وبين يديهِ غلمان يحملون سعف النخل وطاقات الزهور

وبعد هنيهة اقبل الركب تتقدمهُ الخيالة وفي صدرهم يزيد راكب على فرس عربي عدتهُ من الفضة الناصعة البياض . وعلى كتفيهِ قباءٌ وردي اللون مزركش بالقصب . فحالما وقع نظر سلمى عليهِ عرفتهُ فاقشعر بدنها وتذكرت حالها معهُ ولكنها تجلدت وابثت تنتظر ما يكون . فاذا بالرجالة اسرعوا فضربوا فسطاطهُ بقرب الدير وترجل الفرسان واقبل الخدم وفيهم خدمة الصيد يحملون البزاة والقرود ويسوقون الكلاب والفهود كما رأيتهم في دير خالد منذ نحو عامين . وكان يزيد اذا رحل جعل همهُ الاشتغال بالصيد

الفصل التاسع عشر والمائة

الضيافة

ولما ترجل يزيد استقبله الرئيس وكبار اهل الدير بالملابس الرسمية ورحبوا به . فلما دخل البسطاط دخلوا في اثره واستعطفوه ليقيم بينهم و يتناول العشاء عندهم فاجاب دعوتهم

فامروا بالاسمطة ففرشت في مكان معدّ لذلك وجاؤا باصناف الاشربة الحلوة بالوانها الزاهية وقدموا ليزيد ورجاله فشربوا . ثم امر الرهبان بالطعام فحملوه الى هناك وكانت النساء تهيئه وتساعد الخدم في احضاره

فلما ترتبت المائدة واصطفّت المواعين والاطباق نزع يزيد كوفيته وغسل يديه وجلس في صدر المائدة على وسادة من الحرير المزركش وجلس امراؤه بين يديه واخذوا في تناول الطعام

وفيما هو في اثناء ذلك وجه التفاتهُ الى الراهبات الواقفات للخدمة فوقع بصره على الاخت مريم فانبهر من جمالها وهيبتها وتذكر سلمى وكان قد بلغهُ انها ماتت منذ عامين واكثر وقال في نفسه — يا للعجب كم يتشابه الآدميون

وقضى مدة الطعام وهو يردد بصره فيها ولم يتمالك عن الميل اليها والاعجاب بامرها لشدة شبهها بسلمى

اما سلمى فكانت تتجاهل وتتظاهر بتقديم الاطعمة والاشربة وهي مطمئنة البال ان يزيداً لا يمكن ان يعرفها بعد ان بلغهُ موتها من طبيبه . وخصوصاً لانها بدلت اسمها وثيابها وسائر احوالها

اما يزيد فانهُ شغف بالفتاة وكتم شغفهُ ريثما يحتال في استقدامها اليه . فاخذ يلاطف الرئيس و يثني على ما لاقاه من كرمه وحسن وفادته و يعده خيراً بكل ما التمسهُ منهُ . فلما نهضوا عن المائدة دعاه الى خيمته و بالغ في اكرامه حتى غربت الشمس ودق ناقوس الصلاة فاستأذن الرئيس بالانصراف فاذن لهُ . ثم أسرَّ الى بعض اهل بطانته ما اضمر من امر الاخت مريم وكلفهُ استقدامها بحيلة

فخرج الرجل نحو العشاء الى الرئيس وبلغهُ سرور الخليفة بما لاقاه من الاكرام والحفاوة الى ان قال « وقد تعود الخليفة ان يتناول المرطبات قبل النوم »

فقال الرئيس « اننا اعددنا لهُ كل ما ترتاح اليهِ نفسهُ ونحن طوع اشارتهِ »

قال « ولكنني لا اظنكم تستطيعون القيام بكل ما يحتاج اليهِ »

قال الرئيس « كيف ذلك ونحن لا ندخر وسعاً في سبيل مرضاتهِ »

قال « لا اخفي عنك ان مولانا امير المؤمنين تعود ان تصلح لهُ الطعام فتاةٌ جئنا بها معنا من دمشق فمرضت في اثناء الطريق فارجعناها الى اهلها وقد قضينا بقية السفر والخليفة لا يرى الطعام لذيذاً . فلما تناول هذا العشاء عندكم اعجبهُ حسن طبخهِ ورأى بين النساء فتاة اعجبتهُ لباقتها في اعداد المائدة وتمنى لو انها تصحبهُ بقية سفرهِ الى حوران ولا اظن الراهبات يخرجن من الدير ولذلك خشيت ان لا تستطيعوا القيام بكل ما يحتاج اليهِ امير المؤمنين . . . . »

فابتدرهُ الرئيس قائلاً « ان بين نساء هذا الدير فتاة ليست راهبة ولكنها من احسن النساء عقلاً وذكاء وهي تصلح الطعام احسن اصلاح . فاذا كانت هي التي وقعت من مولانا امير المؤمنين موقع الاستحسان الحقناها ببطانتهِ في هذا السفر ولا نظنها الا فرحة بهذا الشرف العظيم »

فاستبشر الرجل بنيل المرام وقال « وأي فتاة هي ؟ »

قال « هي التي ندعوها الاخت مريم . . . . »

فقطع الرجل كلامهُ قائلاً « وهي التي اعجبت الخليفة فهل تظنها ترضى بخدمتهِ ؟ »

فهزَّ الرئيس راسهُ هزة الاستخفاف وقال « ومن يحصل على هذا الشرف ولا يقبل بهِ ؟ »

الفصل العشرون والماية

كأس العسل

ونادى للحال قيمة الدير وطلب اليها ان تستدعي الاخت مريم . فلما جاءت ووقفت بين يدي الرئيس قال لها « اعلمي يا بنية ان مولانا الخليفة مسافر الى حوران ويحتاج

الى فتاة تصلح له الطعام فامتدحت له مهارتك في ذلك وقد تنازل ان تكوني في خدمته فابشري باقبال سعدك واذهبي اليه . واوصيك ان تبذلي الجهد في ارضائه »

فسكتت سلمى وابدت الاستحسان بملامح وجهها وقد خفق قلبها سرورًا بتلك الفرصة

ففرح الرئيس ايضًا واثنى على لطفها وقال لها « سيري منذ الآن مع هذا الامير وكوني ساهرة في خدمة الخليفة فانه قد غمرنا بفضله واحسانه »

فسارت سلمى وقد تهيبت لتلك المهمة ولكنها صممت على الفتك بابن معاوية ولو مهما كلفها ذلك

وكان يزيد في انتظار رسوله فلما عاد اليه ظافرًا غانمًا اثنى على صدق خدمته وامره ان يعدّ له المرطبات والفاكهة ليتناولها قبل الرقاد . فاعدّ كل شيء وانصرف وبقي يزيد في الخيمة وحده فاستدعى الاخت مريم فدخلت وقد تلثمت بالخمار وتظاهرت ان اللثام من عادات اهل الدير

فسايرها يزيد في ذلك ترغيبًا لها في خدمته على ان ينال منها مرامه بعد سفره . على انه اكتفى بان يتمتع برأى ما ظهر من عينيها . فلما وقفت بين يديه امرها ان تناوله بعض الفاكهة فقدمت له ما شاء وهو لا يبدي شيئًا مما في نفسه مخافة ان تنفر منه فتأبى الذهاب معه ثم تظاهر بالنعاس وقال لها « اسقيني كأسًا من الماء المحلى بالعسل »

فقالت في نفسها « اني والله قاتلته بسلاحه » فتناولت الكأس وصبت فيها العسل وتظاهرت باستحضار ماء بارد فخرجت من الخيمة وبداها ترتعشان من عظم الاضطراب وفكرت هنيهة في امر السم الذي اعطاها اياه الناسك فرأت انها اذا صبته كله ربما يظهر تأثيره عاجلاً قبل ان تتمكن من الفرار فيقبضون عليها . فصبت جانبًا منه في الماء ومزجته بالعسل وقدمته له . فتناوله وشربه الى آخره وهو يريد ان ينام ليبكر في الرحيل ويخلو بالفتاة في حوران

اما هي فلما تحققت انه شرب الكأس خرجت من الخيمة ولم يستغشها احد وسارت توًّا الى الناسك فرأته واقفًا في ظل الشجرة فاشارت اليه اشارة فهم منها انها اتمت مهمتها وتريد الفرار فقال « هيا بنا لاتخافي .. »

ونسلق الشجرة وعاد منها بصرة تأبطها وامسك سلمى بيدها وخرج بها في طريق لا يراها فيه احدٌ . ولم تمضِ برهة حتى توارياعن الدير واصبحا في الصحراء فوقف الشيخ

وفتح الصرة فاستخرج منها ثوبين من اثواب اهل البلقاء اعطى سلمى ثوباً ولبس هو ثوباً فاصبح لايشك من يراهما انهما رجلان من اهل البلقاء . فعجبت سلمى لتأهب الشيخ الناسك وتحوطه ولكنها ما زالت خائفة فقالت له « اخشى ان يلحق بنا الجند وربما تمكنوا منا فما العمل »

قال « لاتخافي . . اتبعيني والله المنجي » فسارت في اثره فقضيا بقية ذلك الليل يتلمسان الطريق والناسك يرشدها كأنه يسير في ضوء النهار

الفصل الحادي والعشرون والمائة

صرح الغدير

واصبحا في اليوم التالي فاذا هما بالقرب من بناء خرب تدل بقاياه على فخامة اصله لكبر احجاره وسعة مساحته . فقالت سلمى « واين نحن الآن يا مولاي »

قال « اننا في البلقاء . وهذا صرح الغدير الذي يتغنى به الشعراء »

قالت « ألا يسكنه احدٌ الآن »

قال « كلاً فانه من بناء الغساسنة وكانوا عرباً نصارى فلما جاء المسلمون الشام وفتحوها دخلوا في حوزتهم . وكان هذا القصر لبعض ملوكهم يقيمون فيه بعض السنة وهو من بناء احد اجدادهم ثعلبة بن عمرو بناهُ منذ اربعة قرون وقد درس كما درسوا وسجان الحي الباقي »[1]

قالت « فالقصر مهجور الآن ؟ . . . »

قال « اجل . ولا بأس من الاستتار فيه بقية هذا اليوم ولا يمكن ان يهتدي اليه احد . فاذا انقضى النهار نستأنف المسير ولا خوف علينا باذن الله »

قالت « والله لا ابالي اذا مات يزيد ان اموت انا في اثره اذ اكون قد اقمت بالواجب وشفيت مافي نفسي ونجيت المسلمين من شر عظيم »

قال « انهُ مائت لامحالة لان نصف ذلك السم كاف لقتلهِ »

---

(١) اذا شئت الاطلاع على وصف هذا القصر فاقرأ الجزء الاول من رواية « فتاة غسان »

قالت « ولكني لم اسقهِ اكثر من النصف فهل يبتهُ ؟ »

قال « انهُ يبتهُ بعد ايام . وقد فعلت حسنًا بتقليل الكمية »

ومشيا وهما يتكلمان حتى دخلا من باب القصر الى ساحة تراكمت فيها الاتربة والاحجار وانسابت فيما بينها بعض انواع الحشرات . فتحول الشيخ وسلمى الى بقايا غرفة كأنها كانت مجلس اهل ذلك القصر في ايام عمارتهِ لها نافذة تطل على وادٍ فيهِ آثار جدول جف ماؤهُ منذ اعوام . فاستخار الشيخ حجرًا نظيفًا بجانب النافذة اجلسها عليهِ وجلس هو الى جانبها . ثم نهض بغتة وقال « دعيني انصرف عنك برهة ثم اعود اليك بالطعام . . . هل تخافين الانفراد . . ؟ »

قالت « لا اخاف ولكني استوحش وانا في هذه الخرائب المرهبة . دعنا من الطعام فاني لا احتاج الى شيء منهُ غير الذي جئتني بهِ من الدير ربما ننتقل الى مكان آخر »

قال « وتحدثني نفسي ان نختبيء في هذا المكان غير يوم لنرى ما يكون . ولا اظن احدًا يعرف مقرنا . فاذا فرغ النهار فرغ زادنا ولا يعيش الانسان بلا طعام . فامكثي هنا ولا بأس عليك فاني اعرف عربًا من بقايا الغساسنة على بضع غلوات من هذا المكان فاستقربهم وآتيك بما تصل اليهِ يدي والله الموفق . ولكني اوصيك بالتربص في مكانك ربما اعود » فلم ترَ بدًّا من طاعتهِ فسكتت

وخرج الشيخ الناسك وعليهِ ثوب أهل البلقاء وبقيت سلمى بين تلك الاطلال وحدها فما لبث أن توارى الشيخ عن بصرها حتى أحست بالوحشة وندمت على بقائها في ذلك المكان وودت لو انها سارت مع الشيخ الى حيث يسير . ونظرت الى ما حولها فاذا هي بين آكام من الاتربة تتمشى بينها الخنافس وانواع النمل فملّت الجلوس هناك . فوقفت وأرادت أن تشغل نفسها عن وحشتها فمشت لتنقد بقايا ذلك الصرح وتتأمل في أصل تكوينهِ فخرجت من تلك الحجرة الى غيرها فغيرها حتى انتهت الى دهليز مشت فيهِ فافضى بها الى سلم يطل على الوادي فعلمت انهُ مخرج أهل القصر الى ضفاف ذلك الجدول في أيام جريهِ . فانحدرت على السلم حتى انتهت الى مصطبة صغيرة . وكانت قد تعبت فجلست عليها واعجبها الظل وانعشها النسيم البارد فطاب لها البقاء هناك برهة فجلست على متكأ من حجر والنسيم يجري عليلاً فاحست بالتعب الشديد والنعاس الثقيل على أثر ما قاسته في الليل الماضي من التأثر والسهر والركض فغلب عليها النعاس فنامت واستغرقت في النوم . ولا تسل عما مرّ في مخيلتها من الاحلام وفيها المرعب والمزعج

الفصل الثاني والعشرون والمائة

البغتة

وفيما هي مستغرقة في نومها طرق سمعها جعير جمال فافاقت مذعورة ووقفت بغتة والتفتت الى ما حولها فرأت ثلاثة جمال عليها ثلاثة رجال قادمين من عرض البر نحو القصر وعلى الرجال لباس الدماشقة فارتعدت فرائصها ولم تشك انهم من اتباع يزيد وقد اقتفوا أثرها بعد ما أصاب يزيداً سوء. فهرولت على السلم وعادت الى الدهليز ومنه الى الحجرة التي كانت فيها وانزوت بحيث ترى القادمين ولا يرونها فاذا بهم ترجلوا بجانب شجرة على مئة ذراع من القصر وعقلوا الجمال واستخرجوا طعاماً وجلسوا يأكلون. فتوارت سلمى عنهم وعادت الى جهة باب القصر لعلها تجد الشيخ عائداً من مهمته فتستأنس به فلم تجد أحداً. فاستبطأته وانشغل خاطرها على غيابه وهي تعلم أنه لا يبطىء الا لامر ذي بال. فعادت الى الحجرة وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة ودنت من الاصيل ولم يعد الشيخ. فازداد انشغال بالها فعادت الى باب القصر ولم تكد تصل اليه حتى رأت الشيخ يعدو نحوها فوقفت في انتظاره فلما أقبل استغربته لانها رأته قد قلم اظافره ومشط لحيته وقص شعره ورفع حاجبيه عن عينيه ولولا الثوب الذي رأته عليه في ذلك الصباح لانكرته ولكنها رات التعب والبغتة في وجهه فقالت «ما وراءك يا مولاي وما الذي جرى؟ ..»

قال «ما ورائي الا الخير دعيني استريح ثم أقص عليك الخبر ولكنه خبر مفرح لا تخافي» فاطمأنت بالها بعد ان كادت تضطرب. وبينما هي في انتظاره وهو يلهث من التعب سمعت وقع اقدام خارج الباب وسمع الشيخ ذلك أيضاً فجلس وقد استراح وهدأ تنفسه ثم وقف وتقدم الى الباب فرأى رجلاً عليه لباس أهل دمشق والشيخ لا يزال هو وسلمى بلباس اهل البلقاء. وقد أمر سلمى أن تبقى داخل القصر ريثما يعود فمكثت حسب اشارته

اما هو فلما اقبل الرجل اليه رحب به وحياه. فقال الرجل «وهل في هذا المكان منزل للاضياف»

قال الناسك «كلاً وانما هو قصر خرب لا يسكنه احد»

قال « ولكننا رأينا فيهِ اناسًا »

قال « ليس فيهِ احد الاَّ انا وابني وقد مررنا بهِ في هذا الصباح فاقمنا ريثما نستريح وانت من اين قادم ؟ »

قال — « انني قادم مع رفيقيَّ هذين (واشار الى رفيقيهِ) من دمشق »

قال الشيخ « والى اين تقصدون »

قال « الى بصرى ويظهر لي من لباسك انك من اهل البلقاء فهل كنت في بصرى »

قال « نعم انني قادم منها ». قال « هل مررت بدير بحيراء » قال « نعم »

قال « ارايت في الدير او في جوار الدير شيخًا ناسكًا لا يأوي المنازل ؟ »

فلما سمع الشيخ كلام الرجل خفق قلبهُ وقال « نعم اظنني رايت مثل ذلك الناسك هناك ... ولكن ما الذي يهمكم من امره ... ؟ »

قال « لا يهمنا شيءٌ ولكن رفيقيَّ عرفاه مذ كان بجوار دمشق ثم سمعا انهُ يقيم بجوار بصرى وهو شيخ ذو كرامة لو لقيتهُ وخاطبتهُ لعلمت انهُ من الاولياء »

فادرك الشيخ ان في الامر سرًّا يهمهُ استطلاعهُ فقال « ومن هما رفيقاك » قال « لا ادري من اين هما ولكنني صحبتهما من جوار دمشق على ان آتي بهما بصرى ثم اعود وهما اللذان قصا عليَّ كرامات الشيخ الناسك »

قال الشيخ « لماذا لا يأتيان الى هنا فاقصُّ عليهما من نبأ الشيخ الناسك ما يغنيهما عن التعب الكثير »

الفصل الثالث والعشرون والمايتة

صدفة غريبة

فتحول الرجل الى رفيقيهِ وسار الشيخ في اثرهِ حتى اقبل على الرجلين وكانا جالسين تحت الشجرة فلما رأيا الناسك مقبلاً مع رفيقهما تبرَّما كانهما استاءا من قدومهِ . أما الشيخ فلم يكد يراهما حتى عرف انهما عامر وعبد الرحمن ففرح فرحًا عظيماً ولكنهُ تجلد واراد ان يمتحنهما . فلما اطلَّ عليهما رحبا بهِ فقال لهما « وما ذا تريدان من الشيخ الناسك العلكما من اهلهِ »

فقال له عامر « لسنا من اهلو ولكننا عرفناه في دمشق واحببنا ان نلقاه فهل رأيته ؟ »

قال « لقيته في دير بحيراء ولكنكم اذا ذهبتم اليو فلا تجدونه هناك »

قال عامر « واين نجده »

فالتفت الشيخ الى رفيقها وخاف من التصريح امامه فقال لعامر « اذا شئت ان ترى الشيخ الناسك فاني ادلك على مكانو في هذه الساعة . تعالَ معي »

وكان عبد الرحمن جالساً يسمع حديث عامر والشيخ ولا يتكلم فلما سمعه يقول ذلك قام وقام عامر ومضيا حتى بعدوا عن الشجرة ودنوا من القصر فقال الشيخ « ان الشيخ الناسك مقيم في هذا القصر الخرب »

فقال عبد الرحمن « مازلت من صباح هذا اليوم وانا انظر الى هذا القصر فلم اجد فيو غير شاب يظهر انه في ريعان الشباب وكانه مقيم وحده هنا وقد استغربنا مقامه »

قال ورفع صوته « يا للعجب اقول لكم قولاً فلا تصدقونني انه لعجب عجاب »

فلما سمع عامر صوت الشيخ بنتهره اشتبه بو وجعل يتأمل في سحنتو فرآه يشبه الناسك من جهة و يشبه من جهة أُخرى شخصاً آخر يعرفه ولم يكن قد رآه منذ بضعة عشر عاماً فلبث عامر صامتاً لا يتكلم كانه اصيب بالبله

فقال له الشيخ « ما بالك ما الذي ربط لسانك ياعامر »

وما أتمّ كلامه حتى ترامى عامر على الشيخ وجعل يقبل يديو و يقول « انت الشيخ الناسك ؟ »

قال « انا هو . »

فلما سمع عبد الرحمن ذلك صاح فيو « واين سلمى ... ؟ »

قال « ومن ادراك ببقائها وانت اخبرتني انها ماتت ورأيت قبرها محفوراً »

فقال « قلت لك ذلك وهذا هو اعتقادي واعتقاد عمي عامر ولكن زينب بنت علي انبأتني ببقائها في قيد الحياة وانها صحبتها في واقعة كربلاء ثم الى دمشق ثم لم تعد تعرف مقرها »

فنظر الشيخ الى عبد الرحمن وقال له « وهي كانت تعتقد انك ميت حتى انبأتها ببقائك حياً ونحن في كربلاء . ثم علمت انك خرجت الى الكوفة في مهمة وانقطع خبرك فيئست من بقائك و ... »

فقطع عبد الرحمن حديثه وقال « والآن قل لي ابن هي سلمى ... هل هي معك ام ابن ... قل لي .. بالله قل لي »

قال « ألم ترها اليوم ؟ »

قال « ابن »

قال « في هذا القصر »

فاطرق عبد الرحمن ثم قال « العلها الشخص الذي رأيته وحسبته شاباً ؟ »

قال « نعم »

فهم عبد الرحمن بالمسير الى القصر وقد شاعت عيناه وخفق قلبه ولم يعد يصبر عن رؤية سلمى فمنعه الشيخ وقال « تمهل لاطلاعها على خبرك رويداً رويداً لئلا تضرّ البغتة فيها . وارى ان تصرفا هذا الرفيق الى مكان لئلا يطلع على شيء من امرنا »

فقال عامر « انه رفيق مأجور ليدلنا على الطريق »

قال الشيخ « فاصرفه الساعة ونحن نعرف الطريق »

قال « سارسله الى بصرى ليسأل عن الشيخ الناسك هناك ويعود »

اما عبد الرحمن فاشرق وجهه وبرقت اسرته واخذ يتطلع الى القصر ويتطاول لعله يلمح سلمى من نافذة او ثلم

الفصل الرابع والعشرون والمائة

خبر غريب

اما الشيخ فاسرع الى القصر فرأى سلمى في الحجرة وقد ملّت الانتظار لتعلم من هو ذلك الرجل وتستطلع ما دعا الى تغيير سحنة الشيخ وبغتته — فلما اقبل عليها ابتدرته بالاستفهام عن سبب ذلك التغيير فقال « دعي عنك ذلك الآن وفكري معي في كيفية النجاة من هذه الورطة »

قالت « واي ورطة » وعلت الحمرة وجهها

قال « ان هؤلاء الرجال قادمون من عند يزيد للبحث عنك فهل اخبرهم بمحلك »

فبغتت سلمى وقالت « قلت لك لاابالي ما يجري لي اذا علمت ان سهمي اصاب

مقتلاً من يزيد »

قال « اذا اكدت لك ان يزيداً مات من تلك الجرعة هل تسلمين نفسك الى رجالو ليقتصوا منك ... ؟ »

قالت « اذا استطعت النجاة لا القي نفسي بين ايديهم اما اذا قبضوا عليّ وارادوا قتلي فاني لا ابالي بالحياة .... ولكن ..... » وسكتت

قال « مابالك تترددين ؟ .. قولي ... ان هؤلاء الثلاثة تتبعوا خطواتنا حتى ادركونا هنا وهم يجثون عنك فهل اقول لهم انك هنا ؟ »

فاستغربت سؤاله ولم تفهم هل هو يمزح ام يقول الجد فاجابته « قلت لك اني اذا نفذ سهمي لا أبالي ان اقتل الاّ اذا كان ..... » وخنقتها العبرات ولم تعد تغالك عن البكاء والشيخ صامت لا يتكلم حتى فرغت من بكائها فقال لها « اذا كان ماذا ؟ »

قالت والبكاء يغالبها ويخنق صوتها « اراك تهزأ بي او تريد قهري . وعهدي بك احنّ عليّ من الوالد على ولده فما بالك تتجاهل عواطفي ؟ .. وانا مع ذلك لا استحي ان اقول — اذا كان حبيبي عبد الرحمن لا يزال حياً فاني اضنّ بحياتي واحب البقاء من اجلو .. . والا فاني لا انتظر رجال يزيد ليجثوا عني بل انا التي نفسي بين ايديهم واعرض صدري لاسنتهم او اتجرع بقية السم وهو لا يزال معي ... اكّد لي الآن ان عبد الرحمن مات فتراني مائتة في هذه الساعة .... » قالت ذلك وهي تشهق من شدة البكاء

فاجابها الشيخ بضحكة طويلة طالما سمعتها منهُ وقال لها « عبد الرحمن ... ايه .. ايه .. ومالك ولعبد الرحمن ... واذا فرضنا ان يزيداً مات وعبد الرحمن لا يزال حياً صحيحاً معافىً فماذا تقولين ... ؟ »

قالت « قلت لك يامولاي .. لا تهزأ بعواطفي فقد كفاني ما أصابني ... استحلفك بالله ان تتركني وشأني »

قال « وما معنى الاستهزاء الآن ... اني اقول الجد .. واذا كنت لا تصدقين فاني انادي صوتاً فاستحضر عبد الرحمن بين يديك وعامر معهُ »

فشخصت في الشيخ شخوص البغتة وفكرت قليلاً وهي لا تزال تظنهُ يمزح ولكن قلبها خفق خفوق الفرح وكأنهُ دلها على صدق قولهِ فقالت « نعم ادع لي عبد الرحمن او

قل لي ابن هو فاسعى اليو على رأسي و يديّ »

قال « بل هو يسعى اليك تربصي ريثما أدعوه لك » قال ذاك وخرج وهي لاتزال تحسبه يعبث بها ولكنها سارت في أثره فلما وقع بصرها على الرجلين قالت في نفسها لعل عبد الرحمن إحدهما فلما اطلت عليهما عرفت عبد الرحمن واسرعت واسرع حتى تقابلا ورمت نفسها على ذراعيو فضمها ودموعها تتساقط من شدة الفرح وعامر والشيخ واقفان وقلباها برقصان فرحًا لالتقاء ذينك الحبيبين بعد اليأس من اللقاء . ثم انهضاها ودخلوا جميعًا الى القصر و يد سلمى بيد عبد الرحمن . وعامر لا يزال يفكر في امر هذا الناسك ومشابهتو رجلاً يعرفهُ

الفصل الخامس والعشرون والماية

واقعة الحرة

فدخلوا الحجرة وجلسوا يقصون ما مرّ بهم

فبدأ عامر يقص ما اصابهُ واصاب عبد الرحمن منذ ذهبا الى الكوفة فقال « ذهبنا الى الكوفة للبحث عن امر مسلم بن عقيل فقبضوا على رفقائنا ونجونا نحن واختفينا في مكان ريثما نرى ما يكون من امر الحسين ورجالو . فلما علمنا بمقتلهم وارسال اهلهم الى دمشق اقتفينا اثرهم الى دمشق فقيل لنا انهم ارسلوهم الى المدينة فسرنا الى المدينة واليأس قد اخذ منا مأخذًا عظيماً لاعتقادنا بموت الحبيبة سلمى مع حبوط مسعانا في نصرة الحسين على القوم الظالمين

« فوصلنا المدينة واقمنا فيها مدة . ولم يتفق لنا لقاء زينب الاّ بعد واقعة الحرة التي أتم بزيد بها فظائعهُ على انصار اهل البيت — وسبب هذه الواقعة ان أهل المدينة أجمعوا آخر العام الماضي (٦٣ للهجرة) على خلع يزيد واخرجوا عاملهُ من المدينة فبعث اليهم جندًا مع مسلم بن عقبة وامره ان يقاتلهم فاذا ظفر بهم اباح المدينة للجند ثلاثة ايام . فسار وحارب وقتل كثيرين من اهل المدينة ثم اباحها فقضى رجالهُ ثلاثة ايام وهم يقتلون الناس و ينهبون الاموال و يفسقون و يرتكبون كل منكر [1] و يبلغ عدد اللذين

---

١ ابو الفداء ج ١

قتلوا من وجوه الناس سبعماية ومن الموالي عشرة آلاف

« وكنت في اثناء هذا الواقعة من انصار اهل البيت ولكن يزيداً هذه المرة أوصى بهم خيراً فلم يصابوا بسوء

« ولما انقضت المذبحة وارتاح البال لقيت زينب فسألتني هل لقيت سلمى فقلت واي سلمى . فاخبرتنا بما كان من بقائها وانها فارقتها آخر مرة خارج دمشق فركبنا الى دمشق وبحثنا عنها فلم ينبئنا منبئ بخبرها . ولكننا فهمنا في اثناء البحث ان الشيخ الناسك كان هناك في نحو ذلك الزمن فترجح لنا انكما سرتما معاً . وبعد التحري علمنا من بعض القادمين من بحيراء الى دير خالد ان مولانا الشيخ في جوار بصرى فجئنا لعلنا نراك ونبحث عن سلمى . فالحمد لله على هذه الصدفة الغريبة »

وقصت سلمى ما اتفق لها منذ كانت في قصر يزيد الى آخر حديثها

وقص الشيخ الناسك ما كان من واقعة كربلاء حتى أتى على حديث الامس وجرعة العسل

فابتدرته سلمى قائلة « لم تخبرني بعد عن سبب تغير سحنتك »

قال « هذا لا أخبرك به الآن ولكنني أخبرك بسبب تاخري عن الرجوع فاسمعوا - خرجت بحجة استجلاب الطعام لسلمى وانا انما أريد ان استطلع عاقبة تلك الكأس فهرعت الى بصرى وتسمعت الاخبار فعلمت ان يزيداً ركب في ذلك الصباح وهو يشكو من جنبيه وقد أصابته بحة وهي أول اعراض هذا السم ولا أظنه الا مائت قريباً فينجو الاسلام والمسلمون من خلافته

وكان الشيخ يتكلم وعامر يتأمل في ملامحه وحركاته لشابهته رجلاً يعرفه فلما بلغ الى قوله عن قرب موت يزيد اشتغل بالفرح عن كل شاغل وكذلك عبد الرحمن وسلمى وباتوا تلك الليلة ولم يناموا الا قليلاً لشدة الفرح

وفي ضحى اليوم التالي عاد رسولهم الذي انفذوه الى بصرى فسألوه عما وراءه فقال انه لم يجد الشيخ الناسك ولكنه سمع بوفاة يزيد في حدود حوران [1]

فصاح الشيخ « هل تحققت موته »

قال « نعم يا مولاي »

---

(١) توفي يزيد في ١٤ ربيع اول سنة ٦٤ هـ وهو ابن ثماني وثلاثين سنة بالذبحة وداء الجنب في حوران

الفصل السادس والعشرون والماية

كشف الحقيقة

فقال الشيخ « وما سبب موته وعهدنا به شاب صحيح البدن »

قال الرجل « سمعتهم يقولون انهُ اصيب بداء الجنب والذبحة وكأنهُ ذاب ذوبان الرصاص »(١)

فتظاهر الشيخ بالأسف وأشار الى عامر ان يصرف رسولهُ فنهض عامر فصرفهُ واثنى على فضلهِ وعاد وقد خلا الاربعة في حجرة من حجر صرح الغدير ولم يمرَّ باحدهم يوم أسعد من ذلك اليوم وخصوصاً سلمى لانها هي التي باشرت الانتقام بنفسها

ونظر اليها عبد الرحمن نظرة الحب الممتون وقال « لا أدري كيف أحبكِ ولا كيف أبدي لك حبي وكيف لا أموت في هواك وقد استجمعت أشرف خلال النساء وأندر خلال الرجال فحويت الجمال والوقار والحكمة والعقل والشجاعة . ويكفي من حسناتك انك قتلت هذا الدعيَّ وانقذت المسلمين من ظلمهِ وانتقمت لأبيك انتقاماً عجزنا كلنا عنهُ . . . »

فاجابتهُ سلمى بملامح عينيها اني انما فعلت ذلك لاني أحبك ولا يصعب عليَّ شيء في سبيل حبك

وكان الشيخ في أثناء ذلك شاخصاً في الفضاء كأنهُ مستغرق في أمر ذي بال وعامر ينظر اليهِ من طرف خفي ويتفرس في وجههِ لمشابهتهِ برجل يعرفهُ وهو عزيز عليهم جميعاً . فلما فرغ عبد الرحمن من كلامهِ انتبه الشيخ الناسك كأنهُ هب من رقاد والتفت اليهم وقال « آن لي ان اقص عليكم ما تتساءلون عنهُ من خبري . تعالوا معي فساروا في اثرهِ حتى خلوا في غرفة فجلس وقد تغير وجههُ وبان الجد في عينيهِ وكأنهُ كان مصابًا بالجنون وعاد عقلهُ اليهِ في تلك الساعة وظهر ضعف الشيخوخة فيهِ . وقبل ان يقص حكايتهُ التفت الى عامر وقال « ألا تعرفني ياعامر »

فتفرس عامر فيهِ وقال « قد عرفتك في هذه اللحظة . . أأنت عدياً والد حجر ؟ . . »

(١) الخميس ج ٢

قال « نعم »

فلما قال ذلك التفتت سلمى اليه وقد بغتت قالت « انت جدي ؟ . . »

قال « نعم يا حبيبتي ولعلك ادركت شيئاً من ذلك يوم رثيتُ الحسين في سهل كربلاء » . فترامت سلمى على يديه تقبلها فقبلها عديٌّ وهو يبكي ويشهق وبكى عبد الرحمن وقبل يد الشيخ . ثم عاد الشيخ الى اتمام الحديث فقال « واما سبب تكتمي فاني لما اصبت بمقتل حجر لم يعد يحلو لي البقاء . ولكن قلبي ظل عالقاً بالانتقام وكيف انتقم وممن انتقم ؟ فعللت نفسي بموت معاوية ومبايعة الحسين وجعلت مقامي فوق قبر ابني وحشاشة كبدي في غوطة دمشق استنشق ترابه واتنسم ريحه . فتشل الحسين بالبيعة وتولى الخلافة يزيد وانا صابر انتظر الفرج او الموت . فلما جئتم الى دير خالد واجتمعتم تحت الجميزة وتعهد عبد الرحمن بقتل يزيد كنت انا مختبئاً في أعلى الجميزة وانا القائل لكم في تلك الليلة ﴿ وبشر الذين ظلموا بعذاب أليم ﴾ . وظللت كاتماً امري وانا اسعى في مساعدتكم جهدي كما تعلمون واخاف ان يعرفني عامر اذا لقيته فكنت اغطي وجهي منه . وقد عاهدت نفسي منذ اصبت بحجر ان لا اقص شعري ولا آكل غير الفاكهة ولا آوي المنازل واني متى منيت بما تشتهيه نفسي من الانتقام اسلمت روحي فلما علمت البارحة بقرب موت يزيد حللت نذري وقصصت شعري كما ترونني . . اما وقد مات يزيد فقد آن لي ان اسلم الروح . . . فاوصيكم بتقوى الله والاستهلاك في نصرة اهل بيت النبي واقيموا في مكة وحجوا الى كربلاء وابكوا قتلاها ما استطعتم وسيقتص الله من القوم الظالمين . . » قال ذلك وقد تلجلج صوته وكلهم يبكون ويعجبون ثم تومد وتمطى وهو يقول « اني القى الموت بالترحاب بعد ان بللت ثرى ولدي بدم ابن قاتلو » وما اتمّ قوله حتى اختلج واسلم الروح

فبكوه وندبوه وهم يستغربون ما قصهُ عليهم من خبره وفي اصيل ذلك اليوم دفنوه وصلوا عليه ورحلوا عن البلقاء حتى اتوا مكة وفيها ابن الزبير ولا سلطان للامويين فيها فعقدوا لعبد الرحمن على سلمى وعاشوا بالهناء حتى اراد الله ان يتوفاهم

﴿ تمت الرواية بعون الله وبحمده ﴾

DATE DUE

JAFET LIB.
27 MAR 2006
Circulation Dept. 1

JAFET LIB.
22 NOV 1995
Circulation Dept. 2

JAFET LIB.
-1 OCT 2015
Circulation Dept. 4

892.78:Z39g2A:c.1
زيدان، جرجي
غادة كربلاء
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01044354

892.78
Z39g2A